# وراثة
# عائلة المطعني

محمد جبريل

# ورثة عائلة المطعني

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

# ورثة عائلة المطعني

محمد جبريل

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ١ ٣٦٤٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

# المحتويات


| | |
|---|---|
| هواتف الحق | ٩ |
| أول مقام الأمل | ١٣ |
| رتق ما انقطع | ٢٣ |
| السير في طرق الحيرة | ٣٣ |
| على حافة أرض مجهولة | ٤٣ |
| التحليق في سماء مغلقة | ٤٩ |
| أعود — كما كنت — وحيدًا | ٥٧ |
| أغصان بلا جذور | ٦٣ |
| الشيخة محاسن الملقبة بذات الهمة | ٦٩ |
| أبتعد عن المشهد ... لأتأمله | ٧٩ |
| استدراك ما لم يلحقه السهو | ١٤١ |
| إذا أردت الثمرة ناضجة، فاصبر | ١٦٣ |
| انقطع الخيط فسقطت حبات المسبحة | ١٦٩ |
| وقائع لا يمكن التنبؤ بها | ١٨١ |

ما بال الزمان يضنُّ علينا برجال ينبهون الناس، ويرفعون الالتباس، ويفكرون بحزم، ويعملون بعزم، ولا ينفكون حتى ينالوا ما يقصدون.

الكواكبي

أنا سعيد بالثورة، لكنني حزين على أولئك الذين يقتلونها، وإن ظنوا أنهم يدافعون عنها.

تولستوي

# هواتف الحق

هبطتُ من ترام خمسة في مفترق شارعَي رأس التين وصَفَر باشا. تشاغلت بالنظر إلى عناوين الصحف، على الاستاند المجاور لفرن حبيب. هو الموضع نفسه، وإن اتسعت المساحة، وزادت الصحف، بالإضافة إلى الكتب المستعملة وأفلام الفيديو.

اخترت طريقًا مغايرًا لما كنت أسير فيه إلى بيت المسافرخانة ... عبرت — بخطوات مهرولة — إلى الناحية المقابلة ... سرت على مستطيلات البازلت، ربما لم تتبدل، منذ تركت الإسكندرية ... مِلت في انحناءة شارع صَفَر باشا، مزدحم، يخالف ما أهملَته الذاكرة.

جاوزت — إلى اليمين — زاوية خطَّاب ... ظللت في سيري البطيء المتلفِّت، حتى الشارع الضيق، على جانبيه بيوت قديمة، متلاصقة. في الواجهة، البيت ذو الطوابق الثلاثة، الشبابيك العالية، الكالحة اللون، مغلقة، أو مواربة، البوابة الحديدية السوداء الهائلة، بتشابكاتها الزخرفية، تركت انفراجة، أتاحت لي الدخول.

شملتني ارتجافة وأنا أخطو داخل البيت. كانت تلك هي المرة الأولى منذ حوالَي ثلاثين عامًا. بدا المكان في صورةٍ غير التي تركتها فيه: الأبواب والسلالم والحجرات الجانبية والأسقف العالية، كل شيء على حاله، وإن حدث تغيُّر لم أدركه، ربما أحدث الغياب تأثيره في الذاكرة، يضيف، ويحذف، ويبسط، ويقلِّص، ويبدل الملامح والقَسَمات.

لم يعد البيت إلى ما كان عليه، امتص الهدوء ما كنت قد اعتدته من حركة: حلقات قراءة، ونداءات وأغنيات، وخطب، ومناقشات صاخبة، وترامي الروائح من المطابخ، وارتطام الأوعية، وتلاوة القرآن من راديو قريب. غاب ما أَلِفت رؤيته من العمائم والجلابيب والجبب والقفاطين والقباقيب والأقدام الحافية.

تكررت عودتي إلى الإسكندرية، مقصدي وراثة الوقف. تطول زياراتي للشيخ مكايد حتحوت، يبسط أمامي خرائط، يقلِّب أوراقًا ووثائق ومستندات، يعيد ما قاله من قبل

ويَزيد، يأخذ في الشرود واللهفة. أتعجَّل المعنى النهائي لكل ما رأيته، واستمعت إليه، ألحظ — في طريق عودتي بالقطار — أن ذهني محمَّل بكلمات توضيحية، وخطوط متقاطعة ومتشابكة، وأرقام كثيرة، دون أن تضم قبضة اليد ما أتصور أني حصلت عليه.

أخترق ميدان المحطة، إلى شارع السنترال، حتى تقاطعه مع شارع عبد المنعم، ومنه إلى شارع مرسي بدر، حتى تقاطعه مع طريق جمال عبد الناصر. أمضي في شارع صلاح سالم إلى ميدان التحرير، ثم شارع فرنسا.

اعتدت الميل من البوابة العالية ذات الحديد المنقوش، تُفضي إلى الساحة الساكنة، حولها بيوت الأوقاف، تعود إلى القرن التاسع عشر، تصل البيوت والنافورة وسطها طرقات مبلطة، وفي المواجهة بوابة أخرى، تُفضي إلى أسواق المغاربة والخيط والترك وزنقة الستات. أذكر قول أبي لما أزمع عدم السؤال عن نصيبه في الوقف: إن ما يتقاضاه من رَيْع تضاءل، غاب ما يحفزه للتردد على المكان.

أخلِّف شارع فرنسا إلى تقاطعه مع إسماعيل صبري، أنظر إلى البيت على مفترق ثلاثة شوارع: إسماعيل صبري ورأس التين وفرنسا، زال بيت الأوقاف القديم، التشققات والصدوع، الحوائط الجيرية المتآكلة، نشع الرطوبة المتداخل برائحة القدم، الطلاء المتساقط يكشف عن الطوب الأحمر، المستند إلى تكوينات من الخشب، الأسقف العالية، الشبابيك ذات الضلف الأربع، تتدلى على حوافها عقود البامية الناشفة، وحُزَم البصل والثُّوم. تبدلت البناية الجديدة، تضاءل السقف المرتفع، والنوافذ الواسعة، العالية. حلَّ بدلًا من الطوابق الثلاثة أربعة طوابق في ارتفاع أقصر مما أتذكر به البيت القديم.

كان أبي يعتز بوراثتنا للبيت، نسكن في واحدة من شققه، ويدخل في قائمة البنايات التي يعود — كل عام — بنصيبه من رَيْعها.

سافرت — منقولًا — من إذاعة الإسكندرية للعمل بوزارة الإعلام، تصورت في البيت المطل على شارع بولاق، مكانًا مناسبًا، لكن زوجتي لم تتحمل الابتعاد عن الإسكندرية، فاستأذنت في العودة. أمضت في صحبة الأبناء أقل من عامين، ثم أخذها الموت في سنة حصول مرتضى — أكبر أبنائي — على ليسانس الحقوق.

بدا لي التقاعد قاسيًا، أعيش في شقة واسعة، بلا زوجة تؤنسني، والأبناء في بيوتهم، لا عمل، لا مواعيد، لا أصدقاء أجالسهم، أتابع رحيلهم في صفحة الوفَيَات بالأهرام، لا هواية أمارسها، حتى المقاهي لا أتردد عليها.

في لحظة، بدت الطرق متقاطعة، ومتشابكة، ترددت أيها أسلك. خشِيتُ السير في طريق لا أحبها، اختلاط الأوقات يصعب انتزاع ما أطمئن إليه، أخشى أن يتحول تقاطع الطرق إلى متاهات، ربما نظرت خلفي، أتبين كيف مضت الأحوال.

المصادفة دلتني على الطريق التي أزمعت السير فيها، وجدت أوراق الوقف في ملفات قديمة، كنت أعيد ترتيبها.

حلَّت الأوقاف الأهلية، من حق الورثة أن يبيعوا التركات لحسابهم: العقارات والأراضي الزراعية وكل ما صار حقًّا لعائلة المطعني.

تقاربَتْ — عقب إحالتي إلى المعاش — زياراتي إلى بحري، تباعدَتْ بغياب فرصة توزيع أنصبة الميراث. لم يعد وقف المطعني قابلًا للحل، جعل منه الشيخ مكايد حتحوت خزانة مغلقة، لا سبيل إلى حلها. واجه الصمت تكاثُر الالتماسات والاستغاثات إلى وزير الأوقاف، بتغير الوزراء.

غالبت التأثر لقول زوجتي: اسمي سمية المطعني، لكنني قنعت بما كنت تأخذه باسمك من الوقف، منذ حل الوقف لم نعد نحصل على شيء!

عدت إلى القضية بأخبار في الصحف عن وضع ميراث العائلة. أعدت قراءة اسم الشيخ مكايد حتحوت المسئول السابق لبيت المسافرخانة، لم أجد له موضعًا في شجرة عائلة المطعني، بينما اسم الشيخ حسن وردي الواعظ القديم لسيدي علي تمراز غصن كبير، تتفرع منه أغصان وأوراق. حفظت أسماء أجدادي حتى الخامس عشر، زين الدين المطعني الذي تسمَّى الوقف باسمه.

أنصت الولدان مرتضى وياقوت إلى ما رويته عن الوقف. اكتفيا بما قلت، لم يسألا عن قيمة الميراث، ولا إن كان لنا فيه حق.

قالت ابنتي سكينة في استغراب: إذا كان الميراث قد حل وصار من حقنا الحصول عليه ... فلماذا نصنع خصومات ونرفع قضايا؟!

ظلت حياتهم على حالها، وزياراتهم إلى بيت بولاق على تباعدها، يقضون الساعات القليلة، أو النهار كله، ثم يُسْلِمونني إلى الوحدة في الشقة الواسعة.

تتمهل خطواتي، حتى تجاوز سيدي علي تمراز، أسير في رأس التين بخطواتي البطيئة، المتمهلة، إلى الحجاري، الشعارات المتبقية من الثورة الفائتة على الجدران بالبوية والفحم وأقلام الحبر الملونة، تزيد الخطوات — بتأمل ما حولي — بطئًا، حتى انحناءة شارع المسافرخانة.

أذكر — آخر مرة — مستطيلات البازلت، التمعَتْ في بلل المطر، بما يشبه تموجات السراب، مشيتي عليها أقرب إلى التقافز، أُزيلت من الجانبين مواضع، حلَّت — بدلًا منها — مواضع أخرى، أحدِّق في حولي بنظرات متلفتة، معظم ما أراه يذكرني بناس ومواقف، ظلت ثابتة، أو علاها الشحوب، فهي بلا تفاصيل، تغيرت ملامح وقسمات، غابت وجوه اعتدت رؤيتها، وطالعتني وجوه لم أرها من قبل، كثير من الوجوه تغيرت، أعاني النظرات المتسائلة والفضولية والمستغربة، ما أَلِفته لم يعد كذلك، أفكر في تقديم الذات، وسؤال الآخرين عن ذواتهم، يؤلمني أني أشعر بالغربة عما حولي، وإن ظل الكثير على حاله، البيوت القصيرة، الشبابيك العالية، السلالم الرخامية، المتآكلة، الدكاكين، عربات اليد. حتى عربة البطاطا لا تزال في موضعها، أول الشارع، يتصاعد منها البخار.

تنبهتُ على صيحة من وراء شباك، أبعدتني عن عربة كارو، يجرها حمار، تقرقع عجلاتها الخشبية على مكعبات البازلت.

مِلت من المسافرخانة إلى شارع راسم باشا.

أرض المجاورين.

أغمضت عيني بعفوية، ربما لأستعيد صورة الخلاء أمام البيت ذي الطوابق الثلاثة.

علت البيوت في أطراف المكان، الشارع — من اليمين — يمضي إلى الحجاري وشوارع السيالة الضيقة، والشارع — من اليسار — يتجه ناحية البحر، تخلف مطحن شيمي بك بجدرانه الصامتة، وهدير الماكينات في الداخل، ربما تجتذبك أفيشات قديمة لسينما الأنفوشي المغلقة، قبل أن تواجه أفق البحر.

تلاشت أرض المجاورين، قامت في مواضعها بنايات سكنية، لعب الكرة — أوقات العصاري — في الأرض الخالية، لعب البلي والدوم والنحلة والأوِّلة وأولها اسكندراني والاستغماية والسيجة، الطائرات الورقية في تحليقها، واشتباكها بالطائرات الأخرى.

ضاقت الساحة بالبنايات التي شُيِّدت حولها، تحولت إلى ما يشبه ميدانًا صغيرًا، أو تقاطع طرق يشغي بالباعة والأولاد.

انحنيت إلى شارع مصطفى العربي ... لم تتغير واجهات البيوت عما حفظَتْه ذاكرتي، في المواجهة الباب الحديدي لبيت المعهد الديني.

# أول مقام الأمل

زاد تلفُّتي في المكان الخالي.

استعدت — وأنا أنظر إلى ما حولي — إحساس الألفة للمكان: الباب الحديدي الهائل، يفضي إلى صالة دائرية عالية الجدران، يحيط بها سلم من الناحيتين، ينتهيان إلى صالة مستطيلة، واسعة، تفضي إلى طرقات، وإلى الطابق العلوي، الطرقات موصلة بين الحجرات والمطابخ ودورات المياه والحمامات.

تترامى في مخيلتي — كالأصداء — أصوات انهمار الماء من الحنفيات والأكواب، وقرقعة الأواني والأطباق، تتردد في القاعة الواسعة تلاوات القرآن، لغط المناقشات، صيحات الطلبة ونداءاتهم على السلالم الرخامية العريضة، والدرابزين الحجري، غناء الشيخ ياسين الحامولي على إيقاع ما في أيدي الطلبة من الملاعق والسكاكين، يختار كلماته من مقام الراست، تعبر عن معاني الشجن والحب.

الطابق الأول تتداخل فيه حجرة شيخ المعهد والإدارة وحجرات الطلبة بحوائط خشبية، ومخازن العهدة، وحجرة المشايخ، والمكتبة. تدور على الطلبة — في مسامرات المساء — أكواب الماء البارد والشاي الساخن، تتكرر أدوارًا متتالية، يتوقف دورانها عندما تنتهي الإشارة بالمعنى. يمتد السهر إلى مطلع الفجر، يأخذنا السمر والنقاش والجدال والغناء، حتى يُرفع الأذان من أبي العباس، يؤدون الصلاة جماعة داخل البيت، ويمضون إلى حجراتهم. أقل من ثلاث ساعات، ثم يمدون أيديهم إلى القفاطين والكاكولات والعمائم، تأهُّبًا للخروج.

جاوزت المكان الذي اعتدت دخوله، في بالي أن أجلس إلى الشيخ حسن وردي، نأخذ ونعطي في قضية الوقف: هل تحركَت، أو أنها لم تغادر موضعها؟ يقدم الشيخ حلولًا يراها مناسبة.

لم أصادق الشيخ حسن وردي ولا خالطته، لكنه أحد الثوابت في ذاكرتي. تبتعد الصور، تتلاشى، حتى لمن كانوا قريبين مني. أنسى حتى الملامح، حتى الأسماء، أغمضت عينيَّ بتلقائية، واستغرقت في الصمت، لحظات حاولت خلالها أن أستعيد الصورة المرسومة للرجل في ذاكرتي: ملامحه الطيبة، نبرة صوته، إيماءاته وتشويحاته العفوية.

الشيخ حسن وردي هو الرجل الذي كنت أنتظره، وأبحث عنه، هو من سيعيد الصورة إلى تمامها.

محاولات الحصول على حقي في الميراث بلغت حائطًا مسدودًا. لم أستطع الوثوب من فوقه، ولا اختراقه، رفْضُ الشيخ مكايد حتحوت جعَل المستحيل أفقًا وحيدًا، عرَفت أن تحريك الساكن ربما أحدثه الشيخ حسن وردي، استمعت إلى كثير من مواقفه أمام الشيخ مكايد. لم تأخذ صورة المواجهة، نقل أفكاره وأقواله ورثة الوقف، ردَّهم حتحوت بكلمات معتذرة، أو طردهم من مجلسه، لما فاجَئُوه بالأسئلة والأرقام والوثائق الصحيحة.

تعددت الرسائل التي تطرح الأسئلة، تحول الشيخ حسن وردي إلى ذكرى في أذهان كثيرين. ثمة من عرَفوه بالاسم والهيئة، ومن عرَفوه — على البعد — من أحاديث آبائهم، والناس الذين تتلمذوا على يديه. أَلِف الناس رؤيته في أكثر من مكان، يقف أمام مقام أبي العباس، يداه ممسكتان بالأعمدة المعدِنية، شفتاه تهمسان بأدعية وتهدجات، يسير مطمئنًّا في زحام شارع الميدان، يهبط السلالم من الطابق العلوي لجامع سيدي خضر، شوهد فوق مكعب أسمنتي في المينا الشرقية، دلَّى السنارة في المياه، وانتظر، وأشارت رواية إلى جلوسه — ذات عصر — على مقهى رأس التين، ورُوي أنه شوهد مع مريدي الطريقة الأحمدية الشاذلية، في طريقهم إلى ضريح سيدي أبي الحسن الشاذلي بحميثراء.

آخر ما أبلغتني به رسالة من أخبار الشيخ وردي، أنه يقضي سِنِي تقاعده في بحري. لا أحد من أئمة المساجد ولا الخدم يعرف أين يقيم الرجل، وإن تعددت الروايات عن رؤيته في تجمعات المظاهرات والاعتصامات، ترفض إشفاقي من أن شيخوخته لا تتفق مع زحام المظاهرات والهتاف والدخول في معارك محتملة مع الشرطة.

قال العجوز ذو التجاعيد المتداخلة في وجهه، والأنف الأشبه بمنقار، والسروال الأبيض الفَضفاض، الضيق عند الكاحلين: أمضى أشهُرًا يعظ الناس في زاوية خطاب، ثم اختفى.

استطرد كالمتنبه: أعرف أنه يسكن بالقرب من بيت المسافرخانة.

كأني رأيته من قبل، لكن الملامح التي تعيدني إلى ما عشته تغيب.

قلت: البيت مغلق منذ سنوات.

– جعله الشيخ مدرسة لتحفيظ القرآن.

ولاك في فمه ما لم أتبينه: كان البيت سكنًا داخليًّا، وليس معهدًا.

حاولت أن أتخيل الرجل في شيخوخته: هل ما زال يحفِّظ القرآن، ويدرس للصغار في المسافرخانة؟ هل يخرج من بيته؟ هل يتحرك أو أن العمر أقعده؟ هل تقتصر حياته على الانتظار، أو أن ذهنه متصل بالسنوات البعيدة؟

سبقني الولد إلى الحجرة الصغيرة، تلفها ظلمة شاحبة، إلى جانب البسطة الصغيرة خلف الباب. غاب — في القامة الضئيلة — ما كنت أتذكره. تخلى عن القفطان والجُبة والكاكولا والعمامة، ما كان يرتديه وقت إمامته في علي تمراز، لم تتبدل صورته بارتداء الجلباب الأبيض، الطويل الكمين، وفتحة الصدر ذات الأزرار الصغيرة، على رأسه طاقية بيضاء مشغولة بنقوش صفراء، ونظارة القراءة تطلُّ من الجيب العلوي. يلقي العباءة على كتفيه، بدلًا من إدخال جسده فيها.

وقف يحدق ناحية الباب، يده تحيط بعصًا طويلة. عرَفت أن صحته تعينه على الوقوف، وربما الحركة.

المنضدة الصغيرة إلى الجانب، أمامها دولاب بضلفتين، وتحيط بها ثلاثة كراسيَّ، عليها كتب تضاف إلى الكتب المصفوفة، والمتناثرة، على الأرفف، وفي أرجاء الحجرة. حتى الحائط المجاور للسرير المعدني، صُفَّت عليه كتب ومجلدات، إلا من نافذة حديدية. لِصْق الجِدار جهاز تلفزيون، ومكتب خشبي صغير عليه مجلدات وأوراق وقلَّامة يطل منها أقلام حبر جافٍّ ورَصاص. وثمة — على الجدار المواجه — شماعة من الخشب المخروط، في داخلها صورة للكعبة، ولوحة مرسومة بألوان الزيت؛ رجل يرتدي جُبة وقفطانًا، ويعتمر عمامة. حدَست أنها للجد المطعني. على الأرض كليم أسيوطي. يختلط صوت التلفزيون والضحكات والنداءات المترامية من الطريق، وصيحات لعب الأولاد والبنات في الصالة، وداخل البيت، ويترامى من الشارع — عبر النافذة — طنين الأصوات المتلاغطة.

اكتفى الشيخ بنظرة متسائلة.

قلت: أنا سامح نصير المطعني ... من أقربائك.

أومأ بهزة من رأسه، يحثني على مواصلة الكلام.

– ومن تلاميذك في سيدي علي تمراز.

وضع راحة يده إلى جانب أذنه، أدركت أنه لم يسمعني.

أعدتُ ما قلت.

وضع رأسه بين راحتيه، يتقي الصخب من حوله، قال بلهجة معتذرة: تركت رضَّعًا يعبِّرون بالصراخ، عدتُ إليهم وهم يتعثرون في النطق، ثم عدتُ بعد أن أحسنوا الكلام بمفردات ذات معانٍ، جلست إليهم — فيما بعد — تأخذنا القضايا في حوارات، أنصت فيها إلى ما لم أكن أعرفه في وقتي.

وحدجني بنظرة متأملة: ظني أنك كنت طفلًا.

– كان نقلك إلى جامع القائد إبراهيم وأنا في الثامنة.

استطردت موضحًا: هذا ما أذكره.

زوى ما بين عينيه، ومال برأسه: أنا أذكر أشياء كثيرة، وإن لم تكن واضحة، ١٩٤٨م هو العام الذي أُنشئ فيه القائد إبراهيم، بعد ثلاث سنوات صدر قرار نقلي إليه من علي تمراز.

بدا أن الكلمات لا تصدر عن شفتيه، هما في حالة انطباق، الكلمات كأنها همهمة: قرن وكيل وزارة الأوقاف قراره بتخييري للعمل في مساجد أخرى، لعله راعى خاطر المصلين.

ورفَّت على وجهه ابتسامة: قلت للوكيل: أفضِّل صلاة الجمعة في القائد إبراهيم للطف جوِّه. وبَّخني الوكيل: اخشوشن!

وتنهد في ارتياح ظاهر: طول عمري عضو في جماعة تحض على التمتع بما لا يفسد القلب.

ثم وهو يداري تأثره: نطقتْ كلماتي ما أملَته الدُّعابة، لكن وكيل الوزارة وافق على طلبي، لو أني لم أنتقل إلى القائد إبراهيم، ربما صار علي تمراز هو الجامع الذي تلتقي حوله المظاهرات. ظلَّت التأثيرات في موضعها الجديد، حتى بعد أن سافرت إلى الحجاز.

غاب عن تصوري أنه سيهبني إنصاته. أعددت نفسي لإلحاح يرجوه البوح، لكنه تكلم كما لو كان توقَّع لقائي، وأعدَّ نفسه لأسئلتي، ورتَّب الأجوبة، ينتقي تعبيراته، يختصر مفرداتها. جذبتني العفوية في الكلمات، المطعني كلمة السر، دفعتْ إلى نفسه ما ظهر على ملامحه من طمأنينة، غاب التشكك والريبة، كأن صداقتنا قديمة، فهو يصل ما انقطع.

لاحظ تفحصي للعصا المطعَّمة بالصَّدَف في يده، قال: اشتراها لي أكبر أبنائي من رحلة إلى الخليج.

قلت: هل السفر إلى السعودية اختيارك؟

– سافرت إلى الحجاز مضطرًّا، صعب أن أحيا في الثلاثين بلا عمل ولا نقود.

– سن صغيرة لوظيفة الإمام.

– إمامتي في علي تمراز أول عملي بعد تخرجي في الأزهر. أمضيت أربع سنوات في مرحلة التعليم الابتدائي بدمنهور، المسافة قريبة إليها من شرنوب، السنوات الخمس التالية قضيتها في بيت المسافرخانة، أتنقل بينه وبين معهد الورديان الثانوي. لم أهجره حتى بعد أن اعتدت السفر إلى القاهرة لاستكمال دراستي بالأزهر.

كانت وقفتي فوق المنبر في وقت انتشار الكوليرا. طويت الورقة التي وزعتها وزارة الأوقاف على خطباء المساجد، لاحظت — بعد قراءة أسطر قليلة — لامبالاة المصلين. تكلمت عن خطر الوباء، لم ينشأ من ذاته، بل هو نتيجة التآمر والإهمال، إبعاد الخطر لا يحدث بالوقاية، وإنما بالمحاسبة والعقاب. لم يصل الوباء إلى الإسكندرية، لكن الخوف تسلل إلى كل بيت، النواهي والمحظورات والمصادرات وريح الموت. وظيفتي في الجامع — كما حددتها الأوقاف — إمامة المسلمين في الصلوات الخمس المفروضة، لأول أوقاتها الشرعية، وفي قيام شهر رمضان، وصلاتي الخسوف والكسوف عند وجود سببها الشرعي، لم يفرق التحديد بين الإمامة والخطبة، فانطلقت عظاتي في آفاق رأيتها حولي. عرَفت في نفسي إجادة الارتجال، لا أرقى المنبر بأوراق كتبتُها، ولا كتيباتٍ من التي اعتادت وزارة الأوقاف توزيعها على أئمة المساجد، ما يوائم قناعتي أتحدث فيه، أستمده مما أراه، وأعيشه. إهمال الحكومة في منع الوباء، وفي مكافحته، سَدَى خُطبي الأولى.

بدا منطلقًا، شحب ما أظهره — في البداية — من حذر، لم يعد يتأمل في ملامحي رد الفعل لكلماته.

– عكست عظاتي تأثري بما جرى في البلد.

ربت كتفي مستطردًا: رعاية مصالح الناس أفضل من تعليم صحة الوضوء.

حرص على إمامة المصلين في صلاة الجمعة، وفي الصلوات الخمس، إن تأخر دخوله صحن مسجد علي تمراز في موعد إحدى الصلوات، ظل المصلون في أماكنهم، يتطلعون إلى قدومه من الباب المطل على ميدان «الخمس فوانيس». إذا تعذر عليه — لسبب ما — إمامة الصلاة بنفسه، فإنه يكون قد أوصى بمن يخلفه فيها.

كان نور اللمبة قد تلاشى في نور الضحى، مال الشيخ على زر الإضاءة، فأطفأه.

– تبدل المكان، وإن لم يتبدل المشهد. كانت خطبة الجمعة وسيلتي الوحيدة للقاء من تهمهم كلماتي. علي تمراز مقصد كثيرين من الإسكندرية والمدن القريبة، يحملون السجاجيد الصغيرة، توقُّعًا لشغل الحصر حول الجامع، فيُصلُّون في نهاياتها. تترامى صفوف المصلين في الشوارع المتصلة بالميدان، إلى امتدادات الشوارع المتفرعة.

لم أَعُدْ — بعد قرار نقلي — أستطيع البقاء في الإسكندرية، أخطب في جامع القائد إبراهيم أو سواه، أخفقت في التكيف مع الواقع، فتركته.

أضاف بصوت مفعم بالأسى: لأني أزمعت الغياب الطويل، فقد بعت معظم كتبي، والكثير من ملابسي وأمتعتي، لم أترك إلا القليل مما يسعه البيت بعد أن يكبر أبنائي الثلاثة.

قلت: كنت طفلًا، لكنني أتذكر تأثيرات ما تقول في جلسات أبي وأصدقائه.

قلب شفته السفلى: كان الناس يؤدون صلاة الجمعة في علي تمراز لأن الخطيب ينتقد الحكومة.

زاد في تحريك العصا: عملي هو الإفتاء في الدين بما أعلم، لكنني لا أستطيع أن أهمل السياسة.

أطلق ضحكة قصيرة: أعرف أن الحديث في السياسة يفسد كل شيء.

تَنبَّه إلى المفارقة في كلماته، استطرد قائلًا: كانت خطبي عن البلد، هذا حق للجميع.

اتجهت عيناه ناحيتي، أيقظ في داخلي ما لم أنسه: آلاف المصلين يغطون الميدان أمام علي تمراز، وامتداداته في الشوارع، تلاوة القرآن، رفع الأذان، الإنصات السائد لخطب الجمعة، تهامُس أصوات المصلين ونداءات الباعة عقب انتهاء الصلاة.

قال: كثيرون قدِموا إلى الجامع من مدن بعيدة، لأداء صلاة الفجر خلفي.

هذه الأعداد الهائلة من المصلين، في حرصهم على سماع خطبي، كانوا سيغيبون لو أنهم وجدوا في شيخ الجامع واعظًا للسلطان.

اعتدتُ امتلاء الجامع إلى حد صعوبة اختراق الصفوف إلى المنبر، يكثر اعتذاري، وأنا أحاول السيرَ لِصق الجدران، في نصف دائرة، حتى أبلغ المنبر، فأرتقيه. هُداي كلمات العلماء الكبار الراحلين، لم يمشوا في ركاب الحكام، ولا أحنَوا رءوسهم بالخشوع والذل. لم أخَف السلطان قدر خوفي من الحريصين على إرضائه. اتهمت القائمين على الحكم بمخالفة الشريعة، وأخْذ الرِّشا. وكنت أشتَمُّ التملق، وأرفضه. يعمل الإنسان بالسياسة عندما يشغله الشأن العامُّ، إذا كان شاغله الشأن الشخصي فأولى به الانكفاء على نفسه. ساءني قول الشيخ حتحوت الكبير: هل أصبح الدين جناية؟

أدركت أنه يطلب الإجابة التي يريدها.

قلت: بل من يستغل الدين.

تصورت واجبي عند الحاكم أن أساعده على الحق بنصائح مقبولة. رفضت عرضًا من وكيل وزارة الأوقاف بالإسكندرية أن أزور سراي رأس التين، فترة إقامة الملك الصيفية. إذا كان عنده ملاحظات، فعليه أن يرفعها إلى مقام الملك.

لاحظت في عينيه أنه لم يسمعني جيدًا، قلت في نبرة تعمدت أن تكون واضحة المخارج: أعرف أن السلطان هو من يجب أن يسعى إلى عالم الدين، وليس العكس.

قال الشيخ مكايد حتحوت: اشتغل بالقرآن والعلم، لا شأن لك بأحوال الناس.

في نبرة متحدية: القرآن والعلم يدعوان للاهتمام بأحوال الناس.

أشاح الشيخ بيده: من يناقش آراءنا عليه أن يبحث عن مكان آخر.

امتدت آفاق الخلاف بين الشيخ مكايد حتحوت وبيني، تكاثرت الغيوم، فحجبت الرؤية. شعرت أن ما بيننا من خيوط قد انقطعت.

لم يكن يثبت على آرائه، ما يقوله اليوم يتناساه في الغد، وإن حرص على أن يفتي في كل شيء، ربما تستَّر بالفقه لفرض ما تلغيه تعاليم الدين. له قدرة غريبة على الجدال، والرغبة في الانتصار، حتى لو ادعى ما لم يحدث، أو استشهد بأقوال غير صحيحة، يرفض الأخذ بالحجج والبراهين، ما يراه ويقضي به هو ما يجب أن يؤخذ به، لا يرجع إلى مصادر أو مراجع، ولا يحمل أوراقًا تعيِّن آراءه. حتى ما يغيب عن علمه وفهمه يُبدي فيه رأيًا قد لا يطمئن هو نفسه إليه، مجرد أن يرُدَّ، ويعارض، يميل إلى الجدل الصاخب، والمناظرات التي تعيد منافرات الجاهلية، والكلام لمجرد إثبات القدرة، أو الثرثرة. وظيفته إدارية، لكنه يقضي في كثير من الأمور، دون أن يرجع إلى شيخ المعهد — آنذاك — فوزي العقدة. منحه الشيخ ثقته، فهو يفعل ما يراه صوابًا. يخفي انفعالاته، لا تبيِّن ملامح وجهه عما يشغله، تنفرج شفتاه عن ابتسامة عصبية، تظل أسنانه مطبقة، كأنه يتوعد.

عمِل على تنفير الطلبة من حضور مجلسي في زاوية خطاب، شكَّك في قيمة ما أطرحه من اجتهادات وأفكار، لم أصدق ما رُوي لي عن إفتائه بحرق ما تصل إليه أيدي الطلبة من أوراقي.

أنا لا أميل إلى تكفير الناس، هو الكفر بعينه، من يدعي ذلك ينسب لنفسه حقًّا من حقوق الله!

يعجِز الطلبة أمام تبدل مشاعره وتصرفاته والكلمات التي يفاجئهم بها، معرفةِ إن كان مزاجه رائقًا أم متعكرًا، لا يدركون «الحالة» إلا بعد أن يطالعهم القول أو الفعل.

أبرز ما ميَّزه: عينان جاحظتان، ولُغد ممتلئ، في وجهه آثار جدري قديم، وفي صوته خَنَف واضح. يحرص على الجبة والقفطان. (طفَرت البسمة على شفتيه) إذا صبَّ برادًا من الشاي، خص نفسه بكوب منه، يرشُفه دفعة واحدة.

فرض طاعته على طلبة المعهد، يلبُّون أوامره دون أسئلة، ولا مناقشات، ما يقضي به هو الصواب الذي يجب على الكل أن ينفذوه. لم يكن أحد يقوى على مجادلته، يمتلك صبرًا على الحوار والجدال، تتقلص ملامحه، وتصبُغ الحمرة وجهه، دلالة الرغبة في قول الكلمة النهائية. أذكر اهتمامه بفتوى شطَّاف المرحاض، إن كان يبطل الصيام.

تعددت الصفات التي أطلقها الشيخ مكايد حتحوت على معارضيه، فهم: حشرات، شواذٌّ، عملاء، أولاد كلب، أنجاس، زنادقة، أذناب. قهرني الحزن لشعوري أنه مسكون بالكراهية، لا أحب الكراهية في نفسي، ولا أتصورها في الآخرين.

لما أخذت على الشيخ أنه يقتِّر فيما يحتاج إليه الطلبة من أمور المعيشة، ردَّ مؤاخذتي بحظر تقديم وجبات لي مما يُعدُّ داخل البيت.

ساءني الاتهام بأني حرَّضت على إلصاق منشورات على الأعمدة الخارجية لعلي تمراز، تدعو إلى الثورة. داخلني شعور بالأسى، من يجاهر برأيه من فوق منبر الجامع يرفض أن يتخفى وراء منشورات تُلصق على الجدران.

ظلِلت هادئًا في مواجهة الاتهامات التي نالني بها أئمة مساجد الحي، وخطباء الجمعة في الزوايا، الدعوة إلى الثورة على السلطان تخالف الدين في صميم قواعده، ونزع الشرعية عن الحاكم — حتى لو كان ظالمًا — ليس من الشرع في شيء.

علت شفتيه ابتسامةٌ يائسة: حتى أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق ذاق الأمرَّين على أيدي المشايخ.

اخترت الانسحاب من قضايا الوقف، إشفاقًا على عائلة المطعني، واحترامًا لسن الشيخ. لا أميل للتفكير في أشياء مستحيلة. أجاد الشيخ حتحوت الكبير بذر الفرقة في نفوس الورثة، تكاثرت دوائر الاختلاف، صار العداء بين الجميع مرضًا متوطنًا.

لم يكتفوا بإبعادي عن الوظيفة، ولا عن بيت المسافرخانة، لكنهم حرصوا على حصاري، فلا أجد حتى موضعًا أؤدي فيه الصلاة.

وجد في صلاة الجمعة بزاوية خطاب ما يناقض أحكام الدين، قال إن صلاة الجمعة لا تصح في المساجد، ولا الزوايا، ولا حتى الخلاء من الأرض، لكنها تقتصر على الجامع الكبير في المدينة، أو الحي، هو — في بحري — جامع المرسي أبي العباس.

خلع نظارته، جرى عليها بطرَف كمه، ثم أعادها إلى وجهه: كأنه أوكل للشيخ فوزي العقدة مضايقتي.

كان يفرض على الطلبة صمتًا، منذ لحظة وقوفه على باب القاعة: الجهامة لا تفارقه، العدوانية — سامحني الله — تكوين في طبعه، الخشونة في كلماته وتصرفاته تدفع الطلبة إلى الإمساك عن مبادرته بقول أو تصرف، إذا ثار فهو يلجأ إلى الانفعالات المتطايرة: الصراخ والشتائم والكلمات المتوعدة، يرافقه تطويح بيديه واهتزاز في كل جسده.

يحرص الطلبة على تقبيل يده الممدودة عند دخوله الدرس. يُلزمهم الصمت، لا يتكلم أحد توقيرًا لشخص الشيخ وعلمه. إذا استدعى طالبًا إلى حضرته، فإنه لا يأذن له بالقعود. لا يشجع الطلبة على الأسئلة والنقاش، يسأل الطلبة، نبرته القاطعة ترفض المناقشة والأسئلة، يطلب الإجابة بنعم أو لا، لا يأذن بالاستطراد، يجيب الطالب عن أسئلة الشيخ، أو يصغي إلى ملاحظاته، وينصرف دون تلفُّت.

أهملتُ العبارات القاسية والشتائم التي كان يقذفها طلبة لزموا حضرة الشيخ مكايد، أبعدهم الشيخ عن مجالسي، وضَع في أفواههم كلمات يقذفونني بها حين وجودي في بيت المسافرخانة. لم أدُس للطلبة على طرَف، وإن بالغوا في الإساءة لي، تصيدوا كل فرصة لكشف عيوبٍ من اختراعهم، ونسبة أقوال لي، لم تصدر عني، أو تبديل أقوالي، وصرفي عن القضايا التي تشغلني.

ترددت في الموافقة على الرحيل.

كنت على يقين من أن مقصدي أطهر بقاع الأرض، لكن عزوفي عن السفر والتَّرحال، ربما حتى الآن، جزء من طبيعتي. عدا ما تفرضه الظروف، فإني لا أنتقل من بلد إلى آخر، ولا من مدينة إلى أخرى، ولا من حي إلى حي، ولا مسجد إلى مسجد. أحب المكان، وأميل إلى الاستقرار، أُهمل حتى ملاحظاتي الشخصية، وأضع المكان في الصورة التي تغريني بالملازمة.

خشيتُ أن يدفعني نفاد الصبر إلى التصرف بما لا أرضاه لنفسي.

قال صديقي الشيخ ياسين الحاموليِ مهوِّنًا: إذا نذر المرء نفسه لقضية ما، فإن عليه ألا يتوقع مكافأة، وربما عليه أن يتوقع الأذى.

عدا ياسين الحاموليِ، فإني لم أودِّع أحدًا من الأصدقاء، اقتصر ما أحمله على جواز السفر، وحقيبتين، متوسطة وصغيرة.

فترة عملي في الحجاز استراحة محارب، ابتعدت عن الوعظ الديني، وإن لم أبتعد عن الفقه، أضفت اجتهادات ابن تيميَّة وابن حنبل ومحمد بن عبد الوهَّاب إلى ما كنت تعلمته من مذاهب الإسلام.

تابعت — في الحجاز — تحوُّل أسرتي الصغيرة إلى فروع من عائلة، تعددت البيوت التي سكنها الأبناء والأحفاد، وزادت الوجوه التي اعتدت مناداتها لي بالقول: جدي.

لا أدري، ماذا كان يحدث لو أني عشت بمفردي، لو أني بلا أسرة، بلا أبناء وحفدة، قلَّلوا من تأثير رحيل الزوجة. أضيق — أحيانًا — بالصخب، لكن تصور الحياة في الوحدة يستدعي الشيخوخة والعجز وافتقاد العون والمؤانسة. كلما مضى العمر، أحسست أني أشد وحدة مما كنت، تغيب ملامح أَلِفتها، تتحول الذكريات إلى أطياف أو أشباح، معظم ما أذكره لا صلة له بخبراتي الشخصية، لم أعايشه ولا شاهدته، وإن استمعت فيه إلى حكايات، وقرأت ما يتيح لي إبداء وجهات نظر.

أشار إلى الدولاب الخشبي ذي الضلفتين: هنا ثيابي القليلة وكتبي الكثيرة، هذا ما تبقَّى من دنياي.

# رتق ما انقطع

تحدَّث عن حركته القليلة ما بين البيت وبيت المسافرخانة، يمضي من المسافرخانة إلى شارع صَفَر باشا، حتى فرن حبيب بطابقه الوحيد على زاويتي صَفَر باشا ورأس التين، يستقل الترام المتجه إلى المعهد الديني بالورديان. آخر النهار، يعود من الطريق نفسه. ربما اختصر الطريق من سيدي أبي وردة عبر عطفة السلاوي، أو شارع حلابو، إلى المسافرخانة.

نظر إلى حارس البيت — في أول زياراته — بإدراك أنه لم يره من قبل، سبقه حراس آخرون، عم شرنوبي آخر من صافحه وهو يغادر البيت قبل رحلة الحجاز، لا بد أنه طعن في السن، أو مات، يذكر ملامحه الهادئة، التلعثم الطفيف في جانب فمه، نبرات صوته المحملة بلكنة الجنوب، ملامسة طربوشه حاجبيه الكثيفين، نظارته المكسورة الإطار، المربوطة بسلك رفيع.

لم يضق بوصف عم شرنوبي أنه دودة كتب، أو أنه قُراضة، ينتظر العجوز — خارج الحجرة — نداءه لترتيب الكتب على الطاولة الخشبية المستطيلة، أو فوق الأرفف. الأرفف العالية امتلأت بالكتب والمجلدات، أمامه — في مساحة محدودة — دواة، وقلم حبر، وأوراق يكتب فيها ملاحظاته.

امتدت قراءاته إلى خارج مكتبة بيت المسافرخانة، تردد على المكتبة الحجازية بشارع الميدان، ومكتبة أبناء الصفا وخلان الوفا بالعطارين، ومكتبات أخرى في بحري والعطارين وميدان المحطة ومحرم بك، أزالت كتب صبحي وحيدة ومحمد خطاب ومصطفى مرعي وأحمد حسين وفتحي رضوان غِلالات عن حقائق تعاني الشحوب. عرَف ما لم يكن يعرفه من مشكلات المصريين، عاش المشكلات، ولم يستطع التشخيص، ما بدا طبيعيًّا، ومسلَّمًا بوجوده، أخضعه هؤلاء الكتاب لتحليلاتهم ومناقشاتهم. أشاروا إلى ما لم يفطن إليه.

أخذتني السياسة من التصوف، ليس بالانصراف عن الحضرات والأذكار والابتهالات والإنشاد، وإنما بالانشغال بالتطورات السياسية: صراعات الحكم والانتخابات والمناقشات. لم تعد عِظاتي مقتصرة على الحلال والحرام، وما تدعو إليه الشريعة. تناولت مشكلات حياتنا، امتزجت بمتابعاتي لصحف الجمهور المصري والاشتراكية والملايين والوفد المصري. حتى المنشورات السرية التي تتسرب إلى أيدي المترددين على الجامع، كنت أعيد قراءتها، أضمِّن عظاتي ما بقي في الذاكرة، المعنى هو ما كان يشغلني، بعيدًا عن التأثيرات التي ربما تحدثها في نفوس أهل الحكم.

عندما اختارت الإدارة شابًّا للعمل في المكتبة، لفت نظري بحركته السريعة، وقدرته على الفهم والاستيعاب، هو خازن للكتب بلغة القدامى، زكَّى إعجابي به فطنتُه ويقظته. يرقب اتجاه نظراتي، يمضي ناحية الرف، تتقافز خطواته كأنه يطير فوق الأرض، يلتقط ما أريده، يجمع الكتب المتناثرة، يعيد ترتيبها، ثم يضعها في مواضعها فوق الأرفف، تعلو إلى قرب السقف، جعل لها الشابُّ فهارس تعين على البحث، تتخللها دواليب صُفَّت فيها الكتب، على كل دولاب قائمة باسم ما يحويه من كتب، قوامها الفقه وأصول الدين والحديث والتفسير والمنطق واللغة والمعنى والبيان والبديع، إلى جانب كتب النحو والصرف.

الكتاب وعاء الكلمات، مثلما أن الطعام له أوعيته. يُعنَى بحفظ ما في المكتبة من مؤلفات، ينفضها من الغبار، يتعهدها، يعالج إتلافها، وتمزيقها، وتفسُّخ صفحاتها. أتاح للطلبة قراءة ما يشاءون من أرفف المكتبة، يسحبون الكتاب دون استئذان، يجلسون إلى الطاولة لقراءتها. لاستعارة الكتاب شروط، يغيظه من يأخذ كتابًا ولا يرده. خصص كراسة لتسجيل أسماء المترددين على المكتبة، من يقتصر على القراءة في المكتبة، ومن ينتفع بالإعارة. يحذف الاسم بعد أن يوضع الكتاب في موضعه، يحرص على الاستعمال الجيد للكتب، يأذن بنسخ صفحات، أو الكتاب بأكمله، لم يكن يسمح بخروج الكتب إلى خارج البيت، وإن امتثل لأوامر المشايخ، بأن يأخذ الطلبة كتبًا تحتاج إلى أوقات طويلة لمراجعتها، يعيرها إلى الطلبة بضمانتهم، لا يعير شيئًا دون مقابل، أو برسم إعارة. يستعيد الكتاب، يرفض إعارته، وإعارة ما في المكتبة، لمن فرط في الكتاب، أو أساء استعماله بالكتابة، أو التمزيق، أو التوسيخ، أو التشويه أو التلف. يعرف ضيقي بالكتاب المطوي، أو المتسخ، أو المتآكل الأطراف، لو استطعت إعادته فسأفعل، النسخة التي يصعب تبديلها، تحرك أصابعي بالارتباك في الإمساك بالصفحات، أتحسسه، أعيد تأمل ما أساءت إليه القراءة الخاطئة.

لاحظت ميله إلى المطالعة، ينظر إلى عنوان الكتاب الذي طلبته قبل أن يقدمه لي، أرى الكتاب في يده بعد أن أنهي قراءته. تصورت — عقب عودتي — أني سأجد الشابَّ في موضعه، أذكر من اسمه عمر، أنسى بقية الاسم، وإن كان لقبه اسم مديرية كالمنوفي أو البحيري أو الشرقاوي، وما شابه. تلاشى التصور في تذكري أن الشاب لم يعد — بانقضاء السنين — شابًّا، وأنه قد كبر، ولعله مات.

قبل أن يترك الشيخ حامد أبو البركات موضعه في الإشراف على البيت، زكَّاني مقيمًا للشعائر في جامع علي تمراز. كنت أنهيت الدراسة في المعهد الديني بالورديان. شغلت — إلى جانبها — وظيفة المبلِّغ، خلف الإمام، أقرأ — بعد الصلاة — سورة الإخلاص، وما يتيحه الوقت من الأذكار والأحزاب.

أتاحت لي الدراسة في المعهد قراءة الأشموني وجمع الجوامع والمنهج ومختصر السعد. وجدت في الشيخ بابًا أنفذ منه إلى علوم الفقه والحديث والتفسير والنحو والسِّيَر واللغة والفتاوى والطبقات والتصوف، لازمت الشيخ، أخذت عنه الكثير من العلوم الناقصة، والآراء السديدة، والاجتهادات التي يصح الركون إليها.

عشِق التصوف، وأحبَّ المتصوفة، وإن كره ميل الشطحات إلى البدع، ومخالفتها الشرع. الصوفية ليست عصًا سحرية تعالج الأعراض والأمراض. جعل من الإمام ابن حنبل أستاذًا له في التفسير، إذا كان الموت قد غيبه، فإن تعاليمه واجتهاداته تظلُّ صالحة لمناقشة قضايا الدين، استخرج الأحكام — مثل ابن حنبل تمامًا — من النصوص، لم يلجأ — إلا عند الضرورة — لاجتهادات السلف والمعاصرين، يحرص أن يذكر المصادر التي رجع إليها، إن كانت القرآن الكريم، أم الأحاديث الشريفة، أم كلام المتقدمين. صار قدوة للطلبة في أمور الدين، ولأهل بحري فيه اعتقاد عظيم.

بيت الشيخ حامد المطل على الأنفوشي، من طابقين، له فناء وحديقة داخلية، يخلو فيها إلى ورود ملونة، يتعهدها بالسقي والرعاية، يفضي بابها الداخلي إلى صحن مستطيل، تحيط به حجرات صغيرة، جعلها لإقامة المريدين، من يطلب الخلوة، تنغلق عليه الحجرة، وتتشارك الجماعة في تلاوة القرآن، قد تستغرق مجموعة في دراسة الفقه داخل حجرة يظل بابها مفتوحًا، بقية الحجرات يستلقي فيها المريدون من مسافات السفر الطويلة، أو من عناء الذكر. شدد الشيخ أن تُهيَّأ في البيت سبلُ الراحة، بما يعين المريدين على تحصيل العلم، والانقطاع للعبادة. رتَّب لذوي الحاجة من المريدين خبزًا ولحمًا وأرزًا وحلوى ومبلغًا من المال لمصروفاتهم الشخصية.

حجرته في الطابق الأرضي، جعلها لنفسه خلوة يتعبد فيها، منفصلة عن بقية الحجرات، لها باب مستقل ملاصق لباب البيت، يفضي إلى الطريق، يستقبل فيها زواره من العلماء، وخواصِّ المريدين. افترش الأرض كليم صوف مزين بالنقوش الملونة، ولِصْق الجدار كنبة، حدَست أنه يُحيلها — عند الضرورة — سريرًا للنوم. تناثرت الكتب فوقها، وعلى الكراسي، وعلى الأرض.

أيقنت — من جلوسي إلى الشيخ — أنه يتقن الفتيا في أنواع العلوم، حتى ما لا يتصل بفقه الدين والعلوم الشرعية والصوفية، يكثر من الأقوال والاستشهادات والتضمينات.

وضع الله في قلبه من الأسرار والحقائق ما حرص على ستره، حتى عن خواصه وأقرب مريديه، ما لا يجوز أن يعلمه غير الله، أو يطلع عليه سواه. إذا أراد الله أن يخص به امرأً، فلاعتباراتٍ يعلم بها الله وحده.

يعلق في ذاكرتي ميل الشيخ أبي البركات إلى الحزن، والعكوف على النفس، والانصراف عن حياة الناس، أضاف إلى مشاعره وفاة أولاده الثلاثة في حياته، ومغالبة التأثر وهو ينطق — على حافة القبر — عبارات التلقين. يخاطبني بندِّيَّة، عَلاقة صديقين، وليست عَلاقة أستاذ وطالب، تختلط الأسئلة والأجوبة والآراء المؤيدة والرافضة، وإن فصل الجدار غير المرئي بينه وبيني.

اعتدت استيضاح الشيخ ما يصادفني من وقائع عامة، أو أشاوره الرأي فيما يشغلني ومشكلاتي الشخصية، أجد في آرائه، وحتى في ملاحظاته العفوية، تفسيرًا لما استغلق عليَّ من مشكلات، ليس في الدين وحده، وإنما فيما أواجهه من ظروف، إن واجهتني مشكلة ما، سعيت إليه لسماع رأيه.

أحتاج إلى ملاحظاته ونصائحه ومؤانسته، ربما أشركته في أفكاري، نبع لا يغيض من العلم، بساطته تومئ إلى التحرر من القيود التي تفرضها العَلاقة بين الشيخ ومريديه. يقصده طلبة المعهد الديني والناس العاديون. تستغرقنا المناقشات في قضايا تأويل القرآن، الاجتهاد في الفقه، اختلافات فرق الصوفية. أذكر قوله: أكبر من مجرد خطأ لما يغلق الشيخ بابه في وجه من يسأله النصيحة.

يغمرني شعور عميق بالامتنان لكل ما يقوله. شيخ ضعف جسده، لكن ذاكرته لم تضعف.

ما صحة الرأي بأن المرء بتقدم العمر يتذكر الأحداث البعيدة؟

خصَّني الشيخ حامد أبو البركات بأمور لم يأذن لي بإفشائها. بقيتُ في بركته، وتحت نظره. لم أفارقه، ولا تغيرت عليَّ نفسُه، حتى ألزمه المرض بيته، لم يتركه إلا محمولًا على أعناق مئات من مريديه وعارفي فضله.

رحل الشيخ عن دنيانا دون أن يطرأ ما يشوب عَلاقتنا، أستاذ لا يبخل بعلمه ونصحه، وتلميذ يحرص على الإفادة من المعرفة، لا أفارقه إلا بإذنه وعلمه. الإنسان الذي يرضى عنه ربه هو من يحسن اختيار شيخه.

كانت ملامح الشيخ أبي البركات تنطق بالطيبة والهيبة، الوجه الأبيض المشرب بالحمرة، والعينان البنيتان الواسعتان، والأنف المستقيم، والعباءة النظيفة المكوية، رغم أعوامه المتقدمة فلم يسقط له سن، يده دائمة المسح على جبهته، حتى لو لم تكن منداَّة بالعرق.

قال لي الشيخ: إذا كان للمريد سريرة يخجل من إظهارها لشيخه، فإنها تنفي المصارحة الواجبة في العَلاقة بين الشيخ والمريد.

حرصت ألا أكتم عن الشيخ شيئًا من أحوالي، لا أكتم حتى الأخطاء التي ربما وقعت فيها، حتى لو لم يكن ثمة ما يدعوني إلى ذلك. همَّني اللجوء إلى رجاحة عقله، فيسهل توقع الصفح، أو أنه بلغ درجة الذنب، فيحتاج التوبة وطلب المغفرة. لم أكتم الشيخ شيئًا من زلات أغرتني بها المراهقة، يبتسم الشيخ دون أن يعقب، يميل إلى قضية أخرى. بدا الشيخ أستر لي من نفسي.

رنا ناحيتي — ذات مغرب — بنظرة مشفقة: أجمل المتصوفة من يحفظ جوارحه من الذنوب.

أزمعت أن ألتقي الموت دون أن أتكلم عن أمور لم يأذن لي الشيخ بإفشائها.

عملي في علي تمراز لم يمنعني من البقاء في بيت المسافرخانة محل إقامتي منذ قدمت من حوش عيسى إلى الإسكندرية للدراسة في المعهد الديني، لا أغادره إلا إلى المعهد، وإلى جوامع بحري وزواياه، وحيدًا، أو في حلقة ذكر، أو حضرة إنشاد وقراءة للبردة داخل صحن البوصيري، أو مجلس للعلم وأحاديث السياسة في نادي الموظفين المطل على المينا الشرقية، وجمعية الشبان المسلمين بالرمل. في أوقات متباعدة، أميل من المسافرخانة إلى صَفَر باشا، خطوات حتى سينما رأس التين، أشاهد الفيلم المعروض، وأعود. كان ثمن تذكرة السينما ٢٢ مِليمًا.

وداد لأم كلثوم أول فيلم شاهدته في حياتي، دخلت السينما مع أبي في زيارة له إلى الإسكندرية. كنت في الرابعة عشرة من عمري.

التقطت — في دردشات المسافرخانة — كلمات ثناء على فيلم «ليلى بنت مدارس»، تقاسم بطولته يوسف وهبي وليلى مراد. إذا استثنينا أم كلثوم، فإنها مطربة زماننا. مِلت من خلف بيت المسافرخانة إلى شارع شيمي بك، شاهدت الفيلم في سينما الأنفوشي.

لقيني الشيخ حفني الخادم — ذات عصر — أهبط درجات سينما رأس التين، تقلصت ملامح وجهه: (لكزني بقبضته في صدري) أنت أزهري ... الأزهري لا يتردد على المواخير!

غلبني الارتباك، تلفتُّ حولي في خشية من فضول النظرات، ثم لذت بزحام الشارع.

تبدلت الأحوال عقب الإمامة في علي تمراز، تحددت خطواتي بين الجامع وبيتي، الشوارع لا أغيرها، من ميدان «الخمس فوانيس»، إلى شارع رأس التين، فشارع الحجاري، أميل إلى المسافرخانة، حتى شارع راسم باشا، ومنه إلى مصطفى العربي، المفضي إلى أرض المجاورين، قبالة بيت المسافرخانة.

وشرد أمامه كمن يتأمل شيئًا: آخر عهدي بالسينما أفلام الأسود والأبيض!

لامس بعصاه كتف طفل في حوالي العاشرة — حدَست أنه حفيده — ليبتعد عن مجال مشاهدة التلفزيون: كنت أحرص — في نهاية كل زيارة إلى الإسكندرية — على أن أحدِّق جيدًا، أطيل المشاهدة، وتمعُّن التفاصيل، أحاول أن تظل داخلي في أيام الرياض.

حين أتلفت الآن حولي، أدرك كم تقدمت بي الأعوام. لم أعد ذلك الشاب الذي لا يمل التنقل في شوارع بحري. بدا كل شيء — في النظرة الأولى — على حاله، كأن الناس لم يتغيروا، ولا تغيرت صور الحياة، لكن إعادة النظر تبين عن الجديد الذي حدث، الدنيا التي عشتها في المدينة تغيرت، تبدلت الملامح كما تتبدل ملامح الإنسان، دون أن يلحظ متى، ولا كيف. تنبهت — متأخرًا — أن الإسكندرية المزدحمة بالأجانب تخلي نفسها لأبناء المدينة، تجلى المعنى في إحلال اللافتات والإعلانات باللغة العربية موضع اللغات الأجنبية، طالعني في ميدان الرمل وما حوله، كالأصداء البعيدة أسماء شيكوريل وأثينيوس وماجستيك ولورانتوس وتمفاكو وإيليت وزاراني وسانتي.

لم تعد الإسكندرية هي المدينة الجميلة التي عشت فيها من أيام الصبا، شيء لا أدركه يذكرني بالماضي، يطرح المقارنة بين ما كان وما نعيشه الآن.

أول أيام عودتي إلى الإسكندرية، حل في ذهني ما يشبه الومضة أن أعود إلى قريتي، نفضت الفكرة. حياتي في بحري ترتبط بأصدقاء ومعارف ومريدين، ما يغيب عن توقعات الحياة في قريتي، شرنوب.

بقيت على ما كنت أحرص عليه في علي تمراز: دروس المغرب، صلاة الجمعة، صلاة التراويح، التهجد، العظات والملاحظات التي تحملها الخطب. أعلم الأطفال في جلسات بيت

المسافرخانة تلاوة آيات القرآن، لاحظت أنهم يخطفون قراءة القرآن، لا يتدبرونها، ولا يتأملون المعاني. أُعلِّمهم بعض علوم اللغة والحساب، أروي لهم قصص الأنبياء والصحابة والتابعين.

استغنيت عن فقيه يساعدني على التدريس، يختلف البيت عن المدرسة الابتدائية في اقتصاره على مدرس وحيد، إذاعة العلم بين الناس يجب أن تكون حسبة، لا يأخذ العلماء على العلم أجرًا، لذلك فأنا أُدرِّس مبادئ الدين حسبة للأولاد، وأُعلِّمهم فريضة البلاغ والبيان. لا أدير كتَّابًا، إنما هي جلسة يومية — خارج التعليم المدرسي — لتحفيظ القرآن وأحاديث الرسول، ومبادئ العلوم الأخرى. يلامس الأولاد المعرفة الدينية والمعارف الأخرى، بالإضافة إلى أن عددهم لا يجاوز العشرة، ذلك أقصى ما يطيقه الوقت والاستطاعة.

تمنيت لو أني أمتلك من العافية والوقت، ما يحفزني على البدء من البداية، أستأذن الأهل في تعليم الولد حتى ينهي المرحلة الابتدائية، يتعلم القراءة والكتابة وبعض الحساب، يحفظ القرآن، ويتثقف بآداب الشريعة، ويجيد أداء الفروض، بدت ظروف الناس حائلة دون أمنيتي، يفضِّل المقتدرون أن يتلقى أبناؤهم العلم في المدارس، بينما يَقصُر ذوو الحاجة تعليم الأبناء على فترات قصيرة، متباعدة، قبل أن يدفعوا بهم إلى مهن يرتزقون منها.

قصرت ترددي على البيت، أتنقل بين حجرات الطابق الأول، أشاهد الأطفال يتلون القرآن على القراءات العشر، أعلمهم اللغة والنحو، أروي لهم حكايات التاريخ، ساعة، أو أقل، ثم أنصرف، ممسكًا بساعد من يتصادف وجوده. أعود إلى البيت، أو أمضي ناحية زاوية خطاب، أقبل على ما عهدت به — في الأشهر الأخيرة — إلى نفسي من الجلوس إلى المصلين، أفضِّل الجلوس على السجادة، بدلًا من دكة المبلغ. الجلوس إلى الأرض، ليس بعده مرتبة ينزل إليها المرء. المصلون من حولي في نصف دائرة، متداخلة الصفوف. أعظهم بما حصلته من علوم الدين، أناقش مشكلات دنياهم، أنصح بما أرى أنه الصواب.

كان للزوايا — زمان — وضعها في دروس الدين والدنيا، اختلف الحال فاقتصرت على أداء الصلاة. هي زاوية، لكنها تؤدي دور المسجد الجامع، ولبعد مساجد طاهر بك وعبد الرحمن عن المسافرخانة وما حولها، فإنها تسع صلاة الجمعة.

عدَلتُ عن فكرة التدريس للأولاد في الزاوية، لتحفُّظ أئمة كبار من عدم تطهر الأولاد، وأنهم قد يسيئون إلى نظافة بيت الله.

جعلت وقت ما بعد صلاة ظهر الإثنين موعدًا للنساء، أعظ — تلبية لرجاواتهن — وأعلِّم أحكام الدين، وحقوق المرأة وواجباتها في الأسرة، وفي الجماعة.

صار بيتي مقصدًا لطلبة العلم، تطول جلساتهم، يسألون، ويناقشون، يستوضحون بعض ما غمض من فقه الدين، أجلس لتناول الطعام مع زواري، أؤمهم للصلاة، آخر ما عشته تقاسم وقتي في مجلسين، زاوية خطاب، والبيت.

جلسائي هم هم، وإن زادوا في الزاوية بالمصلين.

أذهب إلى الزاوية بالتحايل على نفسي، لم يعد من الميسور ترك حجرتي، وقطع المسافة بين البيت والزاوية.

وثبت نظارته الطبية فوق أنفه، ووشت لهجته بعدم الاكتراث: بلغتُ السن التي إن تركت الحياة فسيغيب السؤال: مم كان يشكو؟

ثم وهو يضغط على نظارته الطبية: إنها الشيخوخة.

أشرت إلى نفسي: أنا في المعاش.

– على من يتقدم في العمر أن يستمتع بشيخوخته.

وترك البسمة الهادئة على شفتيه: لكنني أحرص على متابعة نفسي، كيف أنصت؟ متى أتكلم؟ ماذا أقول؟ هل أكرر الكلمات، أو أعيد ما سبق قوله؟

ومسح صدره براحة يده: القراءة وسيلتي للاستمتاع.

أخرج منديلًا من جيب الجلباب العلوي، مسح به غبش العرق في نظارته: كَلَّ نظري ... يقرأ لي أحفادي.

أضاف كلمات كثيرة عن العجز والشيخوخة، ومعاناة الأمراض، والتلفت، دون أن يجد من يعينه على الحركة، على ضرورات حياته، يهمس لإرهاق مطالبه: تعبت!

– تلك أوقات لا أحبها لنفسي، ولا لمن حولي.

وشرد في الفراغ بعينين ضيقتين: طول العمر لمن هو في صحتي إطالة لعذابه.

وطوَّح بالعصا: تكرر الموت في حياتي أكثر من مرة!

ران على صوته أسًى: أعرف من رحيل أهل وأصدقاء ومعارف أني لن ألتقيهم ثانية، وأن الدائرة تضيق.

رشف الشاي ببطء: اعتدت رحيل الأعزاء، صار الأمر مجرد أسماء، مجرد أرقام، اختلطت مواقعهم في النفس، فتساوت النظرة إليهم كراحلين إلى رحاب الله، أسأل عن فلان، أعلق على الإجابة: رحمه الله!

شدني أنه رفع الكلفة، اصطبغت كلماته بأبوة حانية: نحن نرى مصائرنا في أجساد من سبقونا إلى الموت.

شبَّك يديه أمام بطنه، وأحنى رأسه، كأنه يصلي: العظة المهمة أن من يحتويهم باطن الأرض أضعاف، بما يفوق الحصر، مَنْ يقيمون فوقها!

افترَّت شفتاه عن بسمة فاهمة: بلغت من العمر ما يقصر تفكيري في نفسي.

اهتز فنجان القهوة في يده: إن لم أفكر في نفسي فأنا أفكر في الموت.

قلت متشجعًا بعفوية كلماته: هل تخشى الموت؟

حدجني بنظرة متمعنة: ومن لا يخشاه؟!

دون أن يداري تأثره: الحياة جسر نعبره إلى الحياة الآخرة.

هززت رأسي مؤمِّنًا: الموت قدرنا ... نهايتنا.

قال: إنه تأكيد على تساوي البشر في العبودية لله!

سكت. أبدى ملاحظة عن إضاءة لمبات الشارع رغم تقدم الضحى. قال: الناس متساوون في أداء الصلاة، وفي رقدة الموت.

زايلت الابتسامة شفتيه: مصالحة الموت تأتي بتقدم العمر، كلما أوغل المرء في شيخوخته، بدا له الحتم آفاقًا من سواد الليل لا نهاية لها.

وأشار بإصبعه إلى السماء: فكرة الموت أتقبلها. أنا أخشى الحساب.

وأغمض عينيه: هل تعرف كيف يتحلل الجسد؟

حدجني الشيخ في لهجته المتسائلة: قدمتَ من القاهرة لتراني؟

وأنا أغالب الحرج: أصارحك أني جئت لمهمة، عندما واجهت مشكلات قيل لي إن فضيلتكم تستطيعون حلها.

أشاح الشيخ بيده: التوجه إلى الله هو ما أفعله الآن.

قلت بلهجة معتذرة: إنها مسألة تخصني.

أزيد من عشرين سنة تفصل بيني وبينه، أحيا سن المعاش، شعوري بتقدم السن يشحب في جلوسي إليه. أعلم أني الآن أكبر — بسنوات كثيرة — من عمره حينما كان إمامًا لعلي تمراز. كنت طفلًا، وكان شابًّا في نهاية عَقده الثالث، لكن نظرة الطفل ظلت في الذاكرة، أتكلم بإحساس كبر السن، أتصرف بالإحساس نفسه، شيخ بين من يصغرونه، يلتقيهم، يخالطهم، إحساس مختلف يشملني وأنا أجالس الشيخ وردي، عصاه الطويلة في قبضته، أو مستلقية على كرسي بجانبه، أو معلقة على الحائط، أنصت إلى التجارب والعبر والنصيحة والتحذير، أشعر — أحيانًا — أني في حاجة إلى من يدلني على الصواب والخطأ.

هو الشيخ حسن وردي، وأنا الطفل سامح نصير المطعني. أتبين — في مجلسه — أني أكلمه بمشاعر الطفل الذي كان، كأني أحذر مضايقته وغضبه.

تنبه الشيخ إلى صمتي، أومأ لأستمر.

قلت: أنا في حاجة إلى رأيك فيما أقوله أو أفعله.

# السير في طرق الحيرة

قلت ما في نفسي، فرفع رأسه. عرَفت أنه لم يكن نائمًا، بل كان يحسن الإنصات.

ظل ساكنًا، يشرد في الفراغ كمن يتأمل شيئًا يراه هو وحده.

خالط نظرته المشفقة تأثر واضح: لم يعد يشغلني المستحيل.

خلع عباءته، ألقاها على كتفه: كأني قدمت من الحجاز لأخوض معارك لم تعد تخصني، وإن كانت تدافع عن حق أصحاب الوقف فيما يملكون. تعاقُب نسج المؤامرات، وتدبير المكائد. عانيت توقُّع ضربات لا أملك ردها، ولا أستطيع الفرار منها.

طبيعة الوقف حبس الأموال، لا يجري تداولها، أو التصرف فيها، يُحبس الأصل، يصير وقفًا، يحصل الورثة على ثماره دون أن يلحقه التفتيت، يظل صدقة محرمة، لا تمتد إليها الأيدي بالإساءة، ما يُدرُّه من عوائد يُنفَق على الورثة، يزيل العوز من أبناء العائلة الواحدة.

قوام المجتمع عائلات، إذا نفضت كل عائلة قسوة الظروف، فإن الأثر الطيب ينسحب على المجتمع كله. شجرة العائلة تتفرع إلى أغصان، لكل غصن أوراقه، الغصن الخالي من الأوراق بلا قيمة.

الوقف لتعميق الروابط بين أبناء العائلة الواحدة، الانتماء إلى العائلة، الجماعة، معنى وجود الإنسان في هذه الدنيا، لكن الشيخ مكايد حتحوت أشعل — بتدبيراته — نيران الخلافات بين مستحقي الأوقاف بعضهم البعض، وبين المستحقين والموظفين، وإن ادعى وضع قواعد تحقق العدل بين الورثة. تحول من نظارة الوقف إلى امتلاكه، حتى الموظفون تابعون له ولا يعملون في الوقف، حقق ثروة هائلة، وفرها له موظفون أجاد اختيارهم، خضعوا لأوامره، وعملوا على تنفيذها.

ومط شفته بمعنى الحيرة: كلهم ينتسبون إلى عائلات أخرى، لا شأن لهم بالوقف.

وعلا صوته بنبرة محذرة: عندما ينتقل الوقف إلى عائلة غير عائلة المورث فتلك مخالفة لشرع الله.

تنبهت إلى حركة يده، دائمة التعديل لوضع نظارته الطبية على أنفه، ربما نزعها، يجري عليها بقطعة قماش، أو بكُمِّ جلبابه، ثم يعيدها.

– اكتفى الأزهر بتدريس علم الحساب بين العلوم الأخرى لضبط أحكام المواريث.

وهو يداعب حلمة أذنه: لكن الشيخ حتحوت أفسد الإفادة من هذا العلم الوحيد.

قلَّب كفيه في حيرة: لم نعد ورثة وقف المطعني، آل إلى ورثة آخرين!

وبدا كأنه يسترجع كلمات سبق له قولها: حل الأوقاف الأهلية قانون مهم لو أُحسنَ تطبيقه، الحنفية تذهب إلى جواز أن تُحلَّ الأوقاف إذا كان بالمسلمين لها حاجة، أَلِف الورثة رَيْعًا لا يساوي المشوار إلى وكالة الأوقاف بشارع فرنسا. لم يعد واردًا — منذ صدر القانون — أن يظل الوقف بلا بيع، ولا توريث، ولا هبة، ولا مناقلة، ولا استبدال، وغيره مما كان يجعله قائمًا على أصوله، حتى يرث الله أرضه. توقَّعنا عودة الحق إلى أهله، البحر كله، وليس قطرات في مياهه، لكن الأوضاع لم تتبدل كثيرًا، ما كان بعيدًا عن أهله قبل ١٩٥٢م، ظلَّ على حاله بعد قيام الثورة.

لما بلغ مجموع رَيْع الأوقاف جملة كثيرة، عيَّن الشيخ حتحوت الكبير محاسبًا يشرف على الأمور المالية، يضبط ما يُتحصل من رَيْع الأوقاف، ويراقب مصروفه، وأوجه إنفاقه، وما فيه مصلحة الوقف العائد نفعها على المستحقين، يصرف من رَيْع الوقف ما يأذن له الناظر في صرفه، يفعل جميع ما يعين على خلاص مال الوقف ممن تسول لهم أنفسهم فعل الحرام. عيَّن ربيع السكران جابيًا للأماكن الموقوفة، من مهامه تقاضي استحقاقات المستأجرات. بالإضافة إلى توريث الشيخ أكبر أبنائه، فقد أفاد من حق الناظر في اختيار موظفي الوقف، عيَّن أقاربه في وظائف الوقف، الخطابة والإمامة والأذان والفراشة، أرجع استعانته بأقارب في وظائف الوقف إلى أنها الوسيلة الصحيحة لمراقبة أدائهم في العمل، وابتعادهم عما يريب. حتى الوظائف الصغيرة: الفراش والسباك والخفير وغيرها، جعلها في اختصاصه، جعل له الكثير من أعوانه، يخضعون لأوامره، يحرصون على تنفيذها.

وهو يشرد أمامه كأنه يتأمل — وحده — ما يراه: أنت تسكن آخر الدنيا، يقصد القائل بحري. لماذا بحري آخر الدنيا وليس أولها؟ لماذا لا يكون العكس هو الصحيح، يصبح بحري أول الدنيا المصرية، ولو لإطلالته المباشرة على البحر، ولأنه الأرض التي طلب الإسكندر أن تُشيَّد فيها أولى مدن إمبراطوريته؟

البدء والمنتهى في جغرافية الأماكن مسألة نسبية، حتى الكوكب الذي نعيش فيه يصعب أن أحدد أدناه وأقصاه، ما يبدو أقصى في نظرتي من مكان ما، يتحول إلى العكس عندما يتبدل موضع النظرة.

قلت: لم تغادر بحري منذ العودة؟

– غادرت الإسكندرية مرة وحيدة ... سافرت إلى بورسعيد.

أضاف للدهشة في ملامحي: ذلك كان آخر عهدي بالميراث. لا قيمة للحق الذي يتناساه أصحابه!

وأخذ هيئة المتذكر: التقيته في مبنى مديرية الأمن، هو الشقيق الأصغر للشيخ مكايد حتحوت. فتشت في عينيه عن تذكره لي، أطال تأملي، كأنه يفتش عن ملامح الشبه في العائلة: حسن وردي.

استطردت في نبرة واضحة: المطعني.

توقعت أن ألتقيه بالزي الحكومي، البدلة البيضاء والكاب ذي القصب المنقوش، والمقص الذهبي والنسر والنجمة على الكتفين.

سافرت إلى بورسعيد بموعد هاتفي. حفزني ما كان قد تبقَّى من عافية. عرَفت أن تعليمات مدير الأمن هي التي يسرت لي دخول المدينة، ومبنى المديرية، والصعود إلى الطابق الثالث.

فتح مدير المكتب بابًا مجاورًا، ودعاني للدخول.

أعرف أنه الشقيق الأصغر للشيخ مكايد، وإن لم أستطع تخمين سنه، جذبني الوجه المنقط بالنمش، والشعيرات الحمراء الدقيقة المتشابكة في بياض العينين، والبدلة الصيفية من الكتان.

قال: لم يعد للوقف مكانته القديمة، حالات سرقة الأراضي والتعدي على الملكية، جعلته قضية خاسرة.

تكلم عن مصاريف المذكرات والعرائض والوثائق والمستخرجات والمحامين وموظفي المحاكم.

قرن كلماته بالتقليب في ملفات وخرائط ووثائق ومحاضر وعقود بيع وشراء وسندات ملكية ومذكرات شخصية ورسائل بين زوجات وأزواج وشهادات وقصاصات وجذاذات صحف. أطال الكلام عن مراجعة حجج الوقف في أرشيف الشهر العقاري، وأرشيف دار الوثائق، وأرشيف وزارة الأوقاف، وسجلات المحاكم الشرعية. هو على معرفة بجهات أوقاف

الجوامع والمدارس والمساجد والزوايا والدور والأرض الخلاء وأنواع البر والقربات وجهات الصدقات والخير. رفض أن يمتد إشراف الحكومة إلى الأوقاف الأهلية، من حق مستحقيها ما تُدرُّه من رَيْع، وعلى نظارها أن يتولوا أمرها في هذه الحدود.

لفت نظري حرصه على إيصال معنًى بأنه يستند إلى قوًى غامضة ذات نفوذ. تحدث عن الملايين التي رشا بها مسئولين، حتى انتزع حق الورثة، أتاح له منصبه نسج صداقات مع ذوي المكانة في المجتمع، بسط قوائم هدايا وإكراميات، قال إنه قدمها إلى وزراء ومحافظين ومديري أمن وخبراء في وزارة الأوقاف ورؤساء مؤسسات صحفية. عدَّد مدن دمنهور والخطاطبة وكوم حمادة وإطفيح وطوخ وشربين وبهتيت وإخميم، والمربع السكني والتجاري في باب الشعرية.

قال في لهجة مستفزة: إن كنت زرتنا لتوثيق القرابة فأهلًا وسهلًا. أما إن كانت الزيارة لأمر آخر، فلا شأن لك عندي.

كَرِه الشيخ مكايد حتحوت رأيي بنصرة مستحقي الوقف، رفض مراجعة الإنفاق على غير المستحقين من أقاربه وخواصه ومريديه.

غالى طلبةٌ في بيت المسافرخانة بأكثر من مكايد في معاداتي. لا فائدة لهم في الوقف، المعاداة تعبير عن ولائهم للشيخ، لم تكن تصرفاتهم تثيرني، أو تغضبني، عرفت أنهم أدوات يحركها الشيخ ضدي، كنت أعتبره أخًا، لا أذكر أني عاديته يومًا، ولا سعيت إلى خصومته، يجمعنا الحرص على الدين بأكثر مما تشغلنا القضايا الدنيوية.

مشكلتي مع مكايد حتحوت أني وقفت إلى جانب الحق. صرت عدوًّا حينما خالفت رأيه في قضية الوقف. أخفى، أو أحرق، ما كان لدى أبيه من السجلات القديمة، ما نص على حق النساء في التركة، وما نفى اقتصار الميراث على عائلة شرف الدين المطعني.

المرة الوحيدة التي رافقت فيها أبي إلى بيت الشيخ حتحوت الكبير، كان أبي يحمل أسئلة عن حكم الشرع في تقسيم الوقف بعد أن يوزع على مستحقيه، وكان يقاطع ردود الشيخ حتحوت بأسئلة كثيرة.

قال الشيخ إنه لم يعهد إلى نفسه من نفسه بوكالة الورثة، هم الذين اختاروه لعمله، تحدث عن ناظر الوقف، وأنه ينبغي أن يكون من ذوي الاقتدار على تعمير أماكن الوقف، وحسن إدارتها، ويكون متصفًا بالأخلاق الحميدة. طالت أحاديثه عن تقليب الأوراق والسجلات والوثائق والحجج الشرعية، استنزل أسرارها، واستجلى غوامضها، حتى ظهر ما كان خافيًا.

علا صوت الشيخ بنبرة متحمسة، إنه اشترط أن تكون النِّظارة من غير معلوم، وظيفة الناظر — في أحكام الشريعة — حسبة لله تعالى. لم يتقاض مقابلًا محددًا لنظارة الوقف، في حوزته وثائق عن وجوب إنفاق عائد الوقف على الخيرات والقربات والمساجد والمدارس، خصص جانبًا من رَيْع الوقف للصرف على الأدوية والأشربة والمعاجين وغيرها. ذكر أنه أنفق الكثير من العائد على خدمة أضرحة ومقامات آل البيت، صرف الكثير من رَيْع الأوقاف فيما يرى أنه يخفف عن الورثة عذاب الآخرة، وإن دفعته الضائقة إلى أخذ أموال من إيراد الوقف، ينفق منها على الطريقة.

عرض على الورثة أمرًا من وزارة الأوقاف، بإلزام وكيل الوقف — هو الشيخ نفسه — ترميم وتعمير الأماكن والعقارات والأراضي الموقوفة من قبل أصحابها، بما لا يخالف ما هي عليه، ولا خُصِّصَت لأجله. لم يمنعه تقدم سنه، ولا مكانته الدينية، من أن يتفقد الأماكن الموقوفة بنفسه، على فترات متقاربة، يشرف على مرمتها وإصلاحها وكنس ترابها، يأمر بإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح. إن ترك الناظر ما في الوقف من أراض مجدبة، أو جرى تجريفها، يُعهد بأمرها إلى ديوان الأوقاف.

سجَّل الشيخ حتحوت الكبير إنفاقات هائلة في بخور العود الهندي والكافور والمسك، وفي شراء القناديل والتنانير من الملح والزيت والسلاسل والحبال والأزيار، لكنس المساجد والزوايا، وإنارتها، وتوفير المياه.

وجد أبي في ذلك الادعاء ما يصعب قبوله، دخلت المياه والكهرباء، فبات ذلك كله من الماضي، هي أشبه بالجزية التي كانت مصر تدفعها لدولة الخلافة العثمانية — بالنسيان — إلى ما بعد قيام ثورة يوليو.

رفض الشيخ حتحوت ما أثاره المحامي مصطفى مروان المطعني من أن ناظر الوقف لا يحق له البيع، ولا الرهن، ولا الهبة. ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع، نحن أولى بكل ما يُنفق على تعمير المساجد والزوايا والعناية بالقبور. قال إن نِظارة الوقف تعطيه الحق في حرية التصرف بالبيع، أو بالهبة، هو صاحب الحل والعقد، كلماته مسموعة، وأوامره نافذة. جاوز الشيخ دفع عوائد الوقف نقدًا، إلى العوائد العينية في صورة لباس أو طيور أو حيوان.

أضاف الشيخ حتحوت الكبير لاختصاصاته توثيق العقود، وإبطالها، وإسقاط الديون، ورفض الخلوِّ والاستبدال. يتثبت من مشتري الوقف أو مستأجره، لا يكون بلا موارد معروفة، ولا مفلسًا، ولا يلجأ إلى المماطلة، شرط على مستأجري الأوقاف المستأجرة أن

يعمروا العقارات الموقوفة بدلًا من هدمها، جعل من سلطته إبطال العقود، وكتابة العقود الجديدة للبيع والإيجار، والإشراف على الكتاتيب ومراكز العلم التابعة لوقف المطعني.

أتاح للأكلاء أن يستولوا على ما ليس من حقهم، قضموا، واقتطعوا، وابتلعوا، جعل لأقربائه وخواصِّه ما لا يُحصَى من الوظائف والرزق (المخصصات) والضياع والدور والخانات والدكاكين والأسبلة والمسقَّفات والساحات والخلاء المهجور، خصص لهم مساحات من أرض الوقف، بنَوا فوقها دورًا ودكاكين، استخدم أموال الوقف في المتاجرة، تصرَّف في الأراضي والعقارات — بحجة أنه يستثمر الكثير لصالح الوقف — بالبيع والرهن، أوقف عدة أملاك حتى ينفق — في زعمه — من رَيْعها على مباشرة عمارة الوقف، وأحواله، وترميمه، وإصلاحه بما يتيح له البقاء، استولى — في أوقات متقاربة — على أموال الورثة، ضمَّها لحساباته في البنوك، دون أن يرجع لأصحاب الوقف. انشغل — في نهاية عمره — بالبيوع والرهون والدعاوى، تصرف — بالرهن — في عقارات وأطيان وأراضٍ كثيرة. لم يعد يقتصر على نظارة وقف المطعني، لكنه جاوزه إلى جهات أخرى، اختلطت حسابات وقف المطعني بحسابات كثيرة متشابكة.

نصح أن تزداد أعداد الورثة، كل من له حق يحصل عليه، قال: إذا اتسعت قاعدة ملاك الوقف، فإن الفرصة تزداد في ابتعاده عن أطماع الآخرين.

قال أبي: للوقف وصيته ... يجب أن ننفذها.

قال الشيخ حتحوت الكبير: العمل بالوصية سيخلق متاعب نحن في غنًى عنها.

– حكم الشرع مهم.

– لا يرضي حكم الشرع قسمة الميراث على الذكور والإناث.

– هل اشترطت الوصية شيئًا آخر؟!

– قصرت الميراث على الذكور.

تململ في ضيق واضح: يحفظون شجرة العائلة.

علا صوته بنبرة وعظية: التركة للأبناء، ولأبنائهم من بعدهم، ثم لأولاد الأبناء وذريتهم، ونسبهم، وعقبهم من الذكور. إذا لم يخلف الابن ذكرًا يرثه، فإن مشيخة الطريقة تئول لذوي القرابة العائلية، أقرب المقربين في عائلته.

اتهم أبي الشيخ حتحوت الكبير، والشيخ مكايد من بعده، بأنه نسب الوقف إلى نفسه، ادعى ملكيته، حصر استحقاق الوقف بين الرجال أولا، دون النساء. تعددت حالات الاستئجار من الباطن، يستأجرون العقارات من الناظر بأقل من أثمانها، يؤجرونها — بقيمة أعلى — لآخرين، يفيدون من فرق السعر. أسكَنَ — بالخلو — تجارًا في شارع وكالة

الليمون، حصلوا على الخلوِّ لأنفسهم، لم يحصل الوقف على عائد يفيد الورثة، عاون الشيخ في أفعاله موظفون في الأوقاف، وجدوا في الرشا ما يغويهم ببيع ضمائرهم.

ساء الشيخ حتحوت الكبير مناصرة أبي لورثة الوقف، حاول طمس الحقائق بمزاعم وتلفيقات، أضاف إليها نسبة ما لم يحدث إلى من اتهمهم بالأفعال الرديئة.

عاب على موظفي الوقف عدم مداراة الإهمال الذي تعانيه بنايات في اللبان وغربال وكرموز وغيط العنب، غابت أعمال العمارة والصيانة التي تتيح للبنايات عمرًا أطول. لائحة الوقف تشترط — في وظائفه — الأكمل والأصلح. عُنِيَ بتعيين من تحتاج إليهم صيانة الوقف: السباك، نجار السواقي، سائق الساقية، الفراشين، الخدم، البوابين. ذلك ما حرص عليه في اختيار موظفيه، أشار إلى أن لائحة الوقف تجعل رواتب المستحقين والوظائف لتقدير الناظر.

ظل أبي يعتبر الوقف وصيته الوحيدة، لم يداخله اليأس من إصرار الشيخ حتحوت الكبير على حجب إيراد الوقف عن الورثة. صار له حق التصرف الشرعي في البيع والشراء والهبة وغيرها، بما يَزيد دخله، تحكم في أموال الوقف، حصل على رَيْعها، دون أن يسأل الورثة رأيهم إن وافقوا أم اعترضوا. شرط نِظارة الوقف أن تظل أصوله في الحفظ والصون، لا تُباع، ولا تُجزأ، ولا تُستبدل، ولا تُستعمل في غير أغراضها.

أغرى التحايلُ حتى بعض من لا يعتنقون الإسلام إلى الانتساب لبيت النبوة، الدوحة المحمدية، التحايل كذلك هو الذي أغرى الشيخ حتحوت الكبير بالانتساب إلى آل المطعني.

لجأ إلى حيلة كانت تُتخذ في القديم، يُباع الوقف إلى الغير باسم الإجارة الطويلة، سنوات طويلة تقارب المائة، زيادة أو نقصًا، تئول إلى البطن وريثًا بعد آخر، كما في الملكية العادية تمامًا، يضعون أيديهم — وهو ما فعله الشيخ حتحوت الكبير — على مساحات الأراضي والزراعات والأبنية، زاد الشيخ حتحوت فنسب نفسه وذويه إلى الاسم الذي حصل الورثة على ما تركه.

نسب حتحوت الكبير إلى نفسه اسم المطعني تبرُّكًا، تحول النسب المخترَع إلى نسب يتداوله الناس، حتى ذرية المطعني، وإن لم يكن اللقب صحيحًا.

بدا أن مكايد هو الابن الذي اختاره الشيخ حتحوت الكبير لوراثته. أراد الشيخ أن يستأثر برَيْع الوقف حيًّا وميتًا، بعد أن أخذه في دنياه، سعى لأن يَئُول إليه، وإلى ذُريته، بعد رحيله، يفيدون من رَيْعه في توالي السنين.

ما أحزن أبي أن التاريخ الإسلامي من بين دروس الشيخ حتحوت الكبير على طلبته، تناسى أن توريث معاوية لابنه يزيد بداية المأساة التي تعيشها الآن أمتنا الإسلامية؟ هل كان توريث ابنه وصية يجب أن يلتزم الآخرون بها؟

لما بلغ حتحوت الكبير الشيخوخة، واستُعفي من وظيفته، ترك كل ما يبعد عن الدين، ولجأ إلى جامع أبي العباس يقضي فيه معظم الأوقات.

وهو يغادر الجامع — عقب صلاة الفجر — تداخل ذيل عباءته بين حذائه، فسقط على رأسه، حاول مريدوه إنهاضه، كان قد مات.

طالب أبي — عقب رحيله — تغليب القرابة الشعائرية على القرابة الطبيعية، رشح لوراثة الشيخ نقباء ومريدين من أفراد الطريقة، يملكون صفات وقدرات تؤهلهم لخلافة حتحوت الكبير في قيادة الطريقة. لاحظ في مكايد أنه لا يحفظ سور القرآن، ولا الكثير من الأحاديث النبوية، ويضيق بالصوفية. سأله في العديد من الفتاوى، فلم يُجب بشيء. أدرك أنه لا يعرف شيئًا في أحكام الشرع.

حذر من تصور أن ابن حتحوت الكبير أجدر من سواه بقيادة الطريقة. الولي الحقيقي هو الذي يرث حضرة النبي، ويتدرج في مقامات الصوفية. كان شاغل شيوخ الصوفية حل مشكلات المريدين، تبدل الحال، المشكلة الآن هي الشيوخ. في توريث الصوفية مخالفة للشرع. يقين المسلمين أن القرآن الكريم كتاب سماوي، وأن الله واحد، والشهادتين ركن من أركان الإسلام، مثل الصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم، اليقين الديني لا مجال للاختلاف فيه، ربما حدث الاختلاف في مذاهب الاعتقاد والسياسة والفقه، وغيرها مما لا شأن له بجوهر الدين، بحقيقته. اليقين الديني يملي أقوال المرء وتصرفاته، ما قد يؤمن به شيخ الطريقة قد يغيب — بصورته الكاملة — عن تلاميذه، ربما امتلك اليقينَ صوفيٌّ ليس من المريدين، ولا شأن له بالطريقة.

قال أبي: مشكلة الطريقة هي التوريث للابن أو الأخ.

رفع حاجبيه مستنكرًا: إذا كان حتحوت الكبير قد استطاع — بوسائله — أن يدير نِظارة الوقف، فإن أبناءه لا يعرفون الظروف الحقيقية لعيش الطريقة، ولا يشاركوننا حلقة ذكر؟!

وهو يغالب انفعاله: معظم جلسائه من رواد المقاهي.

قال المريد راغب أبو الغيط: لكن ذلك ما درجت عليه كل الطرق.

قال أبي: الاستمرار لا يبرر الخطأ.

دارى ضِيقه بابتسامة فاترة: شيخ الطريقة يجب أن يكون اختيار الجماعة!

قال المريد رفعت المنياوي: لماذا لا نلجأ إلى المشيخة الجماعية؟ مجلس مؤلف من كبار رجال الطريقة، الأوتاد والنقباء والأبدال، يتولون أمور الطريقة، ويُعنَون بها.

قال الشيخ حتحوت الكبير في تظاهر بالقبول: اختاروا من تشاءون.

قال أبي: ينبغي ألا نكرر مأساة آل البيت؟

كان له موقفه الرافض لرئاسة المرء طريقة صوفية، تتبع الطريقة، لكنك لا ترأسها. ذلك عهد المتصوفة منذ زمن قديم.

وهو يحرص ألا تعكس نبرة صوتي ما يمور في داخلي من الغضب: التوريث أشعل الفتنة الكبرى، لا نريد بعد مئات السنين أن يتكرر ما حدث في حياة المسلمين!

وتلفت حوله في استغراب: لماذا نحصر الخلافة في أسرة الشيخ؟

قال المريد راغب أبو الغيط: شيخنا لم يخطئ ... فِرَقٌ غيرنا تعمل بالتوريث.

أمَّن مريد لا أعرفه على قوله: عُرف الطريقة يعطي أكبر الأبناء منصب الوريث.

قال أبي: حتى لو كان في الطريقة من هم أحق بها منه.

قال المريد رفعت المنياوي: أعراف الطريقة لا شأن لها بمن هو أحق.

وهو يداري انفعاله: الوراثة لأكبر الأبناء.

قال أبو الغيط: لا طريقة بلا شيخ، وشيخ الطريقة لا بد أن يربطه رابط دائم بآل البيت.

# على حافة أرض مجهولة

انشغلتُ بالوقف، التركة، الميراث. لم أهمل السياسة، وإن عزفت عن الانضمام إلى جماعات أو أحزاب، أناقش، وأبدي رأيي، أوافق، وأعترض، من خلال نافذة في الدائرة المغلقة تتيح لي الرؤية، وإن حجبتني عن نظرات الآخرين وتدخلاتهم، ومحاولات اجتذابي لما يدعون إليه. حتى في المظاهرات، أكتفي بالنظر من نافذة، أو من جانب الطريق، لا أتصور نفسي في قلب المحتشدين، أردد الشعارات والهتافات، أواجه جنود الأمن المركزي والهراوات والشماريخ وقنابل الغاز والرصاص المطاطي، وجهة نظري كوَّنْتها، أعلنْتها، دافعتُ عنها بما يضعف قدرتي على الحوار، لا يذهب الفعل — ولا أتصور — إلى أبعد من ذلك.

قال لي ياسين الحاموليِ: في أيام المبارزة، من يختلف معك كان سيلقي القفاز في وجهك، وينتظر النزال.

قلت: كنت سأعيد القفاز إليه معتذرًا بأن مزاجي على غير ما يرام.

زرت وكالة الأوقاف في شارع فرنسا، أشبه بقصر قديم، تتوسط الساحة المستديرة أمامها نافورة لا تعمل، السلم يعاني التكسر في معظم درجاته، الحجرات المتخمة بالأوراق والدوسيهات والخرائط والوثائق التي علاها التراب. ترددت على مكتبة البلدية بشارع منشا، صادقت إبراهيم ألماظ صاحب مكتبة إخوان الصفا وخلان الوفا، والحاج حجازي صاحب المكتبة الحجازية، فتشت عن كل ما له صلة بالأوقاف والتركات والميراث، الخرائط والوثائق والرسائل، وكل الأوراق التي تعينني في صواب قسمة الميراث، مخطوطات وكتب قديمة وحديثة، أستنبط الأحكام، أحصل على العبر والدروس التي تعينني في البحث عما أريده، المعاني المستغلقة والغامضة.

بسط الموظف أوراقًا كثيرة أمامي، عشرات الكشوف، ممهورة بتوقيعات، وعليها أختام. تأملت قوائم الأسماء، عرفت أقلها، ولم أعرف غالبيتها. إذا كانت الأسماء صحيحة، فإن الجريمة في التوقيعات والأختام.

شمل الوقف الكثير من الجوامع والمساجد والزوايا والرُّبُط والمدارس والقصور والتكايا والأسبلة والحمامات والساحات والدور والدكاكين والطواحين والأفران والخانقاوات والفنادق والخانات والقِيساريَّات والوكالات التجارية ومصانع النسيج والطواحين وأبراج الحمام والحمامات العامة والقهاوي والإسطبلات والمشاغل اليدوية والأفران ومخازن الغلال، وأنواع البر والقربات وأحواض الدواب، وجهات الصدقات والخير، وغير ذلك مما يخطئه العد.

لتعدد الأعيان الموقوفة واتساعها، رتَّب الشيخ مكايد حتحوت عددًا من الموظفين لمساعدته في الإشراف على الوقف، وضمان حسن أدائه، عمَلُ هؤلاء الموظفين إدارةُ الأوقاف، صيانتها، ودوام عمارتها، وحسن استغلالها، واستخراج رَيْعها، وصرفه في جهاته. ضعف رَيْع الوقف من كثرة موظفيه، ضاعفهم الشيخ، تضخمت رواتبهم، أخذت من الورثة حقوقًا لهم.

حدَّقت، وأنا أنزل من السلم، في طريقي إلى شارع فرنسا، ما أُلصق على الجدران، وعلى أعمدة الإنارة، من لافتات تدعو إلى وراثة الطريقة، الابن يخلف أباه.

دوَّن الشيخ مكايد سجلات جديدة، تقصر حق الميراث على عائلته، وتنفيه عن النساء، حتى لو انتمين إلى عائلته. رافقت نظراته الغاضبة صوته الجهير: المرأة شرف، الأرض مثل العِرض، من يدافع عنهما فهو يدافع عن شرفه.

أراد أن يئول الوقف إلى الرجال من عائلته، يعرفون الحصص التي يستحقها كل وارث فيما ترك الميت. يفرقون بين الميراث والبيع والشراء والهبة والإيجار والوصية، والخشية من أن يئول الوقف إلى غريب يحرم — بالزواج — نصيبًا من الميراث عن العائلة.

تأوَّه لتقلُّص في راحة يده، نزعها عن العصا، وواصل تحريكها، ثم عاد إلى الاتكاء على العصا: أذكر أني حذرت من أن القانون ينص على منع الوقف على غير الخيرات منذ ١٩٥٢م. بات من الضروري تسليم أعيان الوقف المنتهي، إلى شخصية من ذرية الواقف الأحياء.

قلت في نبرة محذرة: إذا لم توجد ذرية للواقف، فإن التركة تئول إلى وزارة الأوقاف.

أشرت إلى مريدي حضرة زاوية خطاب — قبل أن تعلو الأصوات — بإشارة من يدي. حدَسوا خطورة الأمر، فلزموا الصمت: نحن محاسيب آل البيت ... لا نوافق على التوريث.

ضغطت على الكلمات: التوفيق هبة من الله ... لا تورث ولا تتوارث!

استطردت موضحًا: قطبنا الأعظم المرسي أبو العباس أخذ المشيخة عن أستاذه أبي الحسن الشاذلي. لم ينتسب إليه بأبوة ولا بقرابة من أي نوع!

علت الأصوات، تشابكت، أخذتني الرؤى، شردتُ، وإن تظاهرتُ بالإنصات.

قلت: نحن مطاعنة، والشيخ حتحوت ليس كذلك، لكننا نرفض الوراثة.

وهززت سبابتي: الشاذلية لا تعرف وراثة القرابة، إنما تعرف وراثة العلم من خلال مشارب وأبواب وأذواق ومواجيد يهبها الله من يريد.

قال الشيخ فوزي العقدة: نحن نبايع ولا نورث.

وسرت العصبية في صوته: لو أنه لم يكن ابن الخليفة ... هل كنا نبايعه؟

استعدت قولًا لأبي: محاسيب آل البيت يرضون بالخلافة، لكنهم يرفضون التوريث!

تنهد، هز رأسه معترضًا: الخلافة اختيار ... أما التوريث فإجبار.

قال المريد كريم طوسون: الشيخ يريد الخلافة لابنه حتى يرث الطريقة وما فيها.

استطرد فاضل المطعني بلهجة مستاءة: ومن فيها.

وقال كالمنتبه: لماذا لا نتداول المشيخة؟

– المشيخة يجب أن تئول لمن هو أحق بها.

علا صوت كريم طوسون بالسؤال: إذا لم يكن للشيخ عقب، فمن يرثه؟

قلت: الوقف للطريقة، هي التي تملك، وهي التي ترث.

قال فوزي العقدة: لا بد من وريث فرد، خليفة، شيخ للجماعة.

قلت في غضب: لا مشكلة في الوراثة، المشكلة في زحام الفرق ... كل عشرة يؤلفون طريقة!

استعدت — ثانية — قول أبي: جَدُّنا جاوز زمانه ... جعل الميراث لكل أبنائه، لم يفرق بين ذكر وأنثى.

قال الشيخ مكايد: حرمان الأنثى ليس مقصورًا على وقف المطعني، ملفات الأوقاف فيها كثير من التشابه.

قلت: ولا تزر وازرة وزر أخرى.

وهززت قبضتي — بتلقائية — في الهواء: الظلم لا يبرر الظلم، وإلا فقد العدل معناه.

الشيخ مكايد حتحوت يسعى إلى التوريث ليداري الجرائم التي ارتُكبت منذ أيام أبيه، أساءت إلى الطريقة، واستلبتها أموالها وعقاراتها. اعتمد على طلبة في المعهد في تغطية عُواره، وستره.

اتجه الشيخ حسن وردي ناحيتي بعينين متأملتين: لعلك وجدت في مشكلة الوقف ما يشغلك، أما أنا فقد وجدت فيها حقًّا ينبغي استعادته.

خانتني الكلمات، فسكتُّ، غمغمت كأني أحدث نفسي: ظني أنه قد آن الأوان كي يعود الوقف لأصحابه، لوارثيه.

قال لي ياسين الحاموليِ: لا شأن لي بالوقف، لكنني أوافق أن يحصل كل صاحب حق على حقه.

كنت أطمئن إلى صداقة الطالب ياسين الحاموليِ، يقاربني في السن، لم تؤثر إصابته بالعمى في قدرته على حفظ فقرات طويلة من الكتاب الذي يقرؤه، وإجادته إجراء عمليات حسابية معقدة، دون أن يطلب من قارئه الإعادة، يتميز في تلاوة القرآن بصوت رخيم، فيه حلاوة وطلاوة ودقة، يضفي الورع والخشوع والتقوى، يحاكي أصوات الطير والحيوان والأصوات المغنية، يعوِّض باللمس ما فقده من البصر، يستعيض بالشم عن السمع، يتذوق الطعام بشمه، يعرف إن كان طيبًا، أم يطلب استبداله، يتشمم المكان فيعرف إن كان زاره من قبل، وما طبيعته، وهل يطمئن إليه، فيحدث نفسه، أم يلوذ بالصمت؟

يدير رأسه فيما حوله، ربما تعيده رائحة ما إلى موضع ابتعد عنه، أو حادثة نسيها، يصدر من منخاريه شهيق مسموع، يصمت لحظة، ثم يقرر إن كان سيظل في المكان أم يغادره، يتفادى — دون تحذير — ما يصادفه من أشياء قد يصطدم بها.

أذكر مغالبة عيني التأثر ونحن نتمشى على شاطئ الأنفوشي: أحب البحر، أحب أن أراه، أتطلع إلى أفقه، لكن الظروف تحجب ما أتمناه.

كان يريد أن يرى نور الشمس، وضوء القمر، وزرقة البحر، وخضرة المزروعات، وصفرة الصحراء، وزحام الشوارع، يري كل شيء بعينيه، ولا يكتفي بتصوره. حتى ظلمة الطبيعة لا بد أنها تختلف عن ظلمة العينين.

علق الكاكولا على مسمار في جدار الحجرة، وعُلقت العمامة على مسمارٍ ثانٍ، الكاكولا والعمامة جزء من شرف المجاورة، تدلت — من مسمارٍ ثالثٍ — لمبة جاز نمرة خمسة.

يحرص على أن يرتدي ثيابه بنفسه، يعتني بلف العمامة جيدًا، لا يحبكها فوق رأسه أكثر من اللازم، ولا يهمل قلوظتها فتبدو مثل الخرقة. تغلب عليه الوسوسة، فهو يشك إن كان قد توضأ، وينسى ما أداه من ركعات، وما إذا فاتته آيات في قراءة الصلاة. أصابعه تكُر — في صمت — حبات المسبحة، يواظب على قراءة الأوراد، يقيم الصلوات في أوقاتها، حتى لو نسي الشيخ موعد الصلاة، وضع راحتيه في جانبي وجهه، ورفع الأذان. يقرأ دروسه بصوت

مرتفع، وهو يدور في الحجرة، يطالع ما يصادفه من كتب، يبتلعها، يهضمها، ثم يعيد كتابتها متضمنة أفكاره، وبصياغته وأسلوبه، أحب الجاحظ وابن عبد ربه والأصفهاني والتوحيدي ورسائل إخوان الصفا. كراهيته للكتب التراثية الصفراء جعلته يكره كل ما هو أصفر. تشغله أصول الشريعة، لا فروعها، يعيب اختلافات المذاهب، وتعدد الروايات، والقيل والقال والاحتمالات والتجويزات. العلوم — على قول الإمام مالك — ثقيلة، على العلماء أن يُبسِّطوا العلم بلغة يسهل فهمها. إن ضاقت به الحال، اشتغل بنسخ الكتب، يعهد إليه المشايخ — والطلبة أحيانًا — بكتب ومخطوطات، يغلق على نفسه باب الحجرة في بيت المسافرخانة، بضع ساعات في أيام متوالية، حتى يفرغ من النسخ.

أتذكَّر اليوم الذي بدأت فيه صداقتنا — ياسين الحاموليِّ وأنا — لكزني بكوعه، وأنا أناقش الشيخ مكايد حتحوت في آراء فقهية.

مال بجانب رأسه، وهمس: انتظر حتى يهدأ انفعالك، ثم تكلم!

ترك لي مقوَده عند المغادرة. صحبته إلى حجرته في الطابق الثاني، فاجأني بالقول، وأنا أتهيأ للقيام: في الحجرة سريرٌ خالٍ. نحتاج إلى زميل جديد.

عرَفت في تصرفاته اهتمامًا واضحًا بالآخرين، يبذل النصيحة والتحذير وكلمات الود والمؤانسة. لم يكن ميله إلى النكتة والدعابة ينعكس في ملامحه، وإن بقي في ذاكرتي ضحكته المقهقهة، لما سألته عن النيل، كيف يتغنى به عبد الوهَّاب لأنه لم يأت.

– من قال إن النيل ما جاشي؟

عاود ضحكته المقهقهة: النيل نجاشي، ملك البلاد على الضفتين.

قلت متنبهًا: هل تحب الغناء؟

قال الشيخ حسن وردي: أنا من جيل السهر لسماع أم كلثوم، الزمن الحالي للألحان السندوتشات.

تراجع إلى الوراء، وأغمض عينيه، كأنه يستعيد ما حدث:

طرد الشيخ شلبي أبو علي طالبًا من البيت، لأنه شتم زميلًا له بالقول: يا رفضي.

قال ياسين الحاموليِّ: هذا القول عقابه السجن.

ودافع عن حبه لآل البيت: إن كان رفضًا حب آل البيت ... فليشهد الثقَلان أني رافضي.

كان يكثر من الكلام في السياسة، لكنه لا يتخذ موقفًا سياسيًّا، يناقض، ويحلل، ويوضح، لكنه لا يعبر عن ميل أو رفض.

– هذه هي الصورة كما أراها، أما رأيي فأنا أحتفظ به.

ثم بنبرة متألمة: يؤلمني تكفير من يختلف في الرأي!

يحاول إخفاء تأثره: لا أرفض الرأي المخالف، بل أرفض الفعل المخالف، الفعل الظالم.

ويقلب شفتيه ممتعضًا: عندما يضربني العسكري فأنا لا أكرهه، أكره من حرضه على ضربي!

يلح في أن أقاسمه ما يأتيه من مدينته شبراخيت: برام أرز معمر، وحمام محشي محمر، ومفتقة، وسمن بلدي، وأقماع سكر، لا يقرب اللحم في الطعام، لا لأنه يكرهه، بل لأن بقايا اللحم تتخلل ما بين أسنانه، فيصعب إزالتها. ربما أكلنا من مطاعم السوق، فولًا وطعمية وبطاطسَ مقلية وباذنجانًا من حسونة بشارع صَفَر باشا، ومعلبات وفطائر من شارع الميدان.

قال ياسين: أنت — بمفردك — لن تصنع شيئًا، لا بد من الجماعة التي تناصرك.

– في بالي ما ليس في بال أحد.

وهو يخفض من نبرة صوته: هذا ما تظنه.

نفترق في بداية الإجازة الصيفية، بوعد اللقاء أول العام الدراسي. أذكر أنه زارني ثلاث مرات في قريتي، وأني انتزعت من ظروف عملي في علي تمراز ما أتاح لي — ذات يوم — زيارته.

بعد أن سافرت إلى الحجاز ظلت مراسلاتنا على حالها، أراسله من الرياض، ويراسلني من شبراخيت، أتاح له فقد بصره وظيفة واعظ في المدينة.

في واحدة من زياراتي إلى الإسكندرية، أغلقت السماعة بعد أن فاجأني صوت مشروخ، لم أدر إن كان لرجل أم لامرأة: الشيخ ياسين مات.

كنت أَلِفت رحيل الكثير من أصدقائي ومعارفي.

# التحليق في سماء مغلقة

في ساعات الصباح الأولى، يغادر البيت القريب من بيت المسافرخانة.

يتجه إلى حلقة السمك. يفضل شراء السمك من البناية المطلة على الأنفوشي، يضمن نقلها — قبل الصبح — من البلنصات.

يعرف أنواع السمك، يجيد الاختيار والفصال، يقلب خيشوم السمكة، يتبين ما إذا كانت صيد يومها أم فاسدة، يجيد إعداد الصيادية، يشوي السمك، أو يقليه في الزيت، أو يعده في صينية، ينزع أحشاءه وينظفه، يضيف إليه الزيت والملح والبهارات، يرى أن السلطة الخضراء لا تستحق اسمها إلا بالطماطم والخس والخيار، ما عداها تفاصيل، ربما أوصى على شروة سمك، التوصية على الترسة في اليوم السابق على يوم ذبحها، لا يقدم البائع على الذبح إلا بعد أن تكمل الحجز. إذا ظلت أجزاء منها، دون أن تباع، فإنها لا تلبث أن تفسد. لم يكن ثمة ثلاجات للحفظ — كما هو الحال الآن — ومن الصعب أن يحتفظ لحم الترسة بمذاقه إن تعرض لملاقف الهواء، مثلما يحدث مع أنواع اللحم الأخرى. يتحسس الطعام بأصابعه، يتذوقه بلسانه، فيعرف نوعه: أحرص على شراء طعامي من بحري، أعرف أن ما تبيعه الدكاكين لا بد أن يكون جيدًا، يدرك الباعة أن الزبائن يتذوقون، يُعنَون بالمساءلة قبل أن يُقدِموا على الشراء. العكس هو ما يحدث في الأحياء الأخرى، يشترون المعروض بلا تدقيق في جودته، ربما دفعوا مقابلًا أزيد بكثير مما يدفعه أبناء الأحياء الشعبية، إنها ضريبة الانتماء لحي راق.

يصل المعهد بالورديان قبل أن تبدأ الدروس، يتجنب الجلوس إلى الطلبة، ويؤثر الخلوة لنفسه، تقتصر مجالسه على المحاضرات في داخل المعهد، ودروس ما بعد المغرب في سيدي علي تمراز. عدا صداقته لياسين الحاموليِ، كان أميل إلى الوحدة، يتدخل في الحياة الشخصية بقدر ما يتيحه له الطالب، ولا يأذن لحياته الشخصية أن تلوكها الأفواه. عرف

في نفسه ميلًا إلى الصحبة الحلوة والمؤانسة، لكنه وجد في العزلة ما يمنع فضول الآخرين، وتدخلاتهم، لم يكن يمتلك الشجاعة التي تدفعه لمواجهة التآمر والتصرفات الصغيرة، احتفظ بنفسه عن تدبيرات الطلبة، وخلافاتهم، وما ينشأ بينهم من صراعات.

يمضي إلى شاطئ الأنفوشي، بمفرده، أو بصحبة الحاموليِ، لا يهيمن على أفكاره وتصرفاته إلا الرغبة في الوحدة، الخلو إلى ذهنه، وتأملاته، واجترار ما قرأه، أو شاهده، أو استمع إليه. ينشغل بمتابعة أسراب الطير في دورانها حول الخليج، أو انطلاق لنش إلى خارج البوغاز. ربما تسلى بقذف قطع الحصى الصغيرة في الأمواج الساكنة، تلقفها في دوامات صغيرة، ما تلبث أن تختفي.

يعرف الناس الكابين التي يقيم فيها، عُرفت باسمه طيلة أعوام غيابه عنها، وعن الإسكندرية.

حرص على عدم الخروج عن النظام الذي وضعه شلبي أبو علي الشيخ الحالي للمعهد، لم تعكس ملامحه ما يدل على رضاه عن استقباله، له اعتراض وتحفظات، لكنه تجنب التأثير على الطلبة بما قد يُظن أنه محاولة لإبعادهم عن الشيخ حسن وردي.

لم تكن الدروس موزعة بين المشايخ، يجلس الشيخ إلى من يقصد مجلسه، لكل شيخ في المعهد مريدوه وطلبته.

قرأ الكثير من المتون والحواشي والشروح والزوائد والاختصارات، تعددت دروسه في الأصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والتصوف وأحكام النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق. قاموسه اللغوي يتيح له اختيار المفردة والعبارة المعبرة عن المعنى. أخذ على المشايخ أنهم يأخذون في اجتهاداتهم بعلم الفروع، يهملون علم الأصول، أصول الدين. الأصول تشمل الشريعة، واشتقاقها من الكتاب والسنة، ودراسة النصوص الشرعية، والأدلة العقلية، وتفاصيل العقائد، وأصول الفقه، ومعرفة النبوة والرسالة. أما الفروع فتقتصر على دراسة فرائض العبادات والمعاملات، وأحكامها.

عُرِف عنه تقبله لكل ما يصدر من أسئلة، إن وجد فيها ما يدعوه إلى الإجابة. إذا كانت في نطاق معارفه قال ما لديه، أو ذكر آراء تتصل بها، أو ينصح الطالب بشيخ آخر، قد يكون أشد استيعابًا لمادة السؤال.

لم يسأل أي طالب عن مذهبه الديني، وإن حدس المذهب من ردود الطالب على أسئلته، ومن حصيلة الطالب المعرفية.

أمر شيخ المعهد بوضع قائمة بالطلبة الذين يحق لهم المبيت. صلاة العشاء آخر موعد لاستضافة الغرباء، يُغلَق البيت بعدها على ساكنيه، لا يُؤْذَن لهم بإيواء أي شخص، حتى لو كان طالبًا في المعاهد الأزهرية. البيت ليس مكانًا للزيارة والمذاكرة والمؤانسة.

مساحة البيت أضيق من أن تتيح نظام المجاورة والأروقة، كل مجموعة طلبة يختارون حجرة تسعهم، لا يقصرون الدروس على شيخ ومريدين، أستاذ وتلاميذ، لكنهم يتنقلون بين الحجرات، يضعون انتباههم في الآذان والأعين.

توزعت أوقاتهم بين تلاوة القرآن وحفظ الدروس وأحاديث السياسة والمسامرة وتناول الطعام والنوم. الأسِرَّة الثلاثة يتوالى الرقاد عليها واحد من العشرة المقيمين في الحجرة.

تحولت البناية إلى مدرسة داخلية، يسودها النظام. لكل شيء موعده المحدد، أوقات الصلاة والمذاكرة والقراءات، حتى أوقات السمر وارتشاف الشاي لها أوقاتها التي لا تتبدل، تتعدد أدوار الشاي، يتخللها الكلام والأسئلة والأجوبة والملاحظات واستعادة ما يتذكرونه من أبيات الشعر والحكم والحكايات، تضاف أدوار شاي أخرى، يهملون فيها العدد، يعرف كل طالب أحداث يومه منذ الصحو، قبل الفجر، إلى ما بعد العشاء، ينقطعون للدين وحده.

يُدرِّس الشيخ حسن وردي لطلابه — في معهد الورديان — أصول الدين والفقه والنحو والتفسير والحديث والبلاغة والأصول وغيرها من العلوم المستندة إلى كتاب الله وسنة رسوله. يدرسون الأصول والفقه والتوحيد والتفسير والجدل والحديث وعلومه والنحو والصرف والمعاني والبلاغة والبيان والبديع والمنطق. يذاكرون ألفية الإمام مالك، والمنهاج للنووي، ورسالة القشيري، وسراج القول للقزويني، وإحياء علوم الدين للغزالي، والفتوحات المكية لابن عربي، وتفسير الجلالين، وجوهرة التوحيد، والرجبية، ينصحهم فلا يكتفون بقراءة مصادر البحث ومراجعه، إنما يفتشون عن كل ما له صلة بالموضوعات التي يبحثونها. لا يقيد الطالب نفسه بعلم شيخ واحد. يتنقل بين حلقات المشايخ في أبي العباس، وغيره من الجوامع، يسأل، يناقش، يبدي الرأي، يقرر إن كان سيعود، أم يغادر إلى حيث يجد من يهبه سعة الصدر.

لاحظ أن الطلبة الوافدين من خارج الإسكندرية يفضلون العزلة، مجموعاتهم تزيد عن ثلاثة أو أربعة. ربما انطوى الطالب على نفسه، لا يخالط زملاءه إلا لضرورة، يأتون من مدن وقرى خارج الإسكندرية، يصعب القدوم والعودة في اليوم نفسه، تظل إقامتهم في بيت المسافرخانة، من صباح السبت إلى مساء الخميس، ربما استبدلوا بالرحلة الأسبوعية رحلة تجمع إجازات شهر.

ذاع بين الطلبة أن مشايخ الأزهر ومسئولي الأوقاف يدارون الشيخ شلبي أبو علي، ويعملون على إرضائه، ثبت في يقين حسن وردي أن الشيخ أَلِف مخالطة السلطان، ومداخلة الدنيا. اتهمه بأنه جعل التراث الفقهي في خدمة السلطة، دعا الطلبة للاقتداء بأولياء الحي، قال إن المرسي والبوصيري وياقوت العرش والسيوطي ونصر الدين، مشكاوات نور في مجتمع الظلمة.

لم يكن له سابق عداء مع الشيخ شلبي، دفاعه عن تصرفات الشيخ حتحوت أثاره، حتى من قبل أن تبين تفصيلاتها. شلبي أبوعلي لا شأن له بالوقف، لكنه — إرضاء للشيخ مكايد — بدا مَلكيًّا أكثر من الملك. يعلو صوته بما يدفعك — للرد عليه — إلى رفع صوتك.

عاب حسن وردي على مناهج الدراسة في المعهد، أنها جمدت على حال الزمن القديم، وعاب على مشايخ المعهد تضخم كروشهم، وزيادة طبقات الدهن في أجسادهم.

نطقت ملامح الشيخ مكايد حتحوت بالاستياء: أنت تكرر في المعهد وفي بيت المسافرخانة ما تقوله في علي تمراز.

أردف: معهد الورديان للدرس والقراءة، أما بيت المسافرخانة فلإقامة المشايخ والطلبة.

تلاحقت ضرباته بالعصا على الأرض: نحن تابعون للأزهر.

دعا الشيخ حسن وردي طلبة المعهد إلى وأد الدعوة بإزالة الأضرحة والمقامات، رد من يحاول الإزالة، وخوض المعارك، لو اقتضى الحال.

قال: نحن نتوسل بالله ... لا نلجأ إلى البشر، حتى لو كانوا أولياء أو أنبياء، وإن كنا نبقي على أضرحتهم ومقاماتهم.

عُرِف عن مكايد حتحوت ميله إلى التصوف السني، كما في اجتهادات أبي حامد الغزالي، لكنه ساير شيوخ المعهد في رفض الطرق الصوفية، وضيق على المتصوفة. قال ما لم يكن من آرائه، عاب على الفرق خلطها بين دراسة الفقه والصوفية، وجد فيهم عباد قبور، يأخذون علمهم عن الموتى، يحصلون من أضرحة الأولياء على الشفاعة والغوث.

أفتى بعدم جواز بناء القباب على المساجد وضرائح الأولياء، وبعدم جواز الصلاة في المساجد ذات الأضرحة، لا يجد حرجًا في أداء الصلوات بجامع أبي العباس لخلو المقام من قبة تعلوه. نحن — كما تعلم — لا نتوسل بالأولياء. نأخذ الأذكار من الحضرة الإلهية. الذِّكر يجلِّي القلوب، يصفِّي النفوس.

جاهر النسوة بالعداء، عدا المسدِلات، أو اللائي يغطين رءوسهن بإيشاربات، يجد في إسدال النساء وعلامة الصلاة على جبين الرجال معنًى يطمئن إليه، أن يعرف الناس دينهم

جيدًا، فهو خير. كما رفض أن يعظ العامة بما لا يناسب إلا الخواص، هم وحدهم يحسنون التلقي والفهم.

– نحن فقهاء وعلماء دين، التصوف متاح لكل من يريد، أما الفقه وعلوم السنة فهي مقصورة على من أجاد دراستها وفهمها.

ثم وهو يغالب انفعاله: لو أن الطرق الصوفية زالت، فلن يبقى إلا الدين الخالص!

قال حسن وردي: نحن نعرف أن غالبية علماء الأزهر يدينون بالصوفية.

أرجفت حركة عصبية جانب فمه: معهدنا لإحياء السنة وإماتة البدعة، والبيت لطلبة العلم وليس للصوفية.

وعبر عن الاستياء بتكشيرة قلَّصت ملامحه: أكره الفِرَق لأني أرفض التبرك بالقبور.

قال حسن وردي: هدم الأضرحة لن يسهل تقدم البلاد.

وركز نظارته الطبية فوق عينيه: الأضرحة ليست لذاتها، بل للمعنى الذي تحمله.

دعا حسن وردي إلى العمل بآيات القرآن وسنة الرسول. التوسل إلى الله يجب أن يتم دون وساطة بني البشر، حتى لو كانوا من الأولياء، حتى لو كان الرسول بموضعه الذي لا يرقى إليه أحد، وإن لم يجد ما يمنع الطلبة من الاقتداء بأولياء الحي. قال: إن الأولياء مشكاوات نور في مجتمع الظلمة.

التقط من فمه سنًّا مكسورة، تأملها ثم أعادها.

– الاختلاف لا يعني الخصومة، نختلف ولكن يظل الحوار قائمًا.

اتخذ هيئة من يلقي النصيحة: وجادلهم بالتي هي أحسن.

وعلا صوته بالتلاوة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

ثارت مناقشة حول كروية الأرض. لا أحد يدري من طرح المسألة. اختلفت الأصوات، وعلت، فغاب المعنى الذي يطمئن إليه الجميع.

قال شلبي أبو علي: الله دحا الأرض، هي منبسطة، وغير مستديرة.

قال حسن وردي: أفضل أن يتوصل الطلبة إلى قناعاتهم بالتفكير.

وغمغم من بين أسنانه: نحن نحاسَب على إيماننا، وليس بما يُفرَض علينا.

قال الشيخ شلبي: أنا أربي الطلبة وأنت تفسدهم، تنصحهم بما يجب أن يتخلوا عنه.

رفض حسن وردي ما يردده المشايخ عن سؤال الملكين، وعذاب القبر، والثعبان الأقرع. قال: إن موعد الحساب يعرفه الله، عقب نهاية العالم.

حريق القاهرة بدَّل كل شيء، الحجرات تُفتح وتُغلق على جماعات من الطلاب يتناقشون فيما لا ترتفع به أصواتهم عن الهمس. حدس عيون الشيخ شلبي أبو علي أن الطلبة يُعِدون لأمر ما يقلب الأحوال في المعهد.

اتهم الشيخ حسن وردي بالسعي بالإفساد بين طلبة المعهد، حذر من أن تسري عدوى الفتنة إلى كل حجرات البيت وقاعاته، تتحول إلى كتلة من النيران.

قرأ الطلبة على واجهة المبنى إعلانًا يحظر الحديث في السياسة، المبنى للإقامة، والسياسة لها مجالاتها.

قال الشيخ فوزي العقدة: إذا لم يتعلم الطلبة كيف يخفضون أصواتهم في بيت العلم، فأين يتعلمون إذن؟

أبدى الشيخ شلبي أبو علي غضبه عندما رأى الطلبة يستعيضون بسماع أحاديث الشيخ حسن وردي، يتجهون إلى مجالس شيوخ آخرين، يسلمونهم آذانهم وانتباههم. تحدث الشيخ عن وظيفة البيت، وأنه خُصص للإقامة والدرس والقراءة. قال إن دروسه يجب أن تقتصر على فقه الدين.

فاجأ الشيخ وردي قرار منعه من التردد على بيت المسافرخانة.

أُلصِقَت اللافتة على الحائط الملاصق للباب الحديدي. هي المرة الأولى التي تمنع فيها إدارته شيخًا من دخول المبنى. لم تشر الكلمات إلى السبب، وإن نقل مكايد حتحوت عن شيخ المعهد قوله: لا نريد في البيت علي عبد الرازق جديدًا.

عرَف أن مكايد حتحوت وراء ما حدث، رفض شلبي أبو علي دخوله القاعة التي يلقي فيها دروسه، ثم رفض زيارته بيت المسافرخانة. أغضب الشيخ تردده على البيت في غيابه، نسب إلى صالحه دخوله البيت وخروجه دون أن يلتقيه، هدد بأن الطرد هو ما سيفعله لو أن الزيارة تكررت.

حذر الشيخ طلبة المعهد مما تنطوي عليه كتبه — رغم قلتها — من خطر. أخذ عليه أخطاء فقهية كثيرة، اتهمه بأنه يدعي النسك والزهد والورع، وبترويج البدع، والانحراف عن مبادئ الدين الصحيحة. لاحظ اتساع الهوة بينه وبين الطلبة، نشأت خلافات لم يتسببوا فيها، ولا أعد نفسه لها، اعتقدوا في الشيخ شلبي، أَنِسوا إلى عظاته ونصائحه وتوجيهاته، تعلقوا بكلامه، شددوا النكير على من ينكر عليه، رددوا اتهامات شلبي بالسعي بالإفساد بين طلبة المعهد. في حجرة مكتبه نافذتان صغيرتان، تطل إحداهما على البسطة في نهاية درجات السلم، والثانية على البهو الفسيح، على جانبيه حجرات الطلبة، يتعرف من موضعه إلى الحركة في المعهد، يرقب الطلبة في دخول الحجرات، والخروج منها.

عرف حسن وردي أن شلبي أبو علي سعى لدى إدارة الأزهر، لتقطع صلته بالطلبة، وبالمعهد، ولإبعاده عن البيت. عهد إلى عدد من الطلبة يبلغونه بكل ما يرونه من أحداث، وما يستمعون إليه من كلمات تجذب الانتباه.

توقع الطلبة ردًّا قاسيًا على ما نقلوه، لكنه التزم صمت الفاهم للتصرفات الغريبة، لا دافع يملي عليه إلا الشرخ الذي أحدثه الوقف في العَلاقة بينه وبين مكايد حتحوت. أحاط نفسه بسياج من اللامبالاة، لا يأذن لسؤال، أو ملاحظة، أو نظرة فضول، أن تنفذ إليه.

– كأنما اتحد الجميع من أجل افتراسي. أجادوا حصاري، وتنظيم قواهم حولي.

عاني الحيرة، فلم يدر كيف يتصرف.

أحزنه ترك البيت، استهواه العيش في القراءات والنداءات والزعيق والصياح وارتطام الملاعق والسكاكين والأوعية، وانسياب ماء الوضوء، ورفع الأذان، والأغنيات.

قال ياسين الحاملي: إذا نذر المرء نفسه لقضية ما، فإن عليه ألا يتوقع مكافأة، وربما عليه أن يتوقع الأذى.

في لهجة لا مبالية: لم يستطع نابليون أن يخضع الأزهر ... هل يخضعنا هؤلاء الأجلاف؟

اتخذ في داره مجلسًا لإلقاء الدروس في الفقه والحديث وعلوم القرآن، وإتاحة الفرص في السؤال. امتلأت مجالسه بالعلماء والطلبة. يجد متعته في التفافهم حوله. يعكف على الخلوة وتلاوة القرآن والقراءة من أول رمضان إلى ما بعد عيد الفطر.

بدل — في الأشهر الفائتة — ما كان أَلِفه، يغادر البيت، يميل من شارع المسافرخانة إلى زاوية خطاب. عُنِي بفرش الزاوية، وتأثيثها. عهد إلى الخادم عاكف بفتح الباب الخارجي عند صلاة الفجر، وكنس القاعة الداخلية، وتنظيفها. إذا استحق الأذان لصلاة ما، وقف الخادم على باب الزاوية، ورفع صوته بالأذان، يؤدي الصلوات في أوقاتها ويعود. يعقد مجالس بزاوية خطاب، في كل خميس من بعد صلاة الظهر.

اخترت زاوية خطاب لضيق مساحتها، وقلة المترددين عليها، ليست جامعًا، ولا مسجدًا. الدائرة المحدودة حولي تفي بما أرجوه من موضع مناسب لإلقاء العظات، وآذان تحسن الإصغاء، وعقول تحسن الفهم. عرَفت من توالي العظات ما يهم الناس، ما يعنيهم سماعه، تعلمت الكلام بما يناسبهم، ويجذبهم إلى عظاتي. ربما امتد النقاش إلى قضايا يقتصر الحديث فيها على العلماء: الاجتهاد في الفقه، تأويل القرآن، الموقف من الفرق، إلى قضايا اللحظة المعيشة: الحكومات والأحزاب والجمعيات السياسية والتضخم والغلاء والعولمة

وتقلبات الجو والانفتاح وأحكام الدين ومكافحة الآفات وأزمات المرور وحوادث الطرق والاغتيال الفردي والفوضى وغياب النظام والعنف.

أيام كنت شابًّا، يا دوب في الواحدة والثلاثين، لم أكن أعرف ما ينبغي أن أكتمه، وما يقال. أقول ما أقول بعفوية. لا يدور بخاطري أني سأصير دافعًا كي تحاصرني اتهامات لا أعرف ماذا تعني، ولا تصورتها، مجرد آراء، اجتهادات، تشغلني، لا أعرف مدي صوابها. طرحت القضايا نفسها في الشيخوخة، وإن تكلمت بما لا يغير المعني، ولا يؤذي.

ثم وهو يمسِّد صدره: أن يختار المرء ما يمليه اقتناعه، فتلك هي الحرية.

وأشاح بيده علامة الرفض: لا قيمة لليقين الديني ولا حتى العدل ما لم يكن المرء حرًّا!

عانيت — تلك الأيام — غياب الراحة والطمأنينة والسلام، نظرات تترصدني، آذان تصيخ السمع، تقارير أخاف مفاجآتها. أشعر أني مراقب، حتى في الأشياء التي قد لا يعكس التعرف إليها ما يُدينني، حتى في الأشياء العادية التي أجاوزها.

أحاطتني النظرات من كل جانب، نظرات متسائلة، ومستريبة، ومتشككة، ومُدينة.

سألت نفسي: إلى متى سأتحمل هذه التصرفات؟ لماذا لا يبتعد مكايد حتحوت عن طريقي؟

رحيلي إلى الحجاز اختيار ضرورة، حاصرتني مضايقات مكايد حتحوت وطلبة شلبي أبو علي في بيت المسافرخانة، وإلحاح مديرية الدعوة بوزارة الأوقاف للعمل في القائد إبراهيم.

أعدت قراءة عرض السفر بنية القبول.

# أعود — كما كنت — وحيدًا

اعتدل في جلسته، وأسند ظهره إلى الكرسي: أعتذر عن حاجتي إلى فترات استراحة، توطَّن الربو صدري، أحاول استعادة انتظام أنفاسي.

أنست عيناي لطيبة ملامح الرجل، وعفوية كلماته.

– جامع علي تمراز، أول ما زرته عقب العودة.

اكتفيت بالوقوف على ناصية الطريق من ناحية إسماعيل صبري، تأملت تبدلات المكان، لم تعد الفوانيس الخمسة في قلب الميدان، وحلت بنايات جديدة موضع ما أتذكره من بنايات قديمة، علت الطوابق بما يختلف عن الطابقين والثلاثة، الحوائط أكلها النشع والرطوبة وأملاح البحر، وما يشبه الخضرة تخللت الفجوات بين قطع الحجارة.

لم تكن السن تقدمت بي إلى هذا الحد، لم أكن — كما أنا الآن — طعنت في الشيخوخة. لعلي مثل المقاتل الذي يقضي فترة الإحالة على التقاعد. تُناوشه مواقف، يتمنى لو استعادها، يكرر الفعل، أو يتصرف بفعل مغاير.

تمنيت أن أعرف ما يقوله في داخله. إذا لم يجد ما يقوله، فإنه يظل صامتًا.

ران على صوته شحوب: للشيخوخة أعراضها، أهونها تغلب النوم وأنا أقرأ الجريدة، تنزلق من يدي إلى الأرض، يضعها الأحفاد على الطاولة حتى أصحو.

أدركت أنه ينتظر — بصمته — أن أقول شيئًا.

عض على شفته السفلى، وأضاف: عندما يبلغ الإنسان مرحلة الشيخوخة، فإن عليه أن يتوقع المرض والوحشة وفقد الأصدقاء، ربما أسلمه اليأس إلى ما يصعب تصوره.

وشوَّح بطرف يده: كل ما في الذهن الآن أن أواجه الشيخوخة بلا متاعب قاسية.

قلت: جئت للتقاعد؟

– من الوظيفة ... لكن الوزارة منعتني من إلقاء خطب الجمعة. فهمتْ أني في سن التقاعد، وأنه لم يعد لدي ما أقدمه. رفض وكيل الوزارة عملي في أي شيء، ما لم يكن باطلاعه ومشورته.

نزلت في شقة ابني زين العابدين بشارع فرنسا، مفتش بوزارة التموين، ظللت فيها حتى انتهى ترميم بيت المسافرخانة، وتأثيثه، وتزويده بما يحتاج إلى إقامتي المتصلة، وصلاتي بطلبتي وزواره.

في دهشة: طلبتك؟

– من خطبتهم في علي تمراز صاروا شيوخًا ... لم تنقطع الصلة.

زم شفتيه، نفخ في فنجان الشاي: جعلت في قاعة البيت حضرة للطريقة الأحمدية الشاذلية؛ قراءة القرآن، والأوراد، والذكر. جاء الأمر من نقطة الأنفوشي — في اليوم الثالث — بإلغاء الحضرة. اكتفيت بالقول — تعليقًا على أمر الإلغاء — طاعة الله والرسول وأولى الأمر واجبات لا نناقشها!

قلت: ما معنى الطريقة إن لم تقم الحضرة.

– كل شيء مرهون بوقته ... أقمتها — قبل الأحداث الأخيرة — في زاوية خطاب.

قلت للشيخ: هل ما زلت صوفيًّا؟

– كانت الصوفية مرحلة من حياة الإمام البنا، وهي كذلك في حياتي.

ووضع يدًا فوق أخرى على مقبض العصا: الطريقة الآن تعاني تعبًا، يرفض المريدون سلطة المشايخ.

واربت البنت الصغيرة ضلفتي النافذة بما يأذن بدخول الضوء، تسللت حزمة من أشعة الشمس، صنعت على أرضية الحجرة نثارات فضية ملتمعة.

قلت: بحري حي صيادين.

– به الكثير من فرق الصوفية.

– ليسوا جميعًا من أبناء الحي.

كان الشيخ شلبي أبو علي يرفض الطرق الصوفية والدراويش، يجد فيهم عباد قبور. أفتى بعدم جواز الصلاة في المساجد ذات الأضرحة. جاهر النسوة بالعداء، عدا المسدلات، أو اللائي يغطين رءوسهن بإيشاربات. رفض فرق الصوفية لأنه يرفض التبرك بالقبور.

حدجني بنظرة مستنكرة: نحن لا نرفض الأضرحة لذاتها، بل نرفض المعنى الذي تحمله.

وسرت في صوته بحة: إذا أردنا التوسل بالله فنحن لا نلجأ إلى البشر، حتى لو كانوا أولياء أو أنبياء.

دعوت زوار حضرتي إلى وأد الدعوة بإزالة الأضرحة والمقامات، رد من يحاول الإزالة، وخوض المعارك، لو اقتضى الحال.

استطرد الشيخ حسن وردي لإنصاتي الهادئ: احترامنا لمقامات الأولياء هو احترام للأولياء، وليس عبادة لهم!

أطال قضم شفته السفلي، ثم قال: المقام أو الضريح ليس الكعبة!

وعلت شفتيه ابتسامة فاترة: لم يعد في الأمر ما يهمني، أخالط الناس في حياتهم اليومية.

ثم وهو يوسط الهواء بيده: خطباء الجمعة يقولون كلامًا مؤثرًا، لكنهم لا يقدمون شيئًا حقيقيًّا!

واختلج أنفه: أقسى ما يؤلم عندما يشعر المرء أنه مسئول عن أهل زمانه!

التفت نحوي في تأثر: لا تقل: انفض رأسك، فالشعور بالمسئولية حالة تسيطر عليك، يصعب أن تهملها.

ظل مطرق الرأس، صامتًا، كأنه يتأمل شمس الضحى في تسللها من زيق النافذة، عدَّل من وضع النظارة فوق أنفه، وقال: كانت البلاد مشغولة بمشكلات الفساد، وسيطرة رجال الأعمال، وتوطن أمراض السرطان والكبد والكلي، وحالات الاكتئاب والانتحار. حتى أراضي الدولة حُولت إلى أبراج سكنية وإدارية، ومنشآت سياحية، ومجمعات تجارية. عرَفنا — للمرة الأولى — عمائر البودرة، أي التي أنفق مالكوها على إنشائها من بيع المخدرات والمكيفات.

هلل وكيل وزارة الأوقاف لشئون الدعوة لرؤيتي: أهلًا بالطائر الذي طال تغريده خارج سربه.

اعتبرتُ الكلمات مجاملة، وإن وجدت العزاء في الجلوس إلى زواري في بيت المسافرخانة.

عزفت عن إقامة عَلاقة بالأحزاب أو التنظيمات السياسية، فضلت الصلاة — عدا الجمعة — في البيت، كي لا ألفت عينًا مترصدة، أكتفي بقراءة الصحف القومية، أعزف عن المجتمعات، لا أجلس على المقاهي، أخاطب محدثي في الهاتف بكلمات تقتصر على المعنى المحدد، لا أشارك في المظاهرات أو المؤتمرات. حتى المناسبات الدينية لم أعد أشارك فيها، وإن ظلت صلتي بعدد من أئمة الجوامع والمساجد في بحري وخارجه، حتى الشيخ المحلاوي الذي حل بدلًا مني في القائد إبراهيم، بعد أن اخترت الرحيل.

لم يقتصر تاركو بيت المسافرخانة على الضيوف الذين اعتُبروا غرباء، بدأ الطلبة — من المسموح لهم بالإقامة — في نقل كتبهم وأوراقهم وحاجياتهم، تناقصت أعداد النزلاء، خلت غالبية الحجرات، سادت الوحشة أرجاء المبنى، اضطربت أحواله، تضاءل إنفاق الأزهر عليه، فتضاءل دوره. أصابه الركود والإهمال. فقد ما كان يحظى به من عطف الموسرين. زاد تبدل الأوضاع، وتدهور الأحوال.

فطنت — متأخرًا — إلى زاوية خطاب، قريبة من البيت، أقطع خطوات قليلة لأؤدي فيها صلاة الفجر، استوقفني مصلون في مسائل فقهية، زاد من ترددي على الزاوية، صليت فيها أوقاتًا أخرى، واستبقيت نفسي لأرد على ما قد يُلقَى من أسئلة، ربما ألقيت خطبة الجمعة، وألقيت دروسًا في زاوية خطاب، لقربها من المعهد الديني، أو لأني أعرف غالبية المترددين عليها، يجالسونني، يسألون في فقه المذاهب الأربعة، والحديث النبوي، يناقشون أمور الدين، يأخذون ما أتاحه لي الله من خبرات في علوم القرآن والحديث والكلام والأصول والفقه على المذاهب المختلفة وعلوم النحو والصرف والبلاغة. أفسر النصوص، أشرحها، أعلق على المتون والحواشي، أنصح بإهمال ما لا يفيد، أوضح الغريب من المعنى واللغة.

لم أكن ألقي دروسي على التخصص، أختار ما أطمئن إليه من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، ومن فقه اللغة، ربما انعكس انفعالي في بكاء الحضور لغلبة التأثر على كلماتي.

جعلت دروسي عقب صلاة العصر، يوم الإثنين من كل أسبوع. أتحت لزواري أن يترددوا على مجالس المغرب لعلماء آخرين في أبي العباس وياقوت العرش ونصر الدين وعلي تمراز والبوصيري وعبد الرحمن وغيرها من مساجد الحياة وزواياه.

أُلِفت — كما ترى — مناداتي بسيدنا، واعتذاري عن تقبيل الطلبة يدي، أو قيامهم لي إن التقينا في داخل مبنى المسافرخانة، أو في الطريق. عادتي أن ألقي التحية على من ألتقيه، حتى لو لم أكن أعرفه.

وهو يحاول التخلص من انفعاله: الأجدى أن أعلِّم من يخطئ في شعائر الدين ولا أعاقبه.

ثم شوح بيده: المسلم الحقيقي لا خوف منه.

وأدار وجهه ناحيتي متسائلًا: هل نعتنق الدين لنؤذي الناس؟!

قلت: هل يزور الزاوية كبار المسئولين كما كان الحال في علي تمراز؟

أطلق ضحكة قصيرة مرتبكة: في علي تمراز زارني الملك، أما زاوية خطاب فلا يزورني إلا رجال الشرطة، وإن اقتصرت زياراتهم على القعود والملاحظة.

قاعة البيت لاستقبال الزوار، أغلبهم من طلبة المعهد الديني، يغيب — في ساعات الصباح — صياح الأطفال وصراخهم، وإن ترامى صوت اصطفاق باب، أو سقوط جسم معدني على الأرض الصلبة، أو مُواء قِط يتناهى من مكان قريب.

المسافة قريبة بين البيت والمعهد والزاوية، يسألونه في غوامض خطبه، ينصتون إلى الآراء التي لم يجاهر بها في الزاوية، تدور أسئلة وأجوبة وملاحظات وتعليقات، يتململ الشيخ بما يعني التهيؤ لدخول البيت، فينصرفون. لم تعد السن تأذن بمجرد الاستيقاظ ساعات طويلة.

أحسست أنه قريب مني، لعل ذلك هو إحساسه ناحيتي.

تمنيت لو أني انقطعت إلى الشيخ بالحب والتلمذة.

# أغصان بلا جذور

المواريث هو علم الفرائض، بمعني أنه فرض من الله، والميراث مصدر من مصادر انتقال الملكية، حق الملكية يضم ثلاث نقاط: حق الاستغلال، حق الاستعمال، حق التصرف.

معنى الوقف هو التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة. لم يضع الجد شروطًا إلا أن يتولى نظارة الوقف من يتصف بالصلاح والفضل والخير والفلاح، وأن يكون من حملة القرآن الكريم من السادة الصوفية.

تسمية الوقف تعني أن الأراضي والعقارات لا تتحرك إلا لوجوه البر والخير، لا يحصل عليها من يدينون بغير الإسلام. الوقف جعله صاحبه الله، لا يصير مملوكًا لامرئٍ ما، إنما هي على حكم الله، لا يجوز التصرف فيها. ربما جعل مالك الوقف تركته لسلالته من بعده، يتقاسمونها وفق قواعد الشرع، أو بما يراعي القسمة العادلة.

مكايد حتحوت هو صاحب الأمر والنهي، قد يستمع إلى اختلاف الآراء، لكنه يملك الكلمة الأخيرة، ما يقرره لا بد أن يُنفذ.

عهد الشيخ حتحوت الكبير إلى نفسه اختيار موظفي الوقف. جعل زهيري الصباغ مساعدًا له، يعينه على تيسير العمل، ومراقبة أداء الموظفين في العمل، يسجل مواعيد الحضور والانصراف، ما يطرأ من الإجازات والغياب والحضور والخصومات والفصل من العمل. من عمله اختيار أسطوات الصيانة: المرمَّاتي، المحَّار، الرخَّام، السباك، النجار، وغيرهم من الحِرفيين. أسند إلى أنور المشاقي مهمة تحصيل رَيْع الوقف، وعوائد عقاراته ومحاصيله، وتوريد ما يحصل عليه إلى الناظر، لا تقتصر إقامته على القاهرة، يسافر إلى الجهات التابعة للوقف، يستوفي حقوق الورثة بلا تقاعس ولا إهمال، يقاضي من يستأجرون عقارات الوقف ويماطلون في السداد، أو يمتنعون عنه، يوفون بما عليهم من إيجارات، لا ينهي مقاضاته إلا إذا حصل على أجر العقار كاملًا، أو طرد المستأجر من العقار. عهد إلى

أفراد بحراسة العقارات والأراضي الزراعية، يدرءون محاولات السطو عليها. لم يكن — قبل هذا الزمان — حدود بين الزراعات. الكل يشارك في البذر والري والرعاية، ويتقاسمون الحصاد.

رحل الجد زين الدين المطعني دون أن يترك إلا عقود ملكية ومخطوطات ومذكرات، تشي بالوقف والورثة، تُعنَى بالقسمة العادلة التي تعطي كل وريث ما يستحق في ضوء ما تفرضه الشريعة، للذكر مثل حظ الأنثيين.

كان جدي يضيف كل نبت إلى شجرة العائلة، حتى تفرعت وتشابكت أغصانها وأوراقها. يدقق جيدًا قبل أن يكتب اسمًا في موضعه، الخطأ الهين يفضي إلى نتائج يصعب تخمينها. وكان يحرص ألا يذهب المال الذي جمعه بعرقه، لغير سلالته. قصر المستفيدين من أموال الوقف على من تضمنت القوائم أسماءهم. من حق كل واحد أن يحصل على حقه، إن أثبت ذلك الحق.

خصص مبلغًا لتوسعة وتجديد جامع ياقوت العرش، هو تلميذ المرسي وصفيُّه وزوج ابنته، يقضي فيه مريدو الطريقة أوقاتهم، يصلون، ويفيدون من المكتبة، ويقضون أوقات الراحة. ما بقي من رَيْع الوقف قصره جدي على الورثة. الأوراق تثبت حقه في كل مساحة الأرض، الأرض ملكه، طول عمره يرمم بناياتها، يحرثها، ويزرعها، ويجني حصادها، لا يستأثر برَيْع الوقف ولا الحصاد وحده، وزع منه على إخوته. حرص أن يكتب الأسماء بنفسه. أجهد ذاكرته في استدعاء أسماء الأبناء والحفدة، هؤلاء الذين كتب أسماءهم، قُدمت أسماء، وغابت أخرى. اقتصر ما كتبه على سلالة العائلة، الأوراق تتصل بالأغصان، الأغصان تخرج من جسد الشجرة. لم تكن قوائم الأسماء هي كل ما في الأوراق، تحيط بها وتتخللها دوائر ومربعات ومثلثات وخطوط متقاطعة ومتشابكة.

تضمنت حجة الوقف أموالًا وأراضيَ زراعية وعقارات وحيوانًا ومحاصيل، خصص جانبًا كبيرًا من عائد الوقف للإنفاق على زاوية خطاب: الإمام والقارئ والمؤذن والخادم، بالإضافة إلى المريدين الذين يتوسم فيهم الإمام حاجة للمساعدة. حبس عقارات في نواحي الإسكندرية على أعمال البر والصدقة، وأوجه الخير الصوفية، توزعت الأراضي في الوجه البحري والصعيد، وظل بعضها في السودان، حتى انفصل عن مصر، فصار الوقف حيازة للدولة الجديدة، شمل الوقف الكثير من قطع الأراضي والعقارات والدكاكين والوكالات والمخازن والأفران والطواحين والأموال الثابتة والمنقولة.

أصل الوقف يظل على حاله، لكنه يعطي عائدًا جيدًا، يفيض — في بعض السنين — عن مخصصات الورثة، يستأذن الشيخ حتحوت الكبير، فيخصص الفائض لوجوه الخير.

قصر على نفسه تقاضي رَيْع الوقف، ووسائل إنفاقه، دافع عن أفعاله بأن أحكام الوقف تضمن مشروعية تنمية ما تدره الأراضي والبنايات الموقوفة، واستثمارها، وبيعها بما يفوق أثمانها الحقيقية. لاحظ الورثة أن الناظر يقصر الفائض على أفراد أسرته والقريبين. جعل الشيخ من الوقف وسيلة لسلب الناس أموالهم. أنفق من عائد الوقف على شراء الأراضي الزراعية وتأجيرها، والمتاجرة في العقارات، وبناء المجمعات التي تضم عددًا من الدكاكين والوكالات والمقاهي، وإقراض النقود مقابل فائدة معلومة، وتخصيص الرواتب لبلطجية يسلطهم على من يريد أذيته.

حين مات جدي، حرص الأبناء والحفدة أن يشاركوا في غسله وتكفينه، مجرد أن يلامسوا أدوات الغسل، أو الماء، أو قماش الكفن، يطمئنوا إلى أنهم أحسنوا وداع العائل.

حاولوا أن يدفنوه إلى جانب الأولياء الاثني عشر بميدان أبي العباس، لكن ضيق المكان جعل أبناء الشيخ يحوِّلون اتجاه الجنازة إلى ساحة قلعة قايتباي، جعلوه لحدًا بنية تغطيته بضريح، وإفساح الأرض من حوله، بما يصنع مزارًا له جلاله.

أقحم الشيخ حتحوت الكبير نفسه على جلسات الورثة دون أن تكون له بنِظارة الوقف صلة.

حين قال أبي إن من حق الورثة أن يرفعوا على الشيخ حتحوت الكبير دعوى إساءة التصرف، ثار الورثة، وسخفوا الرأي، وإن ظل أبي صامتًا.

رد أبي على سؤالي في طريق العودة إلى البيت: أفكر في رفع دعوى لمنع الشيخ حتحوت من التصرف في أموالنا.

– لكنها أمواله هو أيضًا؟

استطرد أبي بلهجة مشفقة: هي أموال أبنائنا وأحفادنا.

وضغط على كتفي: أموالك أنت أيضًا …

أضاف لشرودي الصامت: غدًا تكبر.

عائلة المطعني هي من يشكل أبناؤها أغصان الشجرة وأوراقها، من يُلقبون بالمطعني. الشيخ حتحوت يفتقد اللقب، لا يستطيع حتى أن ينتسب إليه، لكنه — لا أدري كيف — صار ناظرًا للوقف، جعل لنفسه التصرف في الميراث، يقضي، ويبيع، ويوزع الهبات والمنح.

لم يعد الوقف ملكًا لعائلة المطعني، سلبه آخرون، العدو الصريح ربما يسهل مواجهته، أخطر الأعداء من يزعم قرابتك ليستولي على ما تملك.

نبه علاء حكيم المطعني إلى أن من يساير الغرباء، وينصرهم على أبناء العائلة، فإنه يواجه العقاب الذي يبلغ حد إهراق الدم.

تحدى أبي الشيخ حتحوت الكبير أن يمضي في تسلسل عائلته إلى لقب المطعني. استعاد الشيخ نسب السيد عمر مكرم إلى البيت النبوي، وإن اكتفى بإيراد اسمه، واسم أبيه، وأجداده الأقربين. لم يجد في انتسابه إلى الدوحة الشريفة ما يدعو إلى الريبة. هو من نسل المطعني، وإن كان في غير حاجة إلى حجج وأوراق تثبت هذا النسب.

قال أبي: نحن لا نشتري شجرة النسب من السوق، هكذا وصلت إلينا، وهكذا يجب أن نسلمها لمن بعدنا.

روى الشيخ حتحوت الكبير حكاية الشيخ كيلاني أبو السرور شيخ الطريقة السعدية. مات قبل أن يخلف أولادًا. تناثرت الأسئلة: هل يختار المريدون أحد قرابة الشيخ لوراثته؟ أو يكون الوريث، الخليفة، من بين خواص الشيخ الراحل؟ أو تظل الطريقة بلا شيخ، فتُواجه التلاشي؟

أساء الشيخ أبو السرور إلى طريقته حين جعل الكثيرين في قائمة الخلفاء، يجتذبه موقف، أو عبارة، أو تصرف. يوصي أن يكون الشخص أحد خلفائه، قاربت أعداد الخلفاء أعداد المريدين. استبدل الولاية من البيعة التي توارثت الطريقة تقاليدها، إلى إسنادها لمن يجهل أمور الدين، أعملَ في ذلك وسائل التغلب والقهر.

حدد الشيخ حتحوت الكبير تسلسل الوراثة داخل مشيخة الطريقة، تنتقل من الشيخ إلى أبنائه، يظل أكبر الأبناء نائبًا، حتى يرحل الشيخ، فيحل بدلًا منه.

حرص الشيخ — وهو يتهيأ للرحيل — أن ينقل السر إلى مكايد، أكبر أبنائه، تكون وراثة الخلافة له، وتمكين أمره، يطمئن إلى رجاحة عقله، وحسن تصرفه. لو أنه تولى المشيخة، فسيتولى نظارة الأوقاف، يتصرف بما لا يظلم بقية الورثة.

أعطاه العهد، القبضة، البيعة، وضع نظامًا لتوريث الطريقة، يقصر المشيخة على أكبر الأبناء، فأكبر أبناء الابن.

عاب غالبية أبناء الطريقة أن أكبر أبناء الشيخ الذي أوصى له بالخلافة، لم يكن أهلًا لشيء. أدركوا أن هم الشيخ هو الحفاظ على الخلافة التي ورثها بالموالسة، والوقف الذي لا صلة له به، وتوريثهما لأكبر أبنائه، قال إن الحلقات لا بد أن تتصل دون انفصام. أخطر ما تواجهه الطريقة أن تنكسر السلسلة، تنفصل حلقاتها. ذلك ما سيحدث لو لم يصبح أكبر الأبناء خليفة لأبيه من بعده. ميراث الابن لأبيه مبدأ تعارفت عليه كل الفرق. لماذا لا يُطبَّق في طريقته؟

دعا أبناء الطريقة للموافقة أن يتولى أبناء الشيخ وحفدته — من بعده — أمور الطريقة، إحياءها، ضبط المنهاج الذي تلتزم به في قادم أيامها. لأن الابن يلازم أباه منذ

الصغر، فهو الأقدر على خلافته. تعلم من أسرار الطريقة وعلومها وأورادها أكثر من سواه، شجع ابنه على مخالطة أتباع الطريقة، فيحظى برضاهم وموافقتهم. أحضر المصحف الشريف، دفع سائر النقباء والمريدين إلى إعلان موافقتهم على أن تصبح مشيخة الطريقة لمكايد أكبر أبنائه.

قال الشيخ أبو المعاطي همام: إن أوصى الإمام بوريث، على أتباعه أن يعملوا بوصيته.

وأشار بيده دلالة الرفض: لا أحقية لأحد في المشيخة من بعده إلا لمن اختاره.

قال الشيخ متولي مدكور: الوراثة حق أصيل لأبناء المشايخ.

تشابكت أصابع يديه في توتر واضح: تربوا في الصوفية، وتعلموا العلم على أصوله.

قال متولي مدكور: إنه ابن شيخنا.

قال أبي معترضًا: ألهذا اخترته؟

– حلقة في السلسلة الذهبية.

– المثَل يتحدث عن العالم الذي ربما أنجب فاسدًا.

– لا يصح المثَل في ابن لم يترك حضرة أبيه.

– لا عَلاقة للمشيخة بالأبوة والبنوة ولا انتقاص حق المرأة.

ومضت عينا الشيخ حسن وردي بنظرة متحيرة: لو أن الشيخة ذات الهمة أتمت دعوتها، ربما تغيرت الأحوال إلى الأفضل.

تساءلت في دهشة: ذات الهمة؟

– سيأتي حديثها في وقته.

قال: للذكَر — في الشرع — مثل حظ الأنثيين، لكن الكثير من المواريث تساوي فيها المرأة الرجل في الميراث، وربما يفوق نصيب المرأة — في مواريث أخرى — نصيب الرجل.

اتخذ الشيخ هيئة الواعظ من فوق المنبر، ضغط على الكلمات: حق المرأة في الميراث محصن شرعًا بآيات القرآن ونصوص الشريعة وأحكام القضاء.

وهز إصبعه في تأكيد: لم يعد حق المرأة مقتصرًا على ما يحصل عليه الرجل، إنها تفوقه في مواريث كثيرة، وتحجبه في مواريث أخرى.

وهو يغلف كلماته بنبرة تحذير: هذه نصوص في قوانين …

أطلت من عينيه نظرة مفعمة بالحزن: لكننا لا نقرأ!

ثم وهو يمسِّد جبهته بأطراف أصابعه: تساوي المرأة والرجل هو ما سعت إليه الشيخة ذات الهمة.

تحدث عن بنات من عائلة المطعني دفعن ثمن تعنت الشيخ حتحوت، وإصراره على حجب الميراث عن النساء: أعرف من تجاوزن الثلاثين دون أن يوافق الأهل على تزويجهن. خشُوا مطالبة الأزواج بحق الميراث.

جرى على أنفه بظهر سبابته: جميلة بنت الريس محمد مجاهد شيخ الصيادين ... تنازلت عن حقها في الميراث لإخوتها الرجال حتى يوافق أبوها على تزويجها!

أطلق ضحكة عصبية لم أستطع تبين ما تضمره: حرمها من حقها الشرعي والقانوني بالحصول على تنازلها عن الميراث.

قال أنيس رشوان المطعني: صابرين بنت رفيق المطعني وقَّعت على ما يفيد استلام حقها في الميراث.

وهو يداري نظرة تضمر خيبة رجاء: تنازلت البنت عن حصتها الإرثية حتى يحق لها الزواج.

وهز رأسه في هيئة المتحير: حرص أبوها أن يبقي المال والممتلكات داخل العائلة، فلا تتوزع التركة في عائلات أخرى.

# الشيخة محاسن الملقبة بذات الهمة

وجد الناس في شخصية الشيخة محاسن مشابَهة لشخصية ذات الهمة، لم تكن في الجمال الذي تحدثت به الروايات عن ذات الهمة، لكنها كانت تمتلك شخصية شبيهة بما كانت عليه الأميرة العربية، ساست ذات الهمة الأمور، ووحدت أبناء قبيلتها على كلمة سواء، استقلت برأيها حتى عن الخليفة، دون خشية من أذًى.

روى مكايد أكبر أبناء الشيخ حتحوت الكبير لأبيه ما حدث من الشيخة محاسن، وما حدث لها، حين سعت للحصول على حقوق الورثة:

عكفت على العبادة، وأداء الفروض الدينية. ظلت تتردد على مقام المرسي أبي العباس حتى استوت معرفتها، لقيت أجوبة الكثير من الأسئلة، صارت — في تقدير مريديها — مؤهلة للوقوف في مصاف أولياء الله الصالحين، لجئوا — وأبناء الحي — إلى مشورتها، استغاثوا بها أوقات الشدة، تعينهم بالمشورة والنصائح وتحديد المسارات. لم تكن تأذن بالخلاف أو التناحر، قولها هو الفصل في كل ما يثار من مشكلات، يعلو به صوتها — أو يهمس — فيرضخ الجميع لما تقول.

إذا استعصى عليها حل مشكلة ما، فإنها تلجأ إلى الصلاة، تفرد السجادة أمامها، تؤدي ركعتين، لإراحة النفس، وليس للاستخارة.

بدت لها الأمور واضحة، وأدركت أي الطرق ينبغي أن يُسلك.

حين التفتت إلى زاوية الست مدورة بنظرة ملهوفة، كانت قد وضعت تصورًا للطريق التي اختارتها.

قوة دافعة، غامضة، مضت بها إلى ميدان أبي العباس. صعِدت الدحديرة خلف الجامع، جسرًا ترابيًّا إلى الموازيني. قرأت الفاتحة للسلطان أسفل الجامع، ثم اتجهت

بكليتها إلى صف البيوت القصيرة المتلاصقة، لولا أنها تعرف موضع ضريح الست مدورة جيدًا، ربما كانت أخطأت مساحته الصغيرة.

لم تُعِدَّ الكلام الذي أزمعت أن تتوجه به إلى مقام الست مدورة، اختارتها لأنها الامتداد لنساء آل البيت، وأولياء الله من السيدات، محاسيب آل البيت يجدن صحيح الولاية في بنات الرسول، وسيدات البيت النبوي، هن المثل والقدوة لشيخات أظهرن كرامات الولاية بأقوال وتصرفات ومعجزات وخوارق: رابعة العدوية، مريم البصرية، لبابة المتعبدة، سيدات كثيرات لهن قدم كبيرة في التصوف.

قالت: أتيت لأحصل على بركتك، وليس على موافقتك.

دون أن تدير رأسها: سأنفذ ما اعتزمت حتى لو لم يكن مقبولًا!

قالت إن الرسول وضع مؤهلًا لإمامة المسلمين، هو العلم والقرآن.

هي أخلصت في حفظ القرآن، وما اطمأنت إلى صحته من الأحاديث الشريفة، وسيرة القطب الشاذلي وتلاميذه، وما تيسر لها قراءته من أذكار الشاذلي وأحزابه وأوراده، وحاولت التفقه في الدين قدر ما وسعها الفهم، اختبرت الخوف والصدق والمعرفة والشوق والأنس والجمع والتفرقة والبقاء والفناء والقبض والبسط والتأمل والتعرف والتولع.

فاجأت الجميع باندساسها في حلقة الذكر، أهملت النظرات المتسائلة، والمتطلعة، والفضولية، أخذت مجلسها دون تلفُّت، رفضت عزلة النساء في موضع مستقل. الزار هو الأقرب للمرأة. لم يتصور رجال حلقة الذكر أن تشاركهم الأداء امرأة، للشيخة محاسن قدرها ومكانتها، لكن الزار ربما أكثر ملاءمة للمرأة.

لم تنعزل عن الرجال، إنما كانت تجلس في الموضع الذي تجده خاليًا، لا يشغلها من يجلس جوارها. حصنت نفسها بحاجز غير مرئي، لرد الفضول والمضايقة. لم تجد سببًا لرفض الصيادين وجود امرأة على البلنصات في إبحارها للصيد، حتى الزوجات — رغم اشتغالهن، داخل الحلقة، بالبيع والشراء — لا يتركن الحلقة، أو يبقَين في البيوت.

حين سألت شكور الحسني ريس البلنص «سلطان البحر»، قال: وجود المرأة في المركب يصيبه بالعجز، يخاف عليها فتربكه! لماذا يطوف الحجاج ببيت الله الحرام، دون تفرقة بين النساء والرجال؟

فاجأت الحضرة بطلب الكلمة.

غالب الشيخ حتحوت الكبير تردده قبل أن تدفعه النظرات المشفقة إلى الموافقة، قالت إن بداية الحياة رجل وامرأة، واستمرارها يقوم على المرأة والرجل، وحساب المرء يوم القيامة لأنه إنسان.

قالت: أول مبادئ الشريعة تساوي المرأة والرجل في الحقوق والواجبات.

أغمضت عينيها، واستطردت قائلة: ميراث المرأة حق لها.

وُشِّيَ صوت الشيخ بتنمر: حتى لو خالف الشريعة؟!

هي ليست الشيخة محاسن التي لم تكن تترك موضعها لِصق جدران أبي العباس، دعاها إلى حضرته، شغل نفسه بتعليمها، وتربيتها ورعايتها وتنبيهها إلى الخطأ، وما ينبغي تجنبه، حتى أعاد صنعها. يعلو صوته: نسيتِ كل شيء، لا تتذكرين إلا وقفًا من اختراعك!

أطالت الحديث عن حقوق المرأة في الإسلام، صار لها حق الميراث والمتاجرة، مثل الرجل، وحق اختيار زوجها، وحق الطلاق، وحرية التصرف في أموالها. استعادت — بصوت منغم — آيات في سورة النساء، لماذا خصها الله بعلم الفرائض، وتوزيع أنصبة الخلق؟ لماذا يحلو للبعض أن يسطو — بحجج واهية — على أموال الإناث؟ لماذا يصبح مال المرأة نهبًا لصراع وهمي بين حق العائلة الميراث، وطمع الزوج في الحصول على نصيب زوجته؟

آيات المواريث في القرآن جعلت للنساء والذكور نصيبًا مطلقًا في الميراث. حبس المطعني وقفه على سلالته من بعده، لم يفرق بين ذكور وإناث. وصاية الشيخ حتحوت الكبير فرضت التفرقة، ألَّفت ما كانت تشترطه الوصية، قصرت المتن على الذكور، يبقى الإناث على الهامش.

حكايات التاريخ تروي عن الأوقاف التي خلفها نساء، عاد رَيْعها إلى الذرية من الرجال والنساء. ذكَّرَت الشيخ حتحوت الكبير بناظرات نساء على أوقاف أخرى كثيرة، بعضهن تولت نظارة الكثير من الأوقاف. أدَرْنها، تعاملن مع الورثة والمستأجرين، وقفن أمام القضاء للدفاع عن حق الورثة.

لماذا تقتصر أوقاف الرجال على الذكور دون الإناث؟

لماذا التقسيم؟

أدانت إهمال حق المرأة في الميراث، جعلها ضعيفة في مواجهة التقاليد التي تنتهك حقها، عابت على الشيخ حتحوت أنه فعل ما لم يفعله ذكور عائلة المطعني، أتاح سيطرة الذكور على أموال لا حق لهم فيها شرعًا ولا قانونًا.

قالت: ما أريده أن يتسلم كل وارث حقه عقب وفاة الموروث.

وجدت في تخصيص أماكن للمرأة في الحضرة، لا تشارك في الطقوس والشعائر التي تقتصر على الرجل، ما يقلل من مكانة المرأة، هي تطوف الكعبة إلى جوار الرجل، ويختلط الجميع في مناسك الحج، لماذا تخالف اجتهادات الطرق ما دعت إليه السماء؟

كل شيء قابل للتعديل والتغيير والإضافة والحذف، وتقديم ما لم يكن موجودًا، عدا الكتاب والسنة. عابت على كل الفرق أنها لا تقبل عضوية النساء، ترفض دخول النساء إليها. إذا لم يشهد التاريخ الإسلامي طريقة باسم سيدة، فإن طريقتها، طريقة السيدة محاسن، هي أول طريقة شيختها امرأة.

– نحن نعبد الله كآدميين، لا دخل في الأمر لذكورة ولا أنوثة.

حذَّرَت من أن عضوية الفرق الأخرى، لا تأذن للنساء بالانخراط فيها.

قال الشيخ توكل أبو عامر إن الصوفي — بطبعه — يتعاطف مع المرأة، يحرص على نصيحة الترفق بالقوارير. تحدثَت عن «الشفاء»، المرأة التي ولاها الخليفة عمر القضاء، وعن رأي أبي حنيفة في جواز تولي المرأة الحكم، وأجاز المالكية أن تكون وصية ووكيلة، وعن وجوب إنفاقها على زوجها إن عجز عن الكسب.

أزمعتْ أن تنشئ طريقة صوفية، تكون هي الشيخة، لا تقتصر الطريقة على النساء. أولياء الله من النساء لسن بدعًا ولا اختراعًا، ثمة نساء صوفيات في التاريخ الإسلامي: فاطمة الزهراء، عائشة، خديجة، نفيسة، سكينة، رابعة العدوية، وغيرهن مئات. تنسب إلى أمها فضل اكتسابها صفة المقاتلة.

قبل أن تجلس للفتيا، زارت جوامع السيدة زينب، والسيدة عائشة، والسيدة سكينة، والسيدة نفيسة، والسيدة فاطمة النبوية، ورابعة العدوية. استلهمت، واستأذنت، في السير على درب الحقيقة، تفيد الناس بما بصَّرها من علمه، وما أهلته لها القراءات ودراسة المشكلات والتأمل، من تفسير آيات القرآن، وإجلاء معاني أحاديث الرسول، وأحكام العبادات الشرعية. تميل في عظاتها إلى تخفيف أمور الدين على البسطاء.

أطلقت على طريقتها اسم «النسائية»، تأكيدًا لدور المرأة في الصوفية.

رنا إليها الشيخ طلبة قمحاوي بنظرة إشفاق: لم يحدث أن امرأة تولت مشيخة طريقة!

التمعت عيناها بالتحدي: إن كان ذلك صحيحًا، فلماذا لا يحدث الآن؟

قال الشيخ: هل هذه الطريقة لضمان حق المرأة في الوقف؟

قالت الشيخة: لن تنشأ مشكلة لو أن الجد وزَّع الوقف على الأبناء والحفدة بالتساوي، لا يفرق بين رجل وامرأة، ولا بين أسرة وأخرى.

أخفق في مداراة انفعاله:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧].

لم يُشر الشيخ إلى من يقصده بحكاياته. تحدث عن ست الغرب، أخت الزناتي خليفة، ودورها في إشعال نيران الفتنة بين بني هلال. والبسوس التي أجادت صنع الوقيعة بين بكر وتغلب. وريمة بنت عم السلطان حسن، والخيوط التي حاولت نسجها لصراع دائم بين أبناء الهلالية.

وعلا صوت الشيخ: لمنع المرأة من الميراث حكمة، الخوف من تشتت الأرض وضياع ملكيتها بدخول الأغراب مصاهرين أصحابها.

ظلت الست ذات الهمة في طريقها، العبادة والعفة والزهادة والأمل، إذا ألم بها مرض، فإنها تغلق باب حجرتها، لا تأذن لأحد بالدخول، إلا للخادم نبيهة تحمل ما تحتاجه من الأعشاب الورقية والطب النبوي، ترفض تعاطي الأدوية.

تبرأ من المرض، فتخرج إلى الناس.

ما تقوله يجاوز الحكمة، أو النصيحة، إلى فعل يُقبل المريدون على أدائه بنفوس مستريحة، وضعت لمريديها كتابًا — نسخوه — يضم صفحات كثيرة من الاستغاثات والأحزاب والأوراد، أقبلوا على دروسها وتعاليمها بنفوس راضية، تعلن لها الحب والإكبار.

لم تكن قد ظهرت على الست محاسن أمارات الولاية، كانت حياتها عادية تمامًا، حتى وافقت — في الصف الثاني الثانوي — على الزواج بجاد ربيع المدرس براتب باشا الابتدائية، أنجبا ولدًا وحيدًا. لم يعودا — من رحلة في البحر — إلى الأنفوشي، لزمت البيت — اتقاء الفتنة — لا تتركه، حين جاءها محمد عارف الموظف بالدائرة الجمركية يطلب يدها، أبدت انشغالها بما يصرف عن الزواج.

اختارها الله للولاية.

لم تتحدث عن كرامات اختُصت بها، ولا نسبت إلى نفسها أية علامة، وإن رأى الناس من كراماتها ما يعجِز عن تصوره الخيال، حتى الذي سكن جسده فظن الناس وفاته، مسحت على جبهته بأصابع مترفقة، فانتفض كمن صحا من استغراق حلم.

لكل طريقة شيخ يأخذ المريدون العهد على يديه، وهي شيخة طريقة، يأخذ المريدون العهد على يديها، لا يهم إن كانوا من النساء أم الرجال، يشاركون — دون تفرقة — في الحضرات، يمارسون السماع والإنشاد والتسابيح والابتهالات والغناء. تجد الشيخة في لقاء مريديها ما يعدل الصلاة في جماعة. استغنت — بالطريقة — عن كل ما في الدنيا من إغراءات.

جعلت من نفسها مدافعة عن حق التوزيع العادل للثروة، المنزَّل من السماء، الاعتداء على حقوق المرأة هو اعتداء على حدود الله.

خصصت درسها بزاوية الست مدورة للكلام عن رفض الشيخ حتحوت الكبير منح المرأة حقها في الوراثة. اتهمت النساء بضعف الوعي، والرضوخ لإرادة الرجل.

– نسل عائلة المطعني لا ينقطع بالنساء، نسل آل البيت أرحامه الأولى من الإناث.

حين عرض عليها عبد التواب قرني صاحب المَقْلَى أول شارع الميدان، أن يخطبها لنفسه، عاودت الرفض، ارتابت في أنه يسعى لمقاسمة نصيبها من الوقف، بعد أن جاوز الاستحالة. رفضت عروضًا بالزواج من رجال مهمين في الدولة، وتجار كبار يحركون ملايين الجنيهات، وإن قال طلبة الشيخ حتحوت الكبير إنها نسبت إلى نفسها نصيبًا في الوقف، لتظل مرغوبة في عين الرجال، لم يعد في سنها المتقدمة ما يغري، فهي تحاول تعويض المال بالجمال الذاهب.

أثار السيدة محاسن ما أقدم عليه شقيقها حذيفة التاجر بالسكة الجديدة، من بيع التنازل بالبيع عن الأرض التي يرثها، تدخلت بالشراء للاحتفاظ بحقه في ملكية الأرض: لو لم أستعد الأرض سيقلدك إخوتك، ونفقد حقنا في الميراث، لن يبقى ما نرثه.

جاوزت ذات الهمة طلب حق نساء العائلة في الوقف، إلى رفض ما يعيق المرأة عن الحصول على حقوقها، دعت نساء الطريقة إلى الجلوس في أي مكان، لا يقتصر جلوسهن على أطراف الحضرة، ذلك ما قد تحرص عليه الطرق الأخرى، لكن المساواة حرص الطريقة النسائية، من يخشى الفتنة، فإن عليه أن يخشى نفسه. عُرِف عنها شدة الضبط والمواظبة على وظائف العبادات، لا موضع في حضرة الصوفية لتصرفات تنقصها البراءة، وتصرف القلوب عن التلاوة والأدعية والذكر والتسابيح والابتهالات والسماع.

تزايدت أعداد المعتقدين في بركاتها. منعت اختراق مريديها من أتباع الشيخ حتحوت الكبير، ومن مريدي الفرق الأخرى.

قبل أن يلقى الشيخ طلبة قمحاوي وجه ربه، أوصى أن تصلي عليه السيدة ذات الهمة، قال في لهجة مستغربة: هل نرفض إمامة المرأة لأنها امرأة؟!

زال حرجها بإلحاح المصلين، وأمَّت صلاة الجنازة على الشيخ الراحل.

مضت في طريق الهداية دون وسيط. أتعبها التأمل والحيرة والدهشة في درب المجاهدة. لم تكن في حاجة تريزا إلى أبي الحجاج الأقصري، ولا فاطمة بنت بري وتبدل حياتها عقب تعرفها إلى السيد البدوي، ولا رابعة العدوية التي ألزمها الهاتف أن تغير ما كانت تعيشه إلى حياة أخرى، تقطرت سماؤها بالصفاء، سكن النور قلبها، معظم يومها تحمل المسبحة، تؤدي الصلاة في أوقاتها، تهمس شفتاها بالتهجد والأوراد والتسابيح، أخلصت للرياضات

الروحية والمجاهدات، صالت في الميادين الفقهية والصوفية، تدرجت في المقامات الصوفية من التوبة إلى المحبة، عرَف الناس أنها من أصحاب الحب الإلهي، والوجد الرباني، أقر لها المشايخ ورؤساء الفرق بالمعارف والولاية.

امتنعت عن لبس الخرقة كما يلبسها المتصوفة الرجال، وامتنعت عن لبس ما لا ترتديه النساء، لم تبدل العباءة التي كانت ترتديها منذ أدركها البلوغ، عكفت على العبادة والتبتل، تقوم الليل، وتصوم النهار. ربما فرغت إلى وردها الليل كله.

كثر حديثها — في آخر العهد بالدنيا — عن قرب الرحيل. قيل إنها حددت ميقات موتها، وماتت في الموعد الذي حددته.

قالت: إذا أردتم السير في طريقي، فهو بالحرص على ملكية الوقف، يتساوى فيه آل المطعني، لا يئول إلى سواهم.

حين زارها هاجس الموت، دعت مريديها، تكلمت عن عبر الحياة والموت، حددت كل ما يتصل برحيلها من الدنيا حتى تنزل القبر، تلفتت حولها: في هذه القاعة يتم غسلي. ثم كأنها توصي: يقتصر الحضور على أم إسكندر المغسلة، وخادمتي نبيهة، إن هُيئتُ للدفن، وُضعتُ في النعش، إذا رأيتم في جنازتي شيوخًا لم تروهم من قبل، يتصدرون المشهد، ويتلون الأدعية، فإنهم أولياء الله الست مدورة والمرسي وياقوت العرش والبوصيري ونصر الدين وكظمان، يريدون تكريمي، فالزموا الصمت، لا تقاطعوا، ولا تشوشروا. كان هداهم طريقي إلى الله. تسير الجنازة من شارع الأباصيري إلى ميدان «الخمس فوانيس»، أطلب من المشيعين، أو أدفعهم إلى الوقوف أمام جامع ولي الله علي تمراز، سبقني إلى السماء، فأحدثه عن قرب اللقاء. تواصل الجنازة سيرها إلى تقاطع شارعي إسماعيل صبري والميدان، وقفة أبنائي من المريدين هي التي تحدد سير الجنازة، نخترق شارع الميدان إلى جامع الشيخ إبراهيم. لا يحول غطاء النعش، في صعود الرجال درجات السلم، دون رؤيتي الآلاف الذين سيدفعهم الفراق إلى صحبتي، تميل الجنازة — بعد أداء الصلاة — إلى المنشية، ومنها — عبر شوارع العطارين — إلى كرموز، أشفق على تأثر تلاميذي لقرب الفراق، ليتهم يهملون تصور الكرامات، وأنا أسبق الملقن في كلماته، يهبطون بالجسد إلى الأرض، تصعد الروح — في اللحظة التالية — إلى السماء، سبقني أنبياء وصحابة وتابعون وأولياء، يحتوينا الخلد في جنات النعيم.

مدت خادمتها نبيهة إصبعيها الإبهام والسبابة، أسبلت العينين المفتوحتين، لما ظلت العينان مغلقتين، عرفت نبيهة أن السيدة ذات الهمة قد رحلت في صحبة أولياء الله.

قدمت إلى بحري جماعات من الصوفية، ينتمون إلى فرق متعددة، زادت الأعداد من لحظة إعلان وفاة السيدة ذات الهمة، أول الليل، حتى ضُحى اليوم التالي، امتلأ ميدان أبي العباس والميادين والشوارع المحيطة، صنع المريدون خيامًا حول الضريح، أقيمت الأكشاك والمصاطب، علا الإنشاد والأدعية والابتهالات والأعلام والبيارق والكلوبات، تحول المكان إلى ما يشبه المولد بباعة المصاحف وسيرة الرسول والأحزاب الشاذلية والأدعية والمسابح والبخور والحلوى وأكشاك الطهور. حتى الأشجار المحيطة بالميدان تغطت بالمريدين، يحاولون إلقاء نظرة وداع، قبل أن ترحل السيدة ذات الهمة إلى رحاب الله.

تقدم الشيخ أحمد رضوان شيخ الطريقة الأحمدية الشاذلية عددًا من شيوخ الطرق، وأئمة المساجد، في سيرهم أمام الجنازة، يحيط بهم، وبالنعش، جنازة هائلة، تتخلل الشوارع الجانبية، وتمتد إلى ميادين وشوارع بعيدة، آلاف المريدين والأتباع من بحري والأحياء المجاورة، ومن مدن خارج الإسكندرية. حلقت الطيور فوق زحام جنازتها، رفرفت على نعشها، بدَّلت بالصيحات ما يشبه الابتهالات السماوية.

تخلل النسوة زحام المشيعين، تناثرت العباءات وسط الجبب والقفاطين والجلابيب والبدل. بدا النعش زورقًا يعوم فوق أمواج البشر، حاول عساكر الشرطة تنظيم الفِرق، لكن الأعداد الهائلة ابتلعتهم.

أصرَّت الشيخة — في أثناء الجنازة — أن تزور ما كانت تسير فيه من الشوارع والأسواق والميادين، وما كانت تتردد عليه من الجوامع والزوايا والأضرحة والمقامات ومجالس العلم.

عندما رفعوا غطاء النعش، وهموا بإنزالها القبر، تضوعت رائحة ذكية، استنشقتها الأنوف في نشوة، عرف المريدون أن الجنة تتهيأ لاستقبالها، استمرت القراءة عند ضريحها أربعين نهارًا وليلة.

صنع المريدون — عقب رحيل الشيخة — ساحة باسمها في الأرض الردم المطلة على يمين الأنفوشي، توسطها مقام، مفروش بالجوخ البني، يحيط به مقصورة معدنية، غُطِّيَ جانب منها بسرادق ذي سقف يحجب الشمس والمطر.

فشت الروايات عن كرامات السيدة ذات الهمة فُشوًّا عظيمًا في الجوامع والزوايا والقهاوي والقعدات الخاصة. تقاطر الناس على مقام الشيخة، يهمسون بآيات القرآن والأدعية والابتهالات وطلب المدد، يغمضون الأعين، ثمة نسوة يستلقين على أرضية المقام، يتمرغن على التراب، طلبًا للبرء من العقم، يشممن تضوع الرائحة الذكية، يمسحن المقصورة

بأطراف أرديتهن، يتنقلن بين ملامسة الأعمدة النحاسية، وتمسيد الوجوه ببركة صاحبة المقام.

لا أحد يذكر مصدر الشائعة، نُسبت إلى خادمتها نبيهة أن نقود صندوق النذور لسعت يدها بمثل النار، لما حاولت أن تأخذها لنفسها، أغضبها ما حدث، فأذاعت أن بركات الشيخة ليست لها، شُيد المقام على أرضية مقامٍ وليٍّ عالي المكانة، وإن كتم عن الناس بركاته ومكاشفاته، حتى مات وهو في ظن الناس مجرد درويش لا حول له ولا قوة.

ظل مقصد الناس لمقام الشيخة تبركًا، وطلبًا للنَّصَفة والمدد والشفاء وتطهير الجسد والروح.

# أبتعد عن المشهد ... لأتأمله

لا أذكر كيف، ولا لماذا شغلتني الفكرة.

الهيبة تسِم هيئة الشيخ وتصرفاته، وإن حرص أن يضمِّن كلماته حكايات طريفة، أو مثيرة للاهتمام، يجيد روايتها بما يجذب الانتباه.

أمامي تاريخ يمتد إلى حوالَي القرن، مرآة صادقة، مجلوَّة، لا تنعكس فيها مشكلة الوقف وحدها، ثمة احتلال وسراي ووزارات وصراعات حزبية وانتخابات ومظاهرات وإضرابات وعنف واغتيال سياسي، ما يعرفه الرجل لا يقتصر على الحياة في بحري، إنما يشمل الحياة في الإسكندرية كلها، في مصر كلها.

سكن في عينيه شرود: إذا وافقت أن أتحدث عن الماضي، فمعنى ذلك أن لي ماضيًا وهذا غير صحيح.

قلت: لكل إنسان ماضٍ، يطمئن إليه، أو يخشى منه.

رفعت صوتي إلى آخره، لكنه ظل صامتًا، حدست أنه لم يعطني سمعه.

قلت: لا يوجد إنسان بلا ماض، كيف إذن بلغت هذا العمر؟

هز رأسه، دلالة أنه سمع.

– ليس في داخلي أسرار يُعوِزني البوح بها، لو أنك اهتممت بلقاء من يُودِعون أنفسهم أو خبراتهم أسرارًا، ربما تفيد في التقاط طرَف الخيط، البداية التي تصلنا بما هو عليه الحال الآن.

تصورت الإحساس الذي ربما خامره بأننا ننتمي إلى عالمين مختلفين.

قال موضحًا: أعني ما نسيته، وما يصعب أن يُروى، عشت الكثير من الأحداث، بعضها نسيته، وبعضها أذكره. أعرف أن الذاكرة تعيننا على استمرار الحياة، تصل ما كان بما يحدث الآن، بتوقعات المستقبل. مقاومة النسيان ضرورة لنسج الآتي.

أصارحك أني أحرص على ملاحظة ذاكرتي: هل تأثرت بتقدم السن؟ هل أدركها التآكل؟ هل تذوب في النسيان؟ هل تسلل إليها الخرف؟ متى يبدأ التداعي؟ السهو والنسيان واختلاط الذاكرة والانفعال والقلق والسمع بصعوبة وبطء الخطوات والميل إلى النوم.

وأشار بإصبعه إلى صدره، في هيئة من يقول اعترافًا: لم أعش كل ما رويته، إنما اقتصر دوري على السماع أو المشاهدة. ثمة صور مثل الومضات تبدو في الذاكرة جيدًا، لكنها تنفصل عما قبلها وبعدها، لا شيء يسبقها أو يلحقها، قد تُبقي الذاكرة ما لا نحتاج إلى تذكره، بينما تغيب وقائع مهمة تصورت — لحظة حدوثها — أنها ستظل قائمة.

النظرة إلى الماضي باعتباره زمنًا جميلًا ليست حقيقية في كل الأحيان. لم يكن الماضي طيبًا كله، ولم يكن سيئًا كذلك كله، هو مثل الزمن الحالي والأزمنة السابقة، له ملامحه الثابتة والمتغيرة.

لأن الوقائع اختلطت، فسأبذل جهدًا كي ألتقط الصحيح، ما يعاني الظلال والعتمة. تاريخ الإسكندرية في ملصقات الشوارع: الاستقلال التام أو الموت الزؤام ... نريد الخبز بدل السلاح ... الجلاء ... خرجت الطهارة من بيت الدعارة ... مصطفى النحاس زعيم الأمة ... فلسطين تدعوك إلى إنقاذها ... يسقط فيفي وحافظ عفيفي ... الحجاب زينة المرأة ... أين أمك يا فاروق؟

سنة مولدي هي بداية تعرفي إلى كلمة «ثورة»، وُلدتُ بعد عامين من قيام ثورة ١٩١٩م. عرَفت معنى الحدث بعد أربعة أعوام، أو خمسة. وعيت على مظاهرات الطلبة في ١٩٣٥م، لكنني كنت أصغر من أن أشارك فيها، ربما كنت شاركت فيها لو أني جاوزت الصبا، تابعت — من أحاديث أبي وأصدقائه — تطورات الأحداث: ما كادت مظاهرات الطلبة تعبر كوبري عباس، حتى واجهها عساكر الإنجليز بالمدافع الرشاشة. أصيب الطالب محمد عبد المجيد مرسي بأربع رَصاصات، أخرج من جيبه مِنديلًا، بلله بدمه ودفعه إلى أحد زملائه قائلًا: تذكروا هذه الدماء. مات الطالب — بالفعل — فور نقله إلى مستشفى قصر العيني. استُشهد الطالب محمد عبد الحكم الجراحي لغضبه على جريمة الإنجليز. قتله ضابط إنجليزي على بعد خطوات من المكان الذي سُجِّيَ فيه جثمان زميله. في اليوم التالي، سارت مظاهرة في شوارع القاهرة، تضم أكثر من خمسة آلاف مشيع، تقدمهم النحاس ومكرم عبيد وصدقي ومحمد محمود. حتى طالبات المدرسة السَّنِية شاركن بالهتاف والبكاء والنواح. أذكر ما كنت أردده، دون أن أعرف السبب جيدًا: «رفعت العلم يا عبد الحكم ... يسقط هو ابن الطور ... الاستقلال التام أو الموت الزؤام.»

عشت إذن ثورة ١٩٣٥م، وإن لم تكتسب التسمية، فثورة ١٩٥٢م، وها أنا أعيش في ظل ثورة جديدة.

لم أكن جاوزت السادسة عشرة عندما توفي الملك فؤاد، استقر في وعيي ما كنت أسمعه من أبي وناس قريتي عن دكتاتورية الحكم في فترة فؤاد، ذي الشارب المميز، والجسد الممتلئ، وحكايات ظروف زواجه من نازلي، وإصابة الرصاصة في الحلق، أطلقها عليه — بسبب صراعهما العاطفي — الأمير سيف الدين.

أول ما أذكره حوار بين أبي وجار لا أذكر اسمه، اختلفا حول الصراع بين الملك فؤاد وسعد زغلول. مصطفى النحاس خليفة لسعد زغلول. بدا على أبي ارتياح وهو يطل من النافذة على الحركة البطيئة في الخلاء الممتد قبالة البيت.

أضاف في صوت لين: عرَفت الرجل منذ أيام مصطفى كامل، كان خير عون للزعيم الشاب قبل أن يختطفه الموت، النقاء أصدق صفة للنحاس، كان بعيدًا عن أخلاق الساسة من ميل إلى المراوغة والتآمر.

أذكر أبي وهو يدفع لي بنقود: هذا ما أستطيع أن أقدمه، دبر نفسك.

حدجني بنظرة، قال فيها أشياء كثيرة: حاول أن تكتفي بهذا المبلغ.

وفي لهجة محايدة: في مثل سنك كنت أنفق على نفسي.

لم يكن الفرق بين السنة الهجرية والسنة الميلادية مما درسناه في المعهد الديني. انتبهت إلى المعنى في الفتوى التي أضافت سبعة أشهر إلى عمر الملك فاروق، تولى الحكم — دستوريًّا — في الثامنة عشرة، تُوج ملكًا بفتوى للشيخ المراغي، أهلته للحكم بالتقويم الهجري، بزيادة أيام العام الهلالي عن أيام العام الميلادي.

في يناير التالي، أعطى المعهد طلابه إجازة لمناسبة زواج الملك فاروق وفريدة. أثنى الشيخ حتحوت الكبير على الزواج المبكر، وجد فيه حماية للملك، لدينه ولنفسه، أضاف نصيحة بأن نتزوج متى أمكن أن نؤسس أسرة.

همس الشيخ ياسين الحاموني في أذني: هل أصحب زوجتي إلى مقابر العمود طلبًا للرحمة والنور؟!

كان فاروق يكبرني بعام، وكانت فريدة من مواليد العام الذي ولدت فيه. بدل الملك اسم عروسه إلى فريدة بدلًا من صافيناز، اسمها الحقيقي. أراد أن يبدأ بحرف الفاء مثل اسمه وأسماء أبيه وأخواته وبناته.

حين أطلقت السيدة صرخة مكتومة، وسقطت، كنت خلفها، مدفوعًا بحركة السير في شارع الميدان، ما حدث كأنه الومضة، أعقبها شرر ناري، هبط السلك الناري الضخم على

كتفها، أطلقت صرختها المكتومة، ثم لم تعد في الدنيا، هزني الموت المفاجئ لسيدة كان يفصل بيني وبينها متر أو أقل، الخطوات السريعة توقفت، تلاشت الحركة، حل السكون، الهمود يعلن غياب الحياة. كنت في العشرين من عمري أو أقل. بدا لي الموت شيئًا غريبًا، قاسيًا، رغم ما اقتحم حياتنا من أحاديث الغارات الألمانية وصفارات الإنذار والكشافات والمدافع المضادة للطائرات والمخابئ والبيوت المهدمة في البياصة وباب سدرة، والشعارات — بالبوية أو الطباشير — على الجدران.

خبَت التوقعات، تلاشت تمامًا، حين أعلن هتلر — عقب دخوله بولندا — أن الحرب لن تنتهي إن استمرت سبع سنوات. انعكس تأثير الكلمات في تصرفات الناس. استمعت إلى أسماء ومسميات ومصطلحات، لا أعرف غالبيتها، وإن شكلت تكوينات في مشهد الحرب: الكشافات، المدافع المضادة للطائرات، المحور، الحلفاء، سقوط باريس، الطابور الخامس، المخابئ، ستالينجراد، زوكوف، طوكيو، الباسفيك، بيرل هاربور، البونكر، الميريلاند، العلمين، روميل، مونتجمري، هيروشيما، نجازاكي.

خلا الكثير من البيوت المجاورة، نقصت سلع، وارتفعت أسعار سلع أخرى، عانينا القلق من صفارات الإنذار، والكشافات السابحة في السماء، وأصوات المدافع المضادة للطائرات، والفرار إلى المخابئ، لكن إيقاع الحياة لم يتغير كثيرًا.

كنا نشعر بالحرب، بتأثيراتها، وإن غابت صورها المدمرة. عدا إلقاء طائرات الألمان قنابلها على مواقع متناثرة في القاهرة والإسكندرية، فإن الله رحم عباده المصريين.

اختلفت الروايات في الدمار الذي أحدثته الطائرات الألمانية في باب سدرة وكرموز والبياصة والورديان والعطارين، رجحت غالبية الروايات ميل البعض للتهويل، أزمعت ألا أصدق غير ما يذيعه الراديو، وتنشره الصحف.

حتى الآن، تومض في ذاكرتي صور ثابتة، وعابرة، الظلام والغارات وطلقات المدافع وصفارات الإنذار والمخابئ، الستائر المسدلة، الأضواء الشاحبة، نداءات الدفاع المدني، الزرقة التي تغطي نوافذ البيوت ومصابيح السيارات، ووضع قطع لاصقة على حواف الشبابيك. حتى الإضاءة الليلية تلاشت من مآذن المساجد، فلا تميزها الطائرات المغيرة. امتلأت الشوارع بوجوه لا حصر لها، حمراء وصفراء وسوداء وبيضاء، وتناثرت لغات نفهم بعض مفرداتها، أو تبدو غريبة تمامًا. ازدهرت المواخير والحانات في اللبان، والكازينوهات في امتداد الكورنيش، تناثرت زجاجات الخمر على جانبي الأرصفة، الأقوال والمناقشات والشائعات تتهامس — وتعلو — في المساجد والزوايا والقهاوي والأندية والأسواق. أديرت الإسكندرية — بصورة فعلية — من معسكرات الإنجليز في كوم الدكة، تخلت بلنصات

المينا الشرقية عن أماكنها للسفن الإنجليزية، علت المدافع أسطح البنايات العالية، صار مسح الكشافات للسماء جزءًا من ليل الإسكندرية، اشترى أهل بحري من سوق راتب وشارع الميدان ما باعه الجنود الإنجليز وجنود الحلفاء للتجار من علب البولوبيف والجبن الشيدر والسجائر والبسكويت المغلق والشيكولاتة واللبان الأمريكي. ارتفعت الأسعار إلى ثلاثة أمثالها، عانى الناس — نتيجة السوق السوداء — نقص المواد الغذائية والضرورية: الخبز والزيت والسكر والجاز والمنسوجات. راجت سوق بيع بطاقات التموين والبضائع المغشوشة، عيسى البرتقالي تاجر الأقمشة في شارع فرنسا قصر بضاعته على بطاقات التموين، ليفيد من تنازل أصحاب البطاقات عن حصصهم، باعها بثمن مضاعف. وجد مختار عبد العال (المريد بالطريقة) — في بيع مخلفات المعسكرات الإنجليزية برأس التين ومصطفى باشا — ما ينسيه مواعيد الحضرة. اعتادت عيناي رؤية لافتات على واجهات الشقق «إيجار قديم قبل الحرب»، تعالت الدعوات في المساجد ليحمي أولياء الله المدينة من الغارات، زادت أعداد المصلين وزائري المقام في أبي العباس، يطلبون الغوث والشفاعة، حسب الناس سقوط طوربيد ألماني في البحر — بدلًا من سقوطه على المدينة — على بركات سيدي أبي الدرداء. عرَف بحري — مثل بقية الأحياء والمدن — ظاهرة أغنياء الحرب، لاتصال الحي بالميناء والجمرك والاستيراد، بدت الظاهرة واضحة، وكانت ظروف الحرب — فيما أقدِّر — سببًا في تحول بنات أسر إلى بغايا، يلتقين على رصيف الكورنيش بمن يصحبهن في سيارته. علقت بذهني أسماء: هتلر، موسوليني، المحور، بيتان، ستالين، الحلفاء، روميل، العلمين، مونتجمري، نورماندي، تشرشل، زوكوف، ديجول، بيرل هاربور، جنود الكومنولث، التنظيمات السرية، ستالينجراد، هيروشيما، نجازاكي، إلى الأمام يا روميل، أربعة فبراير، هيس، الأرصدة الإسترلينية.

فكرت في أن أهاجر — مثل الكثيرين — إلى شرنوب، أصحب زوجتي وزين العابدين، أول من أنجبناه، إلى القرية، حسمت ترددي بالبقاء في الحي الآمن ببركات أولياء الله. كانت وظيفتي في أول أيامها بعلي تمراز، خشيتي من فقدها تغلبت على الخوف من غارات الألمان.

ما روي عن الطوربيد الذي صعِدت يد أبي الدرداء من قبره تلتقطه، قبل أن يسقط على الإسكندرية، وتقذف به في البحر، كان سببًا في ترك مقام ولي الله وسط الميدان، لا يُزال من موضعه، وتحيط به الشوارع والبنايات.

رفع صوته ليتغلب على الصياح المفاجئ للأولاد: قدم إلى الإسكندرية، وإلي مدن مصر، آلاف اللاجئين من مدن أوروبا، ملوك وأمراء وساسة ومفكرون. في ذاكرتي قول السفير البريطاني كيلرن: إن مصر مقلب عامٌّ للاجئين السياسيين.

أذكر رياح الخماسين التي أثارت الأتربة في الشوارع والحواري عندما أُعلِنَ عن دخول القوات الروسية برلين، في ٣٠ إبريل ١٩٤٥م إشارة لهتلر حتى ينهي حياته بيده. قتل نفسه، وقتل زوجته إيفا براون.

لاحقتني الإذاعات في سيري بشارع الميدان، تبث خبرًا واحدًا في لحظة واحدة: توقيع استسلام ألمانيا في الحرب.

ما كنت أستغرب لو أن رواة السير الشعبية في خيام ميدان أبي العباس تكلموا عن الحاج هتلر — أو «هلتر» كما كانوا يسمونه — كواحد من الأبطال الشعبيين. عرَف الناس أن هتلر لم يكن مسلمًا، ولا أدى فريضة الحج، هو واحد من الذين ابتُلي العالم بنيران حروبهم.

كنت أقرب في آرائي إلى الوفد، لكنني حزنت لاغتيال أحمد ماهر. منح محمود العيسوي نفسه مهمة إعدام الرجل، نيابة عن الشعب المصري، وجد الشاب في إعلان أحمد ماهر الحرب على المحور — رغم أن نهاية الحرب بدت وشيكة — خطأ يبلغ درجة الخيانة، قتله في البهو الفرعوني بمبنى البرلمان. كانت المعارضة قوية ضد الإنجليز، ومن يحالفونهم.

لماذا لم يُعطِ العيش لخبازه، فتزيح المعارضة حكومة ماهر دون اغتياله؟

آخر ما بقي في الذاكرة من أحداث الحرب العالمية، إسقاط قنبلتين ذريتين على هيروشيما ونجازاكي، الدافع إلى ما حدث أقسى من الحدث نفسه، قُتل في الغارتين عشرات الألوف من اليابانيين، بينما كانت طوكيو تتأهب للتسليم. كانت قد هُزمت في الحرب بالفعل، لكن الرئيس الأمريكي ترومان أراد أن يجرب السلاح الذي حصلت واشنطن على أسراره من العلماء الألمان.

عندما نجح الاتحاد السوفييتي في تفجير القنبلة الهيدروجينية، عرَفت أن السلاح النووي لم يعد مقتصرًا على الغرب.

ماذا كان سيصير إليه العالم لو أن ألمانيا سبقت إلى تفجير القنبلة الذرية؟

هل كانت سيطرة الألمان هي الأخطر على العالم؟

تململ في جلسته، وتثاءب. أضاف دون أن تتغير نبرة صوته: مضى المشهد في لحظات، لمحته في وقفتي على مدخل علي تمراز، لكنه ظل في الذاكرة، لم يتركها حتى الآن: قفز الشاب ذو الأفرول الرملي والقدمين الحافيتين إلى سيارة نقل تابعة للجيش الإنجليزي، قذف ما بها من صناديق مغلقة إلى زملائه في جريهم خلف السيارة. تنبه السائق إلى ارتطام الصناديق بالأرض، أوقف السيارة وسط الطريق. مال من ناحية إسماعيل صبري

إلى ميدان «الخمس فوانيس». اخترق المصلين في قعودهم على الحصير، المسدس يحميه من ردود أفعالهم. أخفق في الوصول إلى الشاب، فر من الباب المغلق إلى رأس التين.

مضى المشهد كومضة، الارتباك أفقد المصلين القدرة على التصرف، حتى الإمام تلعثمت كلماته. عاد السائق إلى سيارته، مضى ناحية طريق الكورنيش. إذا فرض العجز سطوته، فلا قيمة لأي شيء. أطال الإمام — اسمه فيما أذكر عبد السلام الشاذلي — خطبة الجمعة يومها حتى قرب العصر، قوة غريبة أنطقته ضد الاحتلال الإنجليزي.

صميدة فتوة السيالة مريد صوفي، لاذ بالجامع، فرارًا من مطاردة الإنجليز، سرق صندوق طعام من سيارة نقل، لم يجده الجنود في صحن الجامع، أخفيته في حجرتي.

شكَّل الفتوات — لسنوات طويلة — قسمات الحياة في الإسكندرية، تراوحت أفعالهم بين الخير والشر، فتوة الشارع يختلف عن فتوة الصوفية، بحري — كما تعلم — بيئة حاضنة للصوفية، فتوة الصوفية يدافع عن الكرم والنبل والسخاء ومحبة الغير، وإنكار الذات، وإيثار الخلق على النفس. أداته الكلمات الطيبة، والإفادة من القرآن والأحاديث وأقوال العلماء. أما فتوة الشارع فأدواته الشومة والسيف والبلطة والسكين والمطواة، يهاجم للابتزاز، والاعتداء على المال والنفس، وسرقة ما ليس من حقه، والدفاع عن الباطل.

الذروة بداية الانحدار، صارت سلطة الفتوات في سني الحرب موازية لسلطة البوليس، وربما أقوى، لما انتهت الحرب صار زوال الفتوات أمرًا مقضيًّا. حتى حي البغايا في اللبان أُلغي بلا مقدمات، عقب نهاية الحرب. كانت الفتونة — رغم إعجابي بالقلة من الفتوات الحقيقيين — مرادفة للبغاء، أغلق كوم بكير أبوابه، فكسدت الفتونة حتى التلاشي.

بدأ انحسار جنود الحلفاء والكومنولث من شوارع الإسكندرية. أسر كثيرة، أعرف أربابها، يترددون على درس المغرب في علي تمراز، عاد أفراد منها كانوا يعملون في معسكرات الجيش الإنجليزي، عرَفت بتوجه أعداد منهم إلى معسكرات القناة، سعيًا للعمل فيها.

رغم الهدوء الظاهري للأحداث، فإن نذر الفوضى كانت واضحة من خلال تعدد التنظيمات السياسية، المعلنة والسرية، وعمليات الاغتيال الفردي، والغلاء المتصاعد، وتفشي ظاهرة أثرياء الحرب، مقابلًا لتفاقم مشكلات الطبقات الفقيرة، وزيادة أوضاع الموظفين سوءًا. تردد على حجرتي بعلي تمراز شبان، همسوا بتحيرهم بين التيارات السياسية القائمة، أيها الأصلح: الوفد، أم السعديون، أم الأحرار الدستوريون، أم الاشتراكيون، أم الشيوعيون، أم الإخوان المسلمون؟

تيارات متعارضة، وإن توحدت في إدانتها للفساد.

إذا كانت كل التيارات تُدين الفساد، فمن الذي يصنعه؟!

صار الثراء هدفًا للكثيرين، بصرف النظر عن الوسائل. كان اتحاد الصناعات تجسيدًا لتحالف الاحتكارات الرأسمالية المصرية والأجنبية. في ١٩٥٢م بلغ عدد أعضائه ٤٧ عضوًا من كبار الرأسماليين المصريين والأجانب.

مال بعنقه، عالج مقبضي النافذة وراءه، دخل الضوء الحجرة، تعلق به ذرات غبار.

وهو يعتدل في جلسته: ظني أن فصل مكرم عبيد من الوفد كان واحدة من نتائج الوقيعة التي نسج خيوطها الملك فاروق، انتقامًا لحادثة ٤ فبراير، جعل النحاس خصمًا، حاربه بإفساد العَلاقة بينه وبين مكرم.

ابن سعد في رحاب الملك؟!

من كان يصدق أن توأم النحاس ينفصل عنه في تلك الصورة القاسية الغريبة، يتحول إلى أعدى أعدائه، بدت لي تصرفاته — عقب خروجه من الوفد — أقرب إلى ردود الأفعال الانفعالية: الكتلة، الخطب المستعرة، الكتاب الأسود.

أُعجِبتُ بمواقف مكرم عبيد السياسية، نضاله إلى جانب سعد زغلول مع أفندية ثورة ١٩١٩م: النحاس والنقراشي وأحمد ماهر وإبراهيم عبد الهادي. ابن سعد تسمية يستحقها، لكنه بدَّل نظرة الكثيرين إليه حين أصدر الكتاب الأسود يهاجم حزب الوفد الذي كان من أهم قياداته.

لم أعلن تعاطفي مع اتحاد الطلبة والعمال الذي كان عنوانًا للمقاومة، وإن تابعت أنباءه، وتمنيت أن يسير في الطريق إلى نهايتها.

وهو يمسد جبهته بأطراف أصابعه: أذكر ما داخلني من حزن لجلسة الإمام البنا إلى جوار إسماعيل صدقي، قبل مأساة ٢١ فبراير ١٩٤٦م، استُشهد وأصيب أكثر من مائتي طالب تظاهروا للمطالبة بالجلاء.

تناهى أذان الظهر من موضع قريب، ربما جامع أبي العباس، أو جامع الموازيني، أو زاوية خطاب.

قال في لهجة متأثرة: عدا الجمعة، لم تعد صحتي تساعدني على أداء الصلاة جماعة في الزاوية.

وأومأ برأسه ناحيتي: هل أنت على وضوء؟

تساند على ذراعي حتى اطمأن — عقب الصلاة — إلى جلسته.

الأزهر! …

يعاودني الشعور بأني تخرجت في معهد للمعرفة الدينية والوطنية.

خرجت القاهرة في مظاهرة حاشدة، تهتف بالجلاء، ووحدة وادي النيل. حمل المتظاهرون جثمان أول شهيد في علم مصر، طافوا شوارع القاهرة، ثم انتهوا إلى ساحة الأزهر، هو دور الأزهر منذ الثورة على حملة نابليون. إذا كانت الحكومات قد أفلحت في إضعاف الحركات السياسية المعارضة، فإنها لم تستطع أن تواجه الإسلام، مسلمو مصر يؤمنون بدينهم.

في التاسع من فبراير ١٩٤٦م أمر النقراشي بفتح كوبري عباس على الطلبة المتظاهرين ضد الاحتلال، سقط العديد من الطلبة في النيل، تواصلت المظاهرات في اليوم التالي.

اعتاد الطلبة وقوف أحدهم — في الطرقة المستطيلة بمدخل بيت المسافرخانة — يهتف بأعلى صوته: مظاهرة! يتقاطر الطلبة على الساحة، وعلى السلالم إلى الباب الخارجي يرددون الهتافات ضد الملك وأحزاب الأقلية. يضع الطالب إصبعين في فمه، ويطلق صفيرًا، يندفع الطلبة نحو الباب الحديدي، ومنه إلى الطريق. تمضي المظاهرة من المسافرخانة إلى شوارع بحري، ثم إلى طريق الكورنيش، حتى ميدان المنشية، أو محطة الرمل، ترفع اللافتات والشعارات، تردد الهتافات المعارضة، ثم تعود.

أقسى ما أذكره من تلك المظاهرات، مقتل الطالب بشير عبد الصمد — أذكر اسمه جيدًا — برَصاص العساكر. كنت أقف على السلمة الأولى أمام زاوية خطاب. أمامي حشد الطلاب يهتفون: الاستقلال التام أو الموت الزؤام. غالبت التردد أمام حشود المتظاهرين، والاندساس في الأجساد المتلاصقة، والقبضات الملوحة والهتافات. فاجأنا العساكر في مقدمة الصفوف بكعوب البنادق، يوجهونها إلى أجساد المتظاهرين، يختارون الموضع الذي تنهال عليه الضربات. تلقوا الأمر بالضرب، فهم ينفذونه, انبجست الدماء، تطاير نثارها، علت الصرخات والتأوهات. محمود عابد الذي كان يقف في السلمة العليا، تأوه، وسقط، رصاصة وحيدة — لا أعرف مصدرها — قتلته، لا أعرف حتى كيف انطلقت، ولا من صوبها. كانت أيدي العساكر تحمل الهراوات والمصدات الحديدية، ربما انطلقت الرصاصة من مسدس أراد صاحبه أن يجبر الطلاب على فض المظاهرة.

أغلقت عيني، شردت، استدعيت أحداثًا كنت أتصور أني نسيتها، واضحة وشاحبة، اختلطت فيها الملامح والقسمات. حدث الكثير من الأمور التي يصعب فهمها.

قلت للشيخ: أعرف أنك قبلت الخِلع والهدايا التي حاول بها الملك استمالتك.

– قبلتها حتى لا أمنع عن الخدم رزقًا أرسله الله لهم!

لاحظت ما يشبه الاستياء في نظراته، فسكتُّ.

اغتصب ابتسامة: هل أبيع آخرتي لأجل خِلعة الملك؟

دون أن تذوى ابتسامته: أجمل ما أذكره أنه حين مال الموكب من شارع إسماعيل صبري إلى ميدان «الخمس فوانيس»، علت الهتافات ضد الملك.

شردت، اختلطت في ذهني صور غير مترابطة من رفع الأذان وخطب الجمعة وصلاة العيد وليالي رمضان والتواشيح وسوق العيد.

اتجه ناحيتي بنظرة مشفقة: لا تفتش عن الاحترام في تصرفات الآخرين.

حدجني بنظرة طويلة، كأنه يريد التعرف إلى رد الفعل: يحترم المرء نفسه أولًا!

– هل فصلك الإخوان لقبولك استقبال الملك؟

– لم أكن عضوًا في الإخوان فيحق لهم فصلي.

– ظننتك كنت عضوًا في الجماعة؟

وضع يده على أذنه، يستوضح الكلام: حين وبَّخني صديق لرفضي الانضمام إلى الإخوان المسلمين، قلت: أنا مسلم على مبادئ الكتاب والسنة، وليس على مبادئ الإخوان.

ولاح في صوته أسًى: أخذ الإخوان من الصوفية السمع والطاعة، ثم اختاروا السير في طرق مغايرة.

قطع كلماته، والتفت ناحية الباب. اندفع الأولاد من الصالة إلى خارج البيت، على تناهي صوت زمارة. افترَّ فمه عن ابتسامة مشفقة: جرَوا لغزل البنات وبراغيث الست.

أضاف بلهجة مستطردة: الصوفي يحاول الفناء في الله، أما الإخواني فلا بد أن يفنى في الجماعة.

حدجني بنظرة متفحصة، كأنه يريد التأكد من استيعابي ما قال: حرصت أن أظل خارج الأحزاب السياسية.

قلت منبهًا: الجماعة ليست حزبًا.

– ما دامت قد شاركت في العمل السياسي فهي حزب.

رفع النظارة الطبية من عينيه، مسح زجاجها في كم الجلابية الواسع: كنت مطمئنًّا إلى قول حسن البنا، إن الحزبية قد تجوز في بعض البلدان، لكنها لا تجوز في مصر، وإلى دعوته لتوجيه القوى نحو الصف السياسي الواحد.

ثم في نبرة تأكيد: حرصت أن أظل واعظًا.

شيء ما في نبرة صوته أقلقني، أحسست أن في أعماقه شيئًا يريد قوله، أومأت برأسي.

– لو أني رأيت من أهل الحكم ما هو في صالح الناس، كنت سأشكرهم عليه ... لكنهم أسرفوا في الظلم، فكان واجبي أن أردهم في خطبي. حفظت الأسماء التي كنت أرددها: أبو بكر، عمر، عثمان، علي، عمر بن عبد العزيز، وأسماء أخرى رأيت فيها مُثُلًا للعدل.

سري التهدج في صوته: أنا أعترف بحق الحاكم إن اعترف بحقي كمواطن.

داخلني قلقٌ لِمَا أُذيعَ من أنباء في مطالع ١٩٤٨م: اغتال الإخوان القاضي أحمد الخازندار رئيس محكمة الاستئناف بالقاهرة، قيل إنه لم يمتثل لتهديدهم بالتخلي عن نظر قضية محاكمة أعضاء في الإخوان، ضُبطوا أثناء محاولة تفجير نادي الجيش الإنجليزي في الإسكندرية، كما أقدم الإخوان على سلسلة تفجيرات لشركة الإعلانات الشرقية ومحال اليهود الكبرى، وحدث انفجار ضخم في حارة اليهود.

حرب فلسطين.

رفض العرب قرار التقسيم، لرفضهم مبدأ الدولة اليهودية على أرض فلسطين، أو لثقتهم في أن القضاء على الحلم الصهيوني لا يحتاج إلا إلى تجريدة عربية تفرض سيطرة الشعب الفلسطيني على كامل أرضه، وظلت تسمية أرض إسرائيل بالدولة المزعومة، حتى صار الزعم حقيقة بمساندة الولايات المتحدة ودول أوربا، بما فيها الاتحاد السوفييتي، فضلًا عن الضعف والعمالة والخيانة في مواقف الزعامات العربية.

مشكلة القضية الفلسطينية، أن معظم المشتغلين بالعمل السياسي لم يفهموها فهمًا صحيحًا. ساءني تهوين الأمور بصفات مثل العصابات الصهيونية، ودولة إسرائيل المزعومة. تناسينا الاحتلال الإنجليزي لمنطقة القناة، والدور المشبوه لسفارة قصر الدوبارة، وتطلع الأمير عبد الله لضم الضفة الغربية بفلسطين إلى إمارة شرق الأردن، وقيادة جنرال إنجليزي للقوات الأردنية، والخيانة المعلنة لنوري السعيد رئيس وزراء العراق. فصل أقطار المشرق العربي عن أقطار المغرب لا يقل في خطورته عن احتلال فلسطين. إنهاض الوطن العربي صار أمنية مستحيلة، خنَقه حتى الموت احتلالُ اليهود فلسطين، واتساع الخطر الصهيوني إلى آفاق كانت غائبة.

أعد اليهود لكل شيء جيدًا، بينما اكتفى العرب بالشعارات الزاعقة، لا قيادة حقيقية، ولا استعداد، ولا تنسيق. الخطأ الأكبر تولي الأمير عبد الله حاكم شرقي الأردن قيادة الجيوش العربية. أفرز الخطأ — بتوالي الأحداث — نتائجه السلبية الخطيرة، أذكر منها ضياع اللُّد والرَّمْلة في أعقاب مغادرة القوات المصرية لها، بطلب من الأمير الأردني. لكن الحرب شكلت حدًّا فاصلًا بين ما سبق وما لحق، الهوية المصرية والهوية العربية، معاداة الاستعمار الأجنبي، معاداة الاستعمار الذي يصر على التوطن، جيش المحمل والجيش الذي حارب في فلسطين، وعانى المؤامرات والأسلحة الفاسدة.

توالت قرارات مجلس الأمن بإيقاف المعارك لهدنة أولى، وثانية، وثالثة، انتهت جميعها إلى ابتلاع الإسرائيليين مساحات هائلة من الأراضي، كانت في حوزة الجيوش العربية.

هل كانت موافقة الحكام العرب على تلك القرارات اختيارًا للسلام، أو عجزًا؟

لعل المعنى الثاني هو الصحيح. دول الغرب لا تتدخل بقرارات مجلس الأمن إلا إن كانت في صالح إسرائيل، المراجعة المتأملة لكل ما أصدره المجلس من قرارات يسهِّل تعرفها إلى القوى المدبِّرة.

لا أنسى كذلك ما فعله فاروق، من حق الملك أن يطلق زوجته، فهو بشر، لكن التوقيت خطأ، الجيش المصري يحارب في فلسطين، وقائده الأعلى مشغول بتطليق زوجته. لو أن المولود الذكر الذي أنجبه الملك فؤاد من زوجته الأولى شويكار ظل حيًّا، ربما كان قد تغير تاريخ مصر الحديث.

افتقدتُ وجوهًا أَلِفتها في صلاة الجمعة بعلي تمراز، أو في جيران المسافرخانة، ثلاثة — أعرفهم شخصيًّا — طلبوا إجازة من عملهم كضباط في الجيش، للقتال في فلسطين.

لم أكن من الإخوان المسلمين، لكنني طلبت أن أنضم إلى كتائبهم في فلسطين، رفضت حكومة النقراشي سفري. كانت لي آرائي المؤيدة والرافضة والمتحفظة، أضمنها خطبي، أنتقد سياسة الدولة، آخذ عليها ما تصدره الحكومة من التشريعات والقوانين، لا صلة لي بأحزاب ولا تنظيمات، قلت: هذه حكومة فاسدة، إذا سكتنا عنها فنحن نوافق على فسادها، وقلت: الساكت عن الحق شيطان أخرس.

أعدتُ — في خطبة الجمعة — جوانب مما قرأته عن الشهيد أحمد عبد العزيز، تأثرتُ — ولم أستبعد الخيانة — لمصرعه، بدعوى عدم نطق كلمة السر، طلبت من المصلين أداء صلاة المغرب على روح الشهيد، كما طلبت — في يوم جمعة آخر — أداء صلاة الغائب على روح الشهيد الفلسطيني عبد القادر الحسيني.

التقطت نظرة الإشفاق في عينَي إبراهيم الهواري صاحب فرن التمرازية، وهو يمد يده بالمصافحة عقب الصلاة: أعطيت أحداث فلسطين في خطبتك أكبر من حجمها. نقلت الصحف تصريح رئيس الأركان بأن الأمر لن يزيد عن نزهة!

توحدت ردود الأفعال في مناصرة الشعب الفلسطيني، وإن تباينت ما بين النظر إليها كمأساة شعب شقيق، واعتبارها — من وجهة نظر أكثر اتساعًا — متصلة بالأمن المصري.

أجد في قول فؤاد سراج الدين بأن دفاعنا عن فلسطين إنما هو دفاع عن مصر نفسها، نظرة صادقة للمشكلة، لكن استعداداتنا للحرب لم تكن في مستوي تلك النظرة.

قال بيجن: لولا دير ياسين ما قامت إسرائيل. جرت عمليات تعذيب وتشويه وسحل، وبقر لبطون الأرحام وقتل للأجنة، أُعدم خمسة وعشرون من الرجال بالرصاص، وشُوِّهت جثثهم، أُلقيت الجثث في بئر، استُشهد مائتان وستون من أبناء القرية.

لا أعرف كيف يسمي اليهود أنفسهم شعب الله المختار، هل لسجلهم الحافل بالجرائم؟!

اغتيل رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي، قتله عضو الجماعة عبد الحميد أحمد حسن الطالب بكلية الطب البيطري. أصدر النقراشي أمرًا عسكريًّا بحل جماعة الإخوان المسلمين، انتقامًا لقتل أفراد في الجماعة حكمدار العاصمة، شمل القرار كل تنظيمات الجماعة وشعبها وفروعها، والمؤسسات التابعة لها، ومصادرة ممتلكاتها، وما بحوزتها من أموال، واعتقال أعضائها، وفصل موظفي الدولة والطلبة المنتمين لها.

تمنيت لو أن الإمام البنا قصر لومه على القاتل، وحتى على التنظيم السري لعبد الرحمن السندي، لكن لومه شمل من لم تؤكد التحقيقات مشاركتهم في عملية الاغتيال «ليسوا إخوانًا، وليسوا مسلمين». ربما هو إشفاقه من الضغط الحكومي على مصير الجماعة.

غابت سِحن اعتدتُ رؤيتها في صلاة الجمعة، حدَستُ انتماء أصحابها إلى جماعة الإخوان، فطنوا إلى خطورة تأثير ما حدث على حياتهم، فاختفوا.

أكره الاغتيال الفردي، بداية الدماء لا نهاية لها، واغتيال فرد لا يعني إسقاط الجماعة التي ينتمي إليها.

لم أدخل في مناقشات حول قرار حل الجماعة، أتفق مع الإخوان في السعي إلى التغيير، كتمت ملاحظاتي على رضوخ الجماعة للرأي الواحد، ذلك ما لا أطيقه. لو أني وافقت حسن البنا على قوله: «إن للمرشد أن يأخذ برأي مكتب الإرشاد، ويجوز له أن يخالفه» فسأنكر ما دعوت إليه في خطبي. قرأت كتاب خالد محمد خالد «من هنا نبدأ»، أدركت أن كلماته هي الأقرب إلى نفسي. أرفض العنف، ربما لجوء التنظيم السري إلى السلاح هو ما أغرى حكومة السعديين بحل الجماعة.

الرصاصات التي اغتالت الإمام حسن البنا، كأنها اخترقت صدري! كان مثلًا للداعية الذي يحسن تقديم الإسلام في صورته الصحيحة.

هل قُتل بذنب النقراشي؟

ما أعرفه أن صلة الرجل بالطعن والقتال حين ارتدى زيًّا عسكريًّا لتحريض أعوانه على التوجه إلى فلسطين. أساء تنظيم عبد الرحمن السندي إلى جماعته، الإمام البنا في مقدمة من لحقتهم الإساءة.

يصعب القول إن جماعة الإخوان المسلمين تكونت لغرض سياسي، نُسبت إلى الجماعة عمليات اغتيال، وتحالفات مشبوهة، هي تشكلت في سنة ١٩٢٨م، السنة التي شهدت نشاطًا مريبًا في الحياة المصرية، قام به مبشرو المذهب البروتستانتي، وشمل الكثير من

المناطق المصرية، توزعوا في القرى والميادين والدواوين الحكومية والمقاهي، أثروا بكلماتهم المنمقة على أعداد كبيرة من البسطاء، هجروا دينهم الإسلام، أو مذهبه الأرثوذكسي أو الكاثوليكي، اعتنقوا المذهب البروتستانتي. تلك كانت بداية الإخوان، بصرف النظر عن الطرق التي سلكتها فيما بعد، أخطرها — للأسف — لجوءها إلى العمل السياسي.

ظني أن عدم تقدير كل طرف لقوة الطرف الآخر هو الباعث للصدام بين الطرفين. دفع النقراشي حياته ثمنًا لقرار حل الجماعة، ودفع البنا حياته ثأرًا للنقراشي.

حين أدليت بصوتي تأييدًا للوفد، كانت تلك هي مشاركتي الأولى — ولعلها الأخيرة — في انتخابات مجلس النواب، لم أعد أشارك في الانتخابات، تذكرت قول الإمام مالك: «ليس لمستكرَه طلاق»، أي إنه ليس على المستكرَه أن ينتخب من يرفضه. حملتْ خطبي انتقادات — بلغت حد الرفض — للحياة الحزبية، بدت عودة الوفد إلى الحكم مسئوليتي، مثلما هي مسئولية كل المصريين، ضعف ائتلاف أحزاب الأقلية وشى بالدمار في الأفق القريب، انتخابي للوفد لأنه أحسن الوحشين، لا أنسى تولي مناصبه العليا من تليق بهم قيادة أحزاب الأقلية. فسَّرت ارتياحي لفوز الوفد بأنه ليس حبًّا للحزب، وإنما كراهية في الملك وأحزاب الأقلية والسفارة البريطانية.

النسبة الاستثنائية لأعداد الناخبين عكست رغبة المصريين في عودة الوفد، صمتت القوى المعارضة: قصر الدوبارة، السراي، أحزاب الأقلية. انتظرتْ — ربما — حتى تعيد ترتيب أوراقها لتربح جولة تالية. جاءت تلك الجولة — كما تعلم — بعد عامين في حريق القاهرة الذي لم يُعرف — حتى الآن — فاعله.

العادة أن يداري المسئول الكبير أخطاء القريبين، خوفًا عليهم وعلى نفسه. ألغى الملك فاروق ما هو مألوف، عندما واجه زواج رياض غالي سكرتير أمه نازلي من ابنتها، شقيقته فتحية، أخفق فاروق في إقناع نازلي برفض الزيجة، فأصدر قرارًا بالحجر على نازلي، وتجريدها من لقبها، والتفريق بين فتحية ورياض غالي. تحفظي على أفعال فاروق، رفضي لها في مواقف كثيرة، لا يلغي إحساسي بأنه واجه ما حدث بوجدان المسلم.

«من أجل مصر وقعتُ معاهدة ١٩٣٦م، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها.» أدركت أني لم أكن مخطئًا في تأييدي للوفد، دعوت لنصرته وهو خارج الحكم، وحين آلت إليه الأمور أثبت أنه أهل للثقة، للوفد أخطاؤه، تناولتها في خطبي، لكنها تتضاءل أمام جرائم القصر وأحزاب الأقلية. هذا هو النحاس الحقيقي، خليفة سعد، وصاحب المواقف الوطنية.

دخلت البلاد مرحلة جديدة، انسحب الآلاف من عمال المعسكرات، امتنع عمال الشحن والتفريغ عن تفريغ السفن الإنجليزية الراسية في موانى القناة، نشطت حركة مقاطعة البضائع الإنجليزية، الغريب أن الشعور بخروج آلاف العمال من معسكرات القناة، فاق — عقب إلغاء المعاهدة — ما حدث في نهاية الحرب الثانية، ربما لأن عملية ترك المعسكرات كانت مفاجئة، واستغرقت أسابيع قليلة. فُتحت مكاتب التطوع، تكونت الكتائب المسلحة، قُطعت خطوط التموين، نُسفت مستودعات البترول، والقطارات المتجهة إلى معسكرات الإنجليز، نجحت محاولات الاستيلاء على الأسلحة والذخائر، نُشرت قوائم المتبرعين للمقاومة المسلحة، استُشهد الضابط طيار أحمد عصمت في عملية فدائية، بالقرب من أبي حماد بالشرقية.

مصر تشغي بالمظاهرات والإضرابات والاعتصامات والمؤتمرات والخطب وملصقات الشوارع والمنشورات السرية، المدن والقرى والمصانع والجامعات والمدارس الثانوية والابتدائية مجالها الفسيح، وتعددت مصادرة صحف المعارضة، وأُلغيت جريدة مصر الفتاة. حتى حادثة هدم كَفر أحمد عبده مثلت مؤشرًا للثورة القريبة، حجة قادة الاحتلال الإنجليزي أن الكَفر يقع بين محطة المياه المملوكة للقوات البريطانية، وبين بقية المعسكرات. أصدر مجلس الوزراء قرارًا للشهرة، بعدم الاستجابة لإنذار إخلاء الكَفر، وجد أهالي السويس في القرار مزايدة سياسية، نتيجتها هدم الكَفر على رءوس الأهالي، أَخْلَوا بيوت الكَفر، فهدمتها قوات الاحتلال، لكن المقاومة الشعبية ردت على هدم الكَفر بعديد من الأعمال الفدائية ضد معسكرات الإنجليز، قُتل فيها عشرات الجنود، ودُمرت دبابات وعربات مصفحة، ومعسكر للطيران بأكمله.

أبذل جهدًا لتذكر بعض الأشياء. الذاكرة انتقائية، قد أنسى واقعة مهمة، وأتذكر حادثة تافهة، يصعب للإلحاح أن يستعيد ما حدث، لكن الملاحظة السريعة تعيد ما كان غائبًا، ما توارى في الذاكرة، تتلاشى الغِلالات فتبين الصورة واضحة.

الصدمة! ...

ذلك هو الشعور الذي أحسست به عندما طالب الحزب الاشتراكي بإسقاط حكومة الوفد، كانت مساحة الخضرة الوحيدة — رغم الأعشاب الطفيلية — في أرض حزبية تعاني التصحر والجدب. لم تستهوني شعارات الحزب: القومية المصرية، مصر فوق الجميع، الإمبراطورية العظيمة، الله ... الوطن ... الملك ... غوغائية تؤثر في مشاعر الناس، لا صلة لها بمشكلات حياتهم.

ماذا كان يريد أحمد حسين؟

صدمني هبوط متوسط الدخل القومي من عشرة جنيهات في ١٩٣٩م إلى أقل من ذلك الرقم في ١٩٥٢م. أحزنني تهاوي الآمال التي دفعتني، وملايين المصريين، لانتخاب الوفد. ظل كل شيء على حاله: الفساد السياسي، سيطرة رأس المال والإقطاع، التحالف مع السراي وقصر الدوبارة. يؤلمني أن أهم مشروعاتنا القومية — بالإضافة إلى مغالبة الفقر والجهل والمرض — مشروع مكافحة الحفاء، مجرد أن يضع المصريون أقدامهم في أحذية، صار القضاء على الحفاء مطلبًا ملحًّا للقضاء على الجهل والفقر والمرض، مسميات لم أعد أضمِّنها عظاتي في علي تمراز، هي أقرب إلى كتابٍ ملَّ الناس قراءته، قول معاد فقد معناه. أذكر القول: إن الاقتصاد المصري بقرة ترعى في أرض مصر، لكن ضروعها كانت تُحلب خارج مصر. كانت معظم رءوس الأموال أجنبية، تقتصر أنشطتها على الاقتصاد المصري في التصدير والاستيراد. وكانت شركة قناة السويس مثلًا للسيطرة الأجنبية على الاقتصاد المصري، تسيطر على حركة الملاحة في القناة، وتحصل على معظم عائدات عبور السفن، وتتيح التعامل الأمني لأجهزة المخابرات في إسرائيل ودول الغرب. كان للشركة عَلَمها الخاص، وشَفرتها الخاصة، وجهازها للمخابرات، فضلًا عن الحي الذي تقتصر الإقامة فيه على موظفيها.

حرصت أن أضمِّن خطبي شرحًا لواقع حال الغلابة، بعكس ما قاله أحد الوزراء إنهم جعلوا الشمس في الشتاء دثارهم، ونور القمر في الظلمة سراجهم، وحشائش البرية فاكهتهم، وهم ماضون في رحلة الحياة ثابتي الجأش، صارمي القلب. تعبيرات إنشائية، كان من الصعب تقبلها!

ذكَّرت المصلين — والحكام — بمشروع النائب محمد خطاب في ١٩٤٥م لتحديد الملكية، رفضه البرلمان، لكنه أشار إلى طريق الثورة. أقيس قيمة الخطب التي ألقيها، وجدواها، من زيادة أعداد المصلين، ليس استجلابًا لإعجاب مريدين، وإنما لما ينطوي عليه امتلاء صحن الجامع، والميدان الواسع أمامه، والشوارع المحيطة، من مصلين يأتون من مدن قريبة وبعيدة، لأنهم يجدون في كلماتي تعبيرًا عن مشكلاتهم، وما يعانون. الشعائر في كتب الفقه يستطيع من يشاء أن يعود إليها، لكن حياة الناس هي ما يشغلهم في عظاتي وخطبي.

اقتصرت أواخر خطبي — أو كادت — على رفض قانون الصحافة، بدا القانون غولًا، ربما الْتَهم حياتنا.

وأنا أغالب الفضول: ألم تدفعك قسوة الإجراءات إلى مراجعة مواقفك؟

قال: أصارحك بأني فكرت في نصيحة الشيخ نصار مبروك خطيب مسجد الموازيني، طالبني أن أعي فصل شيخ الأزهر لقوله — تعليقًا على بذخ رحلات الملك: «تقتير هنا، وإسراف هناك.»

طفَت على شفتيه ابتسامة متوترة: لو أني عدَلت عن مواقفي كنت سأظل في علي تمراز.

عدا «المصري» فإني لم أعد أقرأ صحف الوفد، تعكس سياسات لا شأن لها بالوفد الذي نعرفه. هل كان أحد يتصور هتاف المجتمعين ضد قيادة وفدية عند صعوده إلى المنصة؟

قال: هذا غاية ما استطعت أن أستحث به الذاكرة حتى تعود.

حل في الذاكرة ما كنت نسيته: المظاهرات والهتافات وعساكر البوليس وخطب الشيخ حسن وردي ومناقشات طلبة المعهد الديني في بيت المسافرخانة.

أردف كمن يريد أن يبدل مجرى الحديث: أتحت لذاكرتي انتعاشًا لم أتصور أنها تحياه، ما تصورت أني نسيته عاد طازجًا، كأنه جرى بالأمس، وإن كان الكثير من أسماء الشخصيات والأماكن استعصى على الذاكرة، لم يفلح التقليب والنبش في استعادته.

شرد، عرَفت أنه رحل بذاكرته، أخذتْه عوالم حاول اجتذابها فاجتذبته، نسي اللحظة، نسي حتى وجوده نفسه، أتنحنح، أتحرك بما يعيده إلى جلستنا.

أعرف أن ما أذكره، وأرويه، يختلف عن الواقعة كما جرت، الواقعة عند وقوعها، توالي الأعوام غيَّب الملامح، أو جعلها باهتة. ربما أهملتُ بعض الأحداث، أعرف أنك تابعت كل شيء، ما رويته هو وجهة نظري، رأيي الشخصي فيما حدث، قد أكون مصيبًا فلي أجران، أو أكون مخطئًا فلي أجر واحد.

أيقنت — وأنا أُعِد نفسي للرحيل — أن كل شيء على حاله، الحكام هم هم، يتزايدون بالأنصار والأتباع، ويبدو الأفق ملبدًا بالظلمة.

أضاف إلى أحزاني — في تلاحق الأحداث السياسية — إعلان محمد الببلاوي نقيب الأشراف ثبوت نسب الملك فاروق إلى آل البيت، قال الإعلان إن نازلي أم فاروق ينتهي نسبها إلى سيدنا عبد الله الحسين السبط، ابن السيدة فاطمة الزهراء، بنت الرسول عليه الصلاة والسلام. سألت نفسي: لو أني بقيت في إمامة علي تمراز، هل كنت أنفذ أمر الأوقاف، فأدخل كلمة «السيد» على الدعاء لفاروق في المسجد؟!

عرفت وظيفتي في وزارة الأوقاف من قبل أن أنزل مطار الرياض. أكلم المصريين في الشأن المصري لأنه شأني، لا أعرف طبيعة الحياة في السعودية بما يحفزني لإبداء رأي،

أجلس إلى الأعداد القليلة من المصريين، ألتقيهم في زياراتي إلى الحرم المكي، والروضة الشريفة، أقرأ ما يتاح لي من الصحف، وأتابع الإذاعات، أصل الخبر بهواجس وتخمينات وتوقعات … لا أذكر القائل من بعيد، تبدو الصورة أوضح، لكن الصور — في أثناء إقامتي بالرياض — كانت تبدو حافلة بالمشاهد والتفاصيل والأسئلة والتوقعات والتخمينات، ما أستمع إليه أو أقرؤه، أو أتيح لي مشاهدته بعد أن دخل التلفزيون حياة الناس، لا يقتصر على الصور، لكنه يشي بنتائج ربما تغيب لو أن المرء وسط الحدث، تأخذه الدوامة بعيدًا عن الأسباب، واحتمالات المستقبل.

زادت — فيما بعد — أعداد المصريين، وظهرت القنوات الفضائية. ألتقط الأنباء مجزأة ومتناثرة، ويشوبها الغموض في أحيان كثيرة، أدير موجات الراديو وقنوات التلفزيون، أحاول تجميع ما بلغني، أحرص حتى لا يتشابك الخيط، فأعجز عن وصل البدايات بالنهايات.

سافرت في العام الذي بدا مهيَّأً لقيام ثورة، عمليات الفدائيين في القناة، وحرية الصحف، كتب خالد محمد خالد وفتحي رضوان ومصطفى مرعي وإحسان عبد القدوس وعزيز فهمي وأحمد أبو الفتح وحلمي سلام وغيرهم، كانت هي البداية الحقيقية للثورة، لكن حريق القاهرة أجَّل قيامها حتى حدثت حركة الجيش. قطف الضباط الثمار من قادةٍ عانَوا في إنضاجها. تمنيت ألا يكون الحريق نهاية ما حدث في ١٩٥١م، وأن تكون ثورة الشعب بديلًا لحركة العسكر.

استبشرت بانقلاب الضباط خيرًا … ثم وبخت نفسي لأن خطبي مهدت لما حدث، كنت بعيدًا عن السياسة، لكنها كانت قريبة مني، تصلني أحداثها بالسماع والمشاهدة، يصعب أن أطردها من ذهني. أتلقى الأنباء، تضخمها روايات، تتضاءل في روايات أخرى، لا أعرف ماذا أصدق؟!

قلت: الكل تمنى قدوم الثورة.

قال: ليس هذا ما تمنيناه.

وداخل صوته حدة: إلا حكم العسكر!

بتر الكلمات كأنه تبين صعوبة ما قاله: كانت خطبي تدعو إلى تغيير الحكم، لم أفكر كيف، وإن أفزعتني حركة الجيش.

أهمل التساؤل في وجهي، وأضاف: تذكرت مأساة عرابي!

ظني أن مصر كانت تستطيع تبديل أحوالها دون حركة الجيش. وُلِد ولي العهد أحمد فؤاد وسط فوران شعبي شمل كل البلاد: المظاهرات والإضرابات والاعتصامات والهتافات

المنددة بالسراي والإنجليز وأحزاب الأقلية. حتى زواج فاروق الثاني أثار استياء الكثيرين، رأوا في الزواج من فتاة مخطوبة لشخص آخر — الدكتور زكي هاشم — سطوًا على ما يمتلكه الغير.

عقب مذبحة الإسماعيلية، همني السؤال: كان فؤاد سراج الدين يعلم نتيجة أمره للقوات المصرية بالمقاومة حتى آخر رجل. هل كان يملك خيارًا آخر، بدلًا من أن يترك القوات فريسة لأسلحة الإنجليز. هل كان القرار سياسيًّا فلم يضع في اعتباره المئات من العساكر المصريين؟

كنت مشغولًا فيما لا أذكره، فلم أُدِرْ مؤشر الراديو — كما اعتدت — بين الإذاعات، لا أقصره على إذاعة القاهرة. لو أني أدرت المؤشر، كنت سأعرف الحدث الذي هز الدنيا.

تناثرت أسماء: كازينو أوبرا، شبرد، أو «شبت» كما كان الناس يسمون الفندق الشهير، سينما ريفولي ومترو وميامي وديانا وراديو، جروبي، الأمريكين، بنك باركليز، عشرات المحالِّ التجارية والمطاعم والملاهي. كان تحرُّك الناس عفويًّا، وإن كان من الصعب إغفال التدبيرات التي دست مؤامراتها في قلب المتظاهرين.

بدا الحريق، وما تلاه من أحداث، كأن المصريين يمضون نحو النهاية، نحو الموت، كأنهم مدفوعون — بمؤامرات قصر الدوبارة والسراي، وتخاذل أحزاب الأغلبية والأقلية، وتحركات التنظيمات المشبوهة — إلى الانتحار.

ظني أن ما جرى اختصر المدَّ الذي شمل الحياة السياسية منذ عودة الوفد إلى الحكم. كان إلغاءً صريحًا للفعل الثوري من قبل أن تَبِين ملامحه. لو أن كل شيء حدث بصورة طبيعية، ربما تحقق التغيير بالثورة الشعبية، وليس بانقلاب الجيش. احتلال اليهود لفلسطين، بداية تطورات سلبية خطيرة في الوطن العربي، وثمة الاحتلال الإنجليزي في القناة، وإملاءات السفير البريطاني في قصر الدوبارة، وتسلل الانتهازية إلى حزب الوفد، وغلبة الصراعات إلى حد التفتيت بين القوى الوطنية، واتسام المشهد السياسي بمعاناة مخاض الثورة، الأحزاب السياسية القديمة، بالإضافة إلى التنظيمات الطالعة، أو التي أثبتت فاعليتها، صنعتْ نوافذ أطل منها المصريون على الثورة المرتقبة. قوام الساحة أحزاب الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين والحزب الوطني ومصر الفتاة والإخوان المسلمين والشيوعيين، والعديد من الحركات المتطرفة التي كانت جماعة حسين توفيق وإقدامها على اغتيال أمين عثمان مثلًا لها. ظل التوقع قائمًا حتى حدث التغيير، سبق ضباطٌ في الجيش ما توقع الجميع أنه سيكون فعل الشعب.

بالإضافة إلى إلغاء معاهدة ١٩٣٦م، فقد بقي من وزارة الوفد تبدُّل النظرة إلى التعليم، صار — كما أراد طه حسين — كالماء والهواء، حقًّا لكل مواطن، انفتحت أبواب العلم لأبناء الطبقات الفقيرة.

ما حدث في ٢٦ يوليو ١٩٥٢م ثاني تنازل لفاروق عن العرش. كان قد تهيأ في ٤ فبراير ١٩٤٢م لتوقيع قرار — تحت ضغط بريطاني — بالتنازل عن العرش، لولا أنه استجدى السفير البريطاني اللورد لامبسون بمنحه فرصة جيدة، وأعطاه لامبسون الفرصة، فأمر بتشكيل وزارة النحاس.

غاظني اتهام أحزاب الأقلية لحكومة مصطفى النحاس بأنها جاءت إلى الحكم على حِراب القوات الإنجليزية، ما يعرفه الجميع أن تلك الأحزاب لم تقفز على السلطة — مرة واحدة — إلا على حِراب الإنجليز. لعل البلاد مَدينةٌ لرئيس الوفد بإنقاذها من خطر عودة الاحتلال.

لم يكن لي بالقسم السياسي بالداخلية صلة، لم أُدْعَ لشهادة، ولا استجواب، وإن قرأت الكثير عن أفعاله في صحف المعارضة. صَحَت زوجتي على الزغاريد في بيت الجوسقي المجاور. عرَفت أن ابنه الطالب بكلية الحقوق اتصل به من القاهرة، يبلغه بالإفراج عنه مع المعتقلين والمتهمين في أحداث حريق القاهرة. قلت لنفسي وأنا أعيد سماعة الهاتف إلى موضعها: هذه ثورة حقيقية، عمَّق مغزاها قوانين العفو الشامل عن جرائم العيب في الذات الملكية، وتطهير الإدارة الحكومية، والكسب غير المشروع.

عدا زوال سرادق رمضان في حديقة رأس التين، فإن أهل الإسكندرية لم يخسروا شيئًا برحيل الملك. هو بداية موائد الرحمن التي عرفناها فيما بعد: تلاوة القرآن من الشيخ مصطفى إسماعيل، تناول الإفطار متمثلًا في الوجبة الساخنة والحلوى والشاي والقهوة والسجاير.

قال الرجل ذو الملامح المصرية في سوق البطحاء: عزلوا الملك، وحل مكانه اثنا عشر ملكًا.

أدركت أنه يقصد الضباط الذين شكلوا مجلس قيادة الثورة.

أفاض في الكلام عما رآه سلبيات كثيرة: ضرب السنهوري، اعتقال إحسان عبد القدوس، إعدام العاملَين خميس والبقري، إغلاق جريدة المصري، حظر الأحزاب السياسية.

التضخيم، وربما التهويل، رد الفعل لتلقِّي الأحداث في الغربة، تضيف إليها، تجسدها في الصورة التي تتخيلها، وليست الصورة التي هي عليها. كنت أتلقَّى الأحداث في مصر

بمشاعر متباينة، يداخلها الحنين والقلق، وتأخر الرسائل، وإلحاح الإذاعات والصحف، وتعليقات المكاتب والأسواق. حينما صدر قانون إلغاء الرتب والألقاب، همست لنفسي متسائلًا: هل يُلغَى لقب الشيخ؟ فطنت إلى أن حركة الجيش ذبحت القِطة مرتين، عندما حكمت على العاملَين خميس والبقري بالإعدام، وعلى الإقطاعي عدلي لملوم بالسجن المؤبد. ربما لجأ مجلس قيادة الثورة إلى هذا الإجراء ليسد الطريق على أية محاولة تالية للخروج عليه، وهو ما كان يهب الأمل بالإفراج — بعد سنة أو سنوات — عن عدلي لملوم، لكن إعدام العاملَين أغلق باب الأمل تمامًا. أصارحك بأني أرفض الإعدام ما لم يكن بدافع القِصاص، فيما أعرف، فإن العاملَين لم يرتكبا ما يستدعي القِصاص. توقعت أن يمثل فصلُ الإخوان المسلمين للباقوري من عضوية الجماعة بداية طريق اللاعودة بين حركة يوليو وقيادة الإخوان. محاولة اغتيال عبد الناصر باب الدخول إلى اعتقال كوادر الإخوان. أذكر خطبة لعبد الناصر عن ١٨ ألفًا من أعضاء الإخوان، اعتُقلوا في يوم وليلة! أمهلت سوء النية عندما صدر قانون الإصلاح الزراعي في سبتمبر من عام الحركة، أليس هذا ما دعوت إليه في خطبي؟

لم أصدق عيني، حين طالعني خيري الشحات في سوق البطحاء: الجسد العملاق، والأنف ذو الخنف الواضح، والطاقية البيضاء تهبط إلى حواجبه. روى لي — عقب العشاء — في هدأة صحن البيت، عن السنين التي اعتُقل فيها بتهمة العيب في الذات الملكية، ماذا كنت أفعل؟ هل حمتني الإمامة؟ هل خشُوا ناس بحري؟ حتى أحمد حسين لم يُفلت من السجن بصور «رعاياك يا مولاي»! داخلني قلق عندما تولى محمد نجيب رئاسة الوزارة بدلًا من علي ماهر، احتفظ بوزارة الحربية والبحرية وسلطات القائد العام للقوات المسلحة. طال تأملي لتولي علي ماهر رئاسة أول وزراء بعد الثورة، صلاته معروفة بالإنجليز والسراي، بعيدة عن حزب الأغلبية، ضم قوى الرجعية في جبهة مصر، محاولة لإضعاف اللجنة الوطنية للعمال والطلبة. بدا طبيعيًّا إبعاده من منصبه بعد شهرين من قيام الثورة، وإن داخلني قلق من احتفاظ محمد نجيب بعديد من المناصب. قيل إن إبعاد ماهر لاعتراضه على قانون الإصلاح الزراعي، وتحديد الملكية الزراعية، صدر عقب يومين من تنحيه. صعب أن يتخلى الرجل عن طبقته. حل الأحزاب السياسية لم تتأثر خطورته بإعلان فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات، تمهيدًا — كما نص القانون — لإقامة حكم ديمقراطي سليم. ناوشتني — مجددًا — مخاوف الديكتاتورية.

هيئة التحرير؟

هل هي البديل للأحزاب السياسية؟ هل تجاوز فترة الانتقال مدة السنوات الثلاث إلى ما لا نهاية؟ ماذا يريد العسكر؟

بدت المخاوف كأصداء بعيدة، حينما أصدر مجلس قيادة الثورة قرارًا بألا يؤلف المجلس أحزابًا، مقابل السماح للجماعات بتكوين الأحزاب السياسية. ولأن الثورة انتهت — كما قدر المجلس — فقد قرر تسليم البلاد لممثلي الأمة.

بعد أقل من سنة على قيام الحركة، حدث ما لم أكن أفهمه. نزلت المظاهرات إلى شوارع القاهرة، تهتف ببقاء مجلس قيادة الثورة، ورفض قرار الحل، وأضرب عمال النقل عن الطعام، حتى تُلغَى عودة الأحزاب، واستمر مجلس قيادة الثورة في مباشرة سلطاته، كما اعتصم ضباط من الجيش في ثُكناتهم، إلى أن تُلغَى قرارات مجلس قيادة الثورة، شاهدت في الجريدة صورة دالاس وهو يقدم مسدسًا فضيًّا إلى اللواء محمد نجيب. ماذا تعني الهدية؟ هل هي استكمال لدور السفير الأمريكي جيفرسون كافري في السياسة المصرية؟ هل لها صلة بحصول مصر على السلاح؟ وما انعكاس ذلك على القوات البريطانية في القناة؟

لا أذكر أين ولا متى استمعت إلى بيان قيادة الثورة بإلغاء النظام الملكي، وإعلان الجمهورية. ما بدأه فاروق — بالتنازل عن العرش — استكمله قانون إلغاء المَلَكية، وإلغاء ألقاب الإمارة، وإعلان الجمهورية. تمنيت لو أني كنت في مصر عند زوال رمز النظام الذي كنت أعارضه، وإن خشيت — بإنهاء الملكية — أن تقوم الدولة القادمة على العسكر. ربما كان تولي عبد الناصر وزارة الداخلية بداية مشواره في الاحتراف السياسي.

صار معظم استماعي إلى الإذاعة الجديدة منذ انطلاقها في ٤ يوليو ١٩٥٣م، يجذبني الصوت المتحمس: «صوت العرب من القاهرة.» ظلت متابعتي لها حين بدأت بنصف ساعة، حتى شملت اليوم كله. في ذاكرتي الكثير من المواقف التي ناصر بها أحمد سعيد قضايا العرب في فلسطين وعمان والجزائر وتونس، سماها الناس إذاعة أحمد سعيد. بدلت نكسة ١٩٦٧م من قناعاتي. كذب أحمد سعيد كثيرًا، فلم أعد أصدقه، ولم أعد أنصت إلى صوت العرب.

أذكر ما أُعلن قبل أن ينتهي العام التالي للثورة. لم تعد ثورة عرابي «هوجة». ردت إلى الرجل الطيب أمواله، لن تفيده في موته، لكن القرار يرد إليه اعتباره.

أخذه سعال، سكت بالإشفاق حتى استرد صوته. تشحب الكلمات بين نوبات الكحة، ثم استرد صوت الشيخ عافيته:

لما قامت حركة الجيش كنت في جِدَّة، عدت لأجد عبد الناصر رئيسًا للجمهورية بدلًا من الملك.

– ومحمد نجيب؟

– كان عبد الناصر قد عزله.

وضرب جبهته — متذكرًا — بأطراف أصابعه: ذكَّرني محمد نجيب بسعد زغلول والنحاس، جمال عبد الناصر شخصية مختلفة.

نُحِّيَ محمد نجيب من مناصبه، وتولى عبد الناصر رئاسة الوزارة، طالعتني صحف القاهرة بحشود من العمائم والجبب والقفاطين، تتردد في ارتفاع أصواتهم أسماء محمد نجيب وخالد محيي الدين وجمال عبد الناصر. هتف المتظاهرون: أين؟ وحطموا واجهات المحال وأعمدة النور. وردت أنباء المظاهرات والإضرابات والمعارك. عبَّرت الأزمة عن صراع حاد بين أنصار مواصلة الثورة، والمنادين بعودة الجيش إلى الثُّكنات. كان لجماعة الإخوان تأثيرها في المظاهرات المطالبة بعودة محمد نجيب، أظهر الرجل — في حواراته الصحفية — ترحيبه بإنهاء الحكم العسكري، وإقامة الحياة الديمقراطية البرلمانية، وعودة الأحزاب، وإلغاء الرقابة على الصحف. لم تغادرني المخاوف حتى عادت الأوضاع — بعد مظاهرات صاخبة — إلى ما كانت عليه، عاد محمد نجيب رئيسًا للجمهورية، ورئيسًا لمجلس قيادة الثورة، ورئيسًا للوزراء.

في مارس ١٩٥٤م، تصورت أن الخلاف انتهى، وتناسى الجميع أسبابه من أجل مصر، بدت كلمات عبد الناصر — في إذاعة القاهرة — إغلاقًا لمشكلة يصعب التنبؤ بنتائجها. لم يطمئن بالي إلا بعودة محمد نجيب، كان خوفي على البلد وليس على فلان أو علان. لكن الأسئلة عاودت طرح نفسها: هل هي حقيقة، أو مناورة؟ أو خديعة؟ هل يحل مجلس قيادة الثورة نفسه بالفعل في يوليو القادم؟

ما توقعته حدث. تعددت المظاهرات والإضرابات والاعتصامات تطالب بعودة مجلس قيادة الثورة، وسقوط النظام الحزبي والديمقراطية. لا أعرف من كان وراء ذلك كله، لكن الفوضى امتدت، وتوقفت القطارات ووسائل النقل، وأخذت الإضرابات شكل الظاهرة. ربما فهمتُ أشياء لَمَّا أعلن مجلس قيادة الثورة إرجاء تنفيذ قرار حله إلى نهاية فترة الانتقال. ثم عدنا إلى نقطة البداية: قبول تخلِّي اللواء محمد نجيب عن رئاسة مجلس الوزراء، وزارة جديدة. استعدتُ حكاية التحكيم الشهيرة بين علي ومعاوية.

الإحساس بأحداث الوطن في الغربة يختلف — كما قلت لك — عن الإحساس بها وقت العيش داخله، أُلغِي — بالتخيل، بالتصور — آلاف الكيلومترات التي تفصل بين بحري والمدينة التي تستضيفني.

أخذتني الهواجس لما سمي — فيما بعد — بعملية لافون. الأوضاع هادئة على الحدود، هل الهدف مجرد التخويف، أم أنه بداية تطورات لاحقة؟ لماذا وُضعت العبوات المتفجرة في دور سينما بالإسكندرية والقاهرة؟ لماذا الدور مملوكة لشركات أمريكية؟

عرَفت — فترة ابتعادي — بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر وهو يخطب في ميدان المنشية، روتها إذاعة القاهرة، لم أجد في الروايات الأخرى ما يعينني على تكوين رأي. لا أعرف طبيعة تنظيم الإخوان المسلمين، ولا التكوينات المتولدة عنه، ومنها التنظيم السري. هل كانت محاولة اغتيال عبد الناصر حقيقية، أو تمثيلية شارك فيها المتهم بالمحاولة؟ لكنني أشفقت — حيث أقيم بالرياض — على النكبة التي حلت بالإخوان المسلمين، ذكرتني بنكبة البرامكة. كانت إجازتي قصيرة، والمعلومات متضاربة، فاكتفيت بإبداء التأثر.

ثماني رصاصات ترامت من الراديو، شحبت فيها أصوات المحتشدين داخل السرادق الضخم بالمنشية.

أذكر خطاب عبد الناصر بنص كلماته: «أيها الرجال، فليبق كلٌّ في مكانه، إذا أرادوا قتل جمال عبد الناصر فكلكم جمال عبد الناصر. لقد خلقت فيكم العزة، وخلقت فيكم الكرامة.»

كرر عبد الناصر ما فعله النقراشي قبل ستة أعوام. صدر القرار بحل الجماعة، واعتقال المرشد الهضيبي، ومئات الأعضاء. أحيل إلى الاستيداع عشرون ضابطًا من المنتمين إلى جماعة الإخوان.

ومشت عَلاقات قيادات الثورة والإخوان بالطريق الواحدة التي اختاروا التجاور فيها، ساعد على توثيق العَلاقة بين قيادات الإخوان والضباط الأحرار وجود محمد نجيب، بطبيعته الطيبة، على رأس الدولة، وخروج العديد من الضباط — بمن فيهم عبد الناصر — من عباءة الإخوان.

لماذا وكيف انتهى شهر العسل بين الإخوان وقيادة الحركة؟ ظني أن باعث الخلاف بين الإخوان والضباط الأحرار هو الباعث نفسه لخلافات كثيرة بين الزعامات السياسية في مصر. الشواهد تتوالى منذ انقسام قيادة الوفد في عهد سعد زغلول، ثم التصدعات التي أسفرت عن نشوء أحزاب معارضة، واتساع مساحة الخلافات باتساع الساحة السياسية المصرية، وما اقتحمها من عوامل التآمر، والفرقة، ومحاولات السيطرة.

مصطفى النحاس زار — إثر العودة من رحلته الأوروبية — مجلس قيادة الثورة، أعلن مباركته وتأييده، ثم لزم البيت. سعى الإخوان — في المقابل — لتظل الخيوط في

أيديهم، قياداتهم تصدر التعليمات، ويلتزم الضباط — كما القيادات الثانية للإخوان — بتنفيذها.

صار الصدام محتَّمًا بين إرادة تحرص على الإملاء، وإرادة ترفض الانصياع، ظلت العَلاقة على توترها حتى حدثت اشتباكات بين طلبة الإخوان وزملائهم من طلبة الجامعات. أصدر مجلس قيادة الثورة قرارًا بحل الجماعة، واعتقال الهضيبي، وأربعة وخمسين من أعضائها.

لو أن الإخوان المسلمين حاولوا المشاركة في حركة يوليو بدلًا من ركوبها، ربما انتهت العَلاقة بين الإخوان والحركة إلى غير ما انتهت إليه.

لا أنسى وقفة محمد نجيب وجمال عبد الناصر وضباط الحركة أمام قبر الإمام البنا، يكررون العزاء لأبيه، بعد أن أُعلن التوصل إلى المتهمين في قضية اغتياله.

قلت: هل كانت المحاولة حقيقية؟

قال: أُخطئ بالنفي أو التأكيد ... الغربلة قادمة! أُدين الخطأ بصرف النظر عن فاعله؛ أدنت قتل الإخوان للمستشار الخازندار في ١٩٤٨م، وأدنت الإخوان لاغتيال النقراشي في العام التالي، وأدنت الحكومة القائمة لأنها قتلت مرشد الإخوان.

النصرة للحكم العسكري، ذلك هو فهمي لقرار مجلس قيادة الثورة بإعفاء محمد نجيب من مناصبه. تلقَّى اللواء قرار إعفائه من رئاسة الجمهورية، وعضوية مجلس قيادة الثورة أثناء دخوله قصر عابدين. رُحِّلَ منه إلى قصر زينب الوكيل بالمرج، ظل فيه إلى نهايات أيامه.

المخاوف القديمة جاوزت الاحتمالات، ما كان هاجسًا رأيته رؤية العين: فترة الانتقال لن تنتهي — كما أُعلنَ من قبل — في ١٩٥٦م، قال عبد الناصر: إن الفترة الانتقالية لا تعني أن الثورة ستصفي أعمالها، أو أنها ستتخلى عن أهدافها ومبادئها.

كانت الغارة على غزة إرهاصة حروب ما بعد بين مصر وإسرائيل. جعل عبد الناصر للسلاح أولوية، أجرى خفضًا للإنفاق في مشروعات التنمية، حتى يغطي قيمة ما تحتاجه مصر من السلاح. لم يعد التعاون والوحدات المجمعة والمستشفيات والمدارس والمصانع، لم يعد ذلك فقط هو موضع اهتمام القيادة المصرية، توازى معها الاهتمام بالجسم العدو على الحدود.

بدا لي كالمفاجأة هجوم القوات الإسرائيلية على الجنود المصريين في الصبحة، خبر مفزع، أعاد إلى ذاكرتي ما عشناه في أيام حرب فلسطين، ما عرضت له في خطبة الجمعة

بعلي تمراز. أول اشتباك بين الجيشين المصري والإسرائيلي منذ حرب ١٩٤٨م. لا أحد ممن عرفوا الخبر — فيما أذكر — صدق تبريرات العدوان الإسرائيلي، افتضح الزعم بأنه رد على أعمال الفدائيين المصريين.

لم تكن الحرب ضد إسرائيل واردة في مخططات القيادة المصرية. التعمير هو الهدف، يذكِّرني بالشعار الذي كنت أقرؤه على جدران شارع فرنسا، ولا أعرف كاتبه: «نريد الخبز بدل السلاح.» تذكرت ما نشرته الصحف عن قول عبد الناصر لجيفرسون كافري: إسرائيل ليست شاغلي الآن، إنني أنظر إليها على أنها ليست خطرًا يهدد مصر، الخطر ليس إسرائيل، إنما هو ضعف مصر اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا.

بدت تجربة عبد الناصر مرفوضة من الغرب، ليس برفض الإسهام في تمويل السد العالي، بل بمحاولة منع بنائه، وحين جاوز عبد الناصر مؤامراتهم، وبدأ بناء السد العالي، فإن فرنسا وإنجلترا، إضافة إلى إسرائيل، شنت غزوها لمنع نضج الثمرة.

عمليات الفدائيين لحقت الغارة الإسرائيلية، ولم تكن سابقة عليها. ظني أنها أعادت قضية تسليح مصر. انشغل عبد الناصر بتطوير المجتمع، ذكَّرته الغارة الإسرائيلية بالعدو الواقف على الحدود، تلك الغارة هي إشارة التحول إلى أحداث تالية.

ترتب على ما حدث كل التطورات اللاحقة في عَلاقة الأقطار العربية وإسرائيل، أولها سعي مصر لاستيراد السلاح. صارت الاشتباكات مشهدًا متقاربًا، ألحت ضرورة التسليح على القيادة المصرية، ربما لأن ذلك ما كانت تريده إسرائيل حتى تحوِّل مصر اهتمامها من التعمير، وتنفق مواردها على شراء الأسلحة. كان حظر السلاح عن اليابان وألمانيا — عقب الحرب العالمية الثانية — عاملًا مهمًّا في تخطي الهزيمة، وتقديم معجزتين صناعيتين.

كشف عبد الناصر — بعد ذلك — عن اعتزامه شراء أسلحة بنحو ٧٠ مليون جنيه إسترليني، كانت مخصصة لبناء مستشفيات ومدارس وطرق. قال: لا يمكن أن ندافع عن أنفسنا بالمدارس والمستشفيات.

وضعت واشنطن — للموافقة على بيع السلاح — شروطًا لم تستطع مصر قبولها، أخطر تلك الشروط أن تنضم مصر إلى أحد الأحلاف الدفاعية التابعة للغرب.

شممت رائحة صدام وشيك بين مصر والغرب، قال عبد الناصر إننا لم نصل إلى نتيجة لشراء أسلحة من الغرب، لأننا رفضنا أن تُملَى علينا شروط.

باندونج، بداية السير في الطريق الصحيحة. شارك عبد الناصر زعماء العالم الثالث اجتماعات عدم الانحياز. دعا بيان المؤتمر إلى الاعتراف بحق تقرير المصير، وتأييد قضية حرية الشعوب النامية، واستقلالها. ارتفعت أسهم الزعماء الثلاثة عبد الناصر وتيتو ونهرو.

شدني الخطاب، حرصت على سماع تكراره في الإذاعات. أعلن عبد الناصر — رسميًّا — إتمام صفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفييتي، سُميت «الأسلحة التشيكية». كسرت الصفقة احتكار السلاح الغربي للوطن العربي. أقدمت مصر على تلك الخطوة بتأثير ضغوط الغرب عليها، وعدم استجابته لتسليح القوات المسلحة المصرية إلا بشروط تُنافي إرادتها المستقلة. ميزة الصفقة الجديدة أنها بلا قيد أو شرط، وبنظام المقايضة، القطن المصري ثمنًا للسلاح.

أحزنني — لمَّا أعلن الاتحاد السوفييتي استعداده لتمويل مشروع السد العالي — أن تنقل واشنطن وموسكو حربهما الباردة إلى مصر.

أذكر في تلك السنة إلغاء القضاء الشرعي والمِلِّي. تصورت القرار هجمة ضد الدين، ما بلغني من حادثة الشيخين سيف والفيل بدل نظرتي إلى ما حدث، أخذني الشرود إلى ما كنت أعانيه في المسافرخانة.

اختار السودان — في استفتاء — أن يستقل عن مصر، استوقفني أن الاختيار بزعامة إسماعيل الأزهري رئيس الحزب الوطني الاتحادي، هو الذي تبنى الدعوة إلى وحدة وادي النيل.

حفلت خطبي في علي تمراز بثناءٍ مستفيض لموقف إسماعيل الأزهري من وحدة وادي النيل، لماذا اختار الانفصال؟ هل هو فرط حساسية من الشعار الساذج المتحمس الذي هتفت به مظاهرات المصريين: السودان لنا، وإنجلترا إن أمكن؟ هل هو رفض لتسمية ملك مصر والسودان وبلاد النوبة وكردفان؟ هل لأن السودانيين أحبوا محمد نجيب، وتمنَّوه رئيسًا للدولة الموحدة، لكن عبد الناصر عزله، وحدد إقامته؟

لو أن جمال عبد الناصر وافق على أن يظل محمد نجيب رئيسًا للجمهورية، هل كان استفتاء السودان يطالب بانفصاله عن مصر؟ كان الاستفتاء بداية سلبيات أخرى في حوض النيل، آخرها قيام دولة جنوب السودان.

صدر — في أول العام — الدستور الجديد، سُمي دستور الشعب. صدرت قرارات تأميم جميع الشركات الأجنبية في مصر. اعترفت مصر بجمهورية الصين، ضربة قاسية ضد سياسة واشنطن إزاء مصر. خرج آخر جندي بريطاني من مصر، عدا قاعدة قناة السويس.

في إجازة، شاركتُ في استفتاء رئيس الجمهورية، اخترقتُ شوارع وحارات كنت قد ابتعدت عنها بالسفر، سألت رئيس اللجنة: كيف؟ أخذ البطاقة، وقال: تُملأ هكذا، وتضعها هنا. اقتصر فِعلي على المشاهدة.

فيما يشبه الإجماع، نال عبد الناصر أصوات المصريين في الاستفتاء الذي شهدته مصر. لم أتفاءل، ولم أتشاءم، هو تعبير عن واقع الحال. حاولت أن أربط ظهور أسلحة روسية في العرض العسكري بما يجري من أحداث.

أبانت توجهات مصر الجديدة عن نفسها في حضور عبد الناصر مؤتمر بريوني مع نهرو وتيتو. بدأت خطوات مصر في طريق عدم الانحياز، تأملت قول عبد الناصر — بعد أربعة أيام من عودته إلى القاهرة: موتوا بغيظكم.

إلى أين تمضي الأحداث؟

إجازة الصيف، كنت واحدًا من الآلاف المحتشدين في ميدان محمد علي بالمنشية، يحيون عبد الناصر على قرار تأميم شركة قناة السويس. أنا — بعد عامين — في الميدان نفسه الذي شهد محاولة الاغتيال، رافقني ياسين الحاملي وثلاثة من المقيمين في بيت المسافرخانة، أمم عبد الناصر شركة القناة من مبنى البورصة الذي شهد محاولة اغتياله، أزالت كلماته توزع مشاعري، لم يعد إلا الإعجاب بقرار تأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية، أذكر نص الكلمات، فرض عبد الناصر نفسه زعيمًا في قلوب الناس، أحبه من كان يكرهه، أو لم يستقر على رأي تجاهه.

لم يكن التأميم خاليًا من رغبة في الثأر، عدل الأمريكان عن تمويل بناء السد العالي، رد الفعل فاق الفعل نفسه. لو أن واشنطن وافقت على تمويل السد العالي، هل كانت مصر تلجأ إلى الاتحاد السوفييتي؟ وهل كانت — لولا رفض أمريكا تزويدها بالسلاح — تشتري السلاح من السوفييت؟

لي ملاحظات على أداء عبد الناصر، وإن كان من غير المقبول أن أرفض العدالة الاجتماعية والمعاشات والإصلاح الزراعي وتأميم القناة والسد العالي والمدن الجديدة وتأكيد هُوية مصر العربية. حقق عبد الناصر بنسبة الخمسين في المائة للعمال والفلاحين ما لم يقترحه مناصروه في تاريخ مصر، لكن الرجل واجه عداء قوى كثيرة: الأحزاب القديمة، والتيارات السياسية باختلاف توجهاتها، وغالبية الحكام العرب، وإسرائيل، ودول الغرب.

لا أوجِّه إدانة لعبد الناصر، جاوزت حتى ما علق بنفسي من شبهة إدانة لتصرفاته السابقة، هذه مرحلة جديدة، لا شأن لها بما سبق، وإن حيرني الرجل بتناقض مواقفه، يبث إذاعة للقرآن الكريم، ويطارد الإخوان المسلمين، ويناصر الفقراء، ويمارس الديكتاتورية، ويؤمم القناة بعد أن ضيَّع السودان.

أمم عبد الناصر شركة القناة بعد أسبوع واحد من سحب الغرب عروضه لتمويل السد العالي. زالت حيرتي — فيما بعد — حين كرر عبد الناصر مرات كثيرة، اسم ديليسبس،

عرفت أنه كلمة السر، ليبدأ محمود يونس عملية الاستيلاء على مباني شركة قناة السويس. أدرت المؤشر بين الإذاعات الناطقة بالعربية، ناقشت زوارًا لمكتبي بوزارة الأوقاف، مترددين على أسواق الرياض، جيران في البناية المطلة على طريق المطار، مَن تفهَّم شخصية عبد الناصر جيدًا يدرك أن قراره بتأميم القناة يعبر — إلى حد كبير عن رفضه الإهانة التي مثلها سحب الغرب عروضه لتمويل مشروع السد العالي. ثمة من أثنَوا على القرار المصري، ومن أبدَوا تخوفهم. صار عبد الناصر — في يوم وليلة — أسطورة. ميراث الاستعمار — عبر عشرات السنين — خالط بين الفرحة وعدم التصديق، الإذاعات والصحف ومناقشات الأسواق تحدثت عن القرار الذي هيأ صاحبه للزعامة. استعدت قول الشيخ الباقوري في الراديو، يبدي دهشته من رفض المصريين — في بدايات الثورة — لجمال عبد الناصر.

لماذا؟

لأن مناخيره طويلة!

هل هذا سبب لكراهية قائد ثورة؟!

توالت نذر الحرب الوشيكة، أعلنت مصر التعبئة العامة، وأعلنت بريطانيا وفرنسا تجميد الأرصدة والأموال المصرية، وتجميد ممتلكات شركة قناة السويس في الدولتين، وتحرك الأسطول البريطاني إلى قرب القناة، وأصدرت لندن وباريس أوامرهما إلى رعايا إنجلترا وفرنسا بمغادرة الأراضي المصرية، وسحبت الدولتان — ودول الغرب، عدا اليونان — مرشديها، لتعطيل العمل في القناة، وحشدتا قوات لهما في قبرص، بينما فتحت مصر باب التطوع لتكوين الكتائب الشعبية، وأنشئ جيش التحرير الوطني.

كان عبد الناصر جادًّا في كل تهديداته، هل هو جاد هذه المرة أيضًا؟!

أعلن أن مصر ستحارب إذا سعى الغرب إلى تنفيذ ما يطلبه من تدويل إدارة القناة بالقوة. أضاف إعلانًا ثانيًا بتكوين كتائب حرس وطني للمقاومة الشعبية.

قال إيدن — في افتتاح مؤتمر لندن — إنه لن يسمح لعبد الناصر بالإفلات هذه المرة، ولا بد من القضاء عليه، عمق ذلك القول من مساندة المصريين لعبد الناصر. رفضت الحكومة المصرية حضور المؤتمر، لأنه سيناقش مسألة تتعلق بسيادتها، شهدت المدن العربية إضرابًا عامًّا، تؤكد فيه مساندة مصر في موقفها.

انتهت جلسات مؤتمر لندن بقرار إرسال بعثة برئاسة منزيس رئيس وزراء أستراليا إلى مصر، لعرض قرار المؤتمر بإدارة القناة، بواسطة هيئة دولية.

علت التهديدات — عقب المؤتمر — في لندن وباريس، حذرت موسكو من احتمال نشوء صراع عنيف، قال أيزنهاور إن الولايات المتحدة ملتزمة بحل سلمي للنزاع، اكتفت

القاهرة بالصمت، لم يخل من دلالة تصريح عبد الناصر بأنه سيطلب العون من أية جهة إذا هوجمت مصر من أي جانب.

إثر فشل بعثة منزيس، طُرحت فكرة تشكيل هيئة للمنتفعين بقناة السويس.

ثم عُقد مؤتمر لندن الثاني لمناقشة فكرة تشكيل هيئة المنتفعين بقناة السويس.

الحرب!

هاجم الجيش الإسرائيلي منطقة الكونتيلا، على الحدود مع فلسطين. واصل تقدمه إلى داخل سيناء، وتكشفت المؤامرة بالإنذار الذي وجهته الدولتان، تطلبان انسحاب القوات المصرية إلى مسافة عشرة أميال من القناة، وموافقة مصر على احتلال أراضيها بواسطة القوات البريطانية والفرنسية. أدركتُ أن الأمر مرتبط بدخول القوات الإسرائيلية سيناء في اليوم السابق.

انعكس تأثير الإنذار الأنجلو فرنسي على الناس في أسواق الحجاز، كأن ما يحدث يخص الجميع، ماذا تُضمر الدولتان؟ ماذا تخفي الأيام؟

رفضت مصر الإنذار الفرنسي البريطاني، أدرك عبد الناصر أن الهدف من الإنذار هو حصار الجيش المصري في سيناء، أُعجبتُ بقراره سحب القوات المصرية إلى الضفة الغربية من القناة، فلا تواجه مصر هزيمة قاسية.

بدأ الهجوم البريطاني الفرنسي على مصر، قطعت مصر عَلاقتها بالدولتين. لم يعد ما حرص الفرنسيون والإنجليز على إخفائه كذلك، يحدث تدخل لفض الاشتباك، ثم يتبعه احتلال القناة، والقضاء على عبد الناصر. لا أزال أذكر موقع مبنى البريد المتهدم، خلف ميدان المنشية. حادثة أخطر من كل ما أصاب الإسكندرية في الحرب العالمية الثانية.

لم أصدق روايةً زعمت أن صلاح سالم اقترح على عبد الناصر أن يسلم نفسه للسفارة الإنجليزية، كان العدوان — في تصور صلاح سالم — يستهدف عبد الناصر شخصيًّا. صلاح سالم، الخطب الرنانة، والرقصات العارية في السودان، والشخصية التي تكاد تحتل الموقع الثاني في ترتيب الضباط الأحرار، يدفعه التخاذل إلى حد المطالبة بإعادة مأساة عرابي، فيسلم عبد الناصر وسلاحه إلى الإنجليز؟!

أفضى التدخل العسكري إلى نتيجة لم يتدبرها الساسة الإنجليز، إلغاء الاتفاقية المصرية-البريطانية، واستيلاء مصر على القاعدة البريطانية في القناة.

تعطلت الملاحة في القناة بعد إغراق سفينة محملة بالأسمنت، انسحبت القوات المصرية من سيناء حتى لا تواجه خطر الحصار. أجاد عبد الناصر اختيار المكان الذي يلتقي فيه

المواطنين، ضربة معلم بدد بها غيوم التشكيك في يقينه الديني، أعلن — من فوق منبر الأزهر — أن مصر ستقاتل، ولن تستسلم، سيحارب الشعب المصري ضد العدوان الثلاثي من بلد إلى بلد، ومن بيت إلى بيت. كرر الشعار: سنقاتل ... سنقاتل ... ولن نستسلم.

تلا خطاب عبد الناصر صدور قرارات باسترداد منابع البترول المصري من الشركات الأجنبية، وفرض الحراسة على المصالح البريطانية والفرنسية في مصر، والتحفظ على ممتلكات ما يقرب من ستة آلاف مقيم أجنبي، معظمهم من اليهود الذين يحملون جوازات سفر أجنبية. يدخل في القرارات استيلاء مصر على العتاد الحربي في قاعدة قناة السويس.

أخلى الكثير من تجار العطارة والخضار والفاكهة والأدوات المنزلية دكاكينهم، أحالوها مخازن يودعون فيها الأثاث الذي باعه سكان الإسكندرية من الأجانب قبل أن يرحلوا إلى بلادهم، أسر بأكملها من العطارين والأزاريطة والرمل، ظهر ما لم يكن موجودًا من محالِّ بيع الأثاث القديم، حققت الثراء لمن اعتادوا رزق يوم بيوم.

ما حدث تتمة لتأميم القناة، واستشراف آفاق قريبة يصبح فيها اقتصادنا مصريًّا بحق وحقيق.

فكرة الجامعة العربية طرحها في ١٩٣٦م وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن، لا أعرف الهدف الحقيقي من الفكرة، لكنها حققت تقاربًا كانت أقطار الوطن العربي في حاجة إليه. ثم جاوزت — بتوالي التطورات — مجرد التقارب، رقت إلى ما يشبه الوحدة. في أواخر سبتمبر ١٩٥٦م وجدتني بالقرب من الأحداث، نقلت وسائل الإعلام السعودية لقاء الرياض، حضره الملك سعود والرئيسان عبد الناصر والقوتلي، الاهتمام ينعكس في اللافتات والتجمعات والمناقشات، بدا التأييد مذهلًا في إعلان الرياض: فتح الموانى السعودية لقطع الأسطول الحربي والتجاري، قطع البترول السعودي، منع تزويد ناقلات البترول الإنجليزية والفرنسية في موانى السعودية. هزني تبادل الإذاعات العربية نداء «هنا القاهرة». إذاعة القاهرة من عَمَّان ... إذاعة القاهرة من دمشق ... تناثرت تعليقات هامسة عن عمليات نسف لأنابيب البترول في الأراضي السعودية. أحسست بالعزوة والمؤانسة والطمأنينة.

الصواريخ الروسية هي المانشيت الذي طالعتنا به الصحف، إنذار موسكو بعمل عسكري ما لم تنسحب القوات المعتدية خلال ثلاثة أيام. خامر الشيخَ خيري الشحات قلقٌ للنبأ الإضافة بأن الاتحاد السوفييتي ربما يأذن لمتطوعين بالسفر إلى مصر للمشاركة في الدفاع عنها.

قلت: وأنت ... ألم تقلق؟

عبد الناصر أعلن من فوق منبر الأزهر — للمرة الثانية — أن الاستعماريين فرضوا علينا القتال، لكنهم لن يفرضوا علينا الاستسلام.

داخلني خوف لتوزيع السلاح على المواطنين، من يضمن عدم انفلات الأعصاب في خلافاتنا الشخصية؟

قال لي الشيخ خيري الشحات ونحن نستمع إلى راديو علا صوته في سوق البطحاء: السلاح في أيدي الناس هنا، وفي بلاد أخرى … لماذا نتصور انعدام الوعي في المصريين؟!

بدت معركة البرلس مَعلمًا مهمًّا. أحدثت الزوارق المصرية إصابات مباشرة في الطراد الفرنسي جان بارت، خاضت الطائرات الفرنسية معركة لإنقاذه قبل أن تبتلعه الأمواج، استُشهد غالبية طاقم الزوارق المصريين.

تملكني القلق لتصريح بن جوريون في الكنيست: إن سيناء لم تعد تابعة لمصر، وإن ما بين إسرائيل ومصر قد انتهى أمره، وما يتعلق بالحدود بين البلدين غير شرعي ولا قانوني.

طبيعي أن ننهزم في مواجهة جيوش ثلاث دول، غير الطبيعي — والذي يُحسب للمصريين — أنهم احتفظوا بإرادتهم، فلم تنكسر.

هل كان انسحاب الدول الثلاث نتيجة الإنذار الروسي، أو التحذير الأمريكي؟

المهم أن الانسحاب تم، وهزيمة عبد الناصر تحولت إلى عيد للنصر. أعجبني التعبير: إن التحالف الأنجلو فرنسي للغزو انتهى قبل أن يبدأ. سعى إيدن لإسقاط عبد الناصر، هو الذي سقط. تعززت مكانة عبد الناصر بدلًا من إسقاطه، انتزع النصر من هزيمة الجيش المصري، تضاءلت — في المقابل — مكانة إيدن، اضطُر للابتعاد عن الحياة السياسية، حتى غاب عنها تمامًا، سبقه أو لحقه جي موليه رئيس الوزراء الفرنسي. كشفت إعادة انتخاب أيزنهاور رئيسًا للولايات المتحدة — بأغلبية لافتة — أكذوبة اللوبي الصهيوني الذي يعين الرؤساء ويستبدلهم، تصورت أن تلك النتيجة ستمثل دافعًا للعرب كي يعمقوا وجهات نظرهم في الحياة السياسية الأمريكية.

في ذلك العام، لم تعد صورة الروس الحلفاء للشعوب الضعيفة، هي الباقية في ذهني، داخلتها صور أخرى بشعة لأحداث المجر، قضى الروس على ثورة الشعب المجري بالعنف ومذابح الدم.

كيف يدافع عن حق شعوب في الحرية، ويسحق شعوبًا أخرى، لأنها طالبت بالحق نفسه؟!

تابعت — في إقامتي بالحجاز — عودة الأروام والإيطاليين إلى بلادهم. لم يَدُر في بالي أن الإسكندرية ستخلو منهم، فهم في المتاجر والمكاتب والبيوت والمقاهي والمدارس والشوارع. حتى الأندية الرياضية مثلت عضويتهم فيها وجودًا أتذكره. كان النادي اليوناني يشارك أندية الإسكندرية مباريات الكرة.

الأرقام تتحدث — وأنا قارئ لا بأس به — عن نسبة الإنجازات التي تحققت في مصر بين ١٩٥٧–١٩٦٧م، حددها البنك الدولي بحوالي سبعة في المائة كل عام، رقم هو الأعلى في اقتصاد دول العالم آنذاك، سواء كانت دولًا متقدمة أم نامية، وهو رقم يبلغ أربعة أضعاف ما تحقق في فترة ما قبل حركة يوليو.

انخفضت نسبة الأمية من ٨٠٪ إلى ٥٠٪. حدث تقارب في الرواتب بين الطبقات العليا والأدنى، كان الجنيه المصري يساوي ثلاثة دولارات ونصفًا، ويساوي أربعة عشر ريالًا سعوديًّا، والجنيهات الأربعة تساوي جنيهًا من الذهب. شهدت الأسواق عروضًا لمنتجات مصرية لم تكن موجودة. وأشير — بالمناسبة — إلى أن اقتصاد مصر كان أقوى من اقتصاد كوريا الجنوبية، أين نحن منهم الآن؟ وأين هم منا؟!

بدا لافتًا وضع واشنطن القوميين العرب والشيوعيين العرب في سلة واحدة، بينما كانت السياسة الناصرية تبين عن ملامحها القاسية في استضافة آلاف الشيوعيين في المعتقلات، ما لم ينتبه إليه الأمريكان أن الشيوعية ترفض القومية. قبل أن يرحل ستالين في ١٩٥٣م كان قد أجرى عمليات تذويب بشعة للقوميات في جمهوريات الاتحاد السوفييتي.

ألغى عبد الناصر تصور الكثيرين أنه صديق لواشنطن، غاب توقع رفضه مشروع أيزنهاور لملء الفراغ.

قوات عسكرية مصرية، أُرسلت إلى سوريا، لتأكيد وقفة مصر ضد الحشود التركية على حدود سوريا. ما حدث كان مدخلًا لتعليقات وتعقيبات وملاحظات، جعلت من الوحدة بين مصر وسوريا محورًا لها. كتمتُ رأيي فيما أثير أمامي من مناقشات. كانت الرياض غاضبة على الكثير من التصرفات السورية، ورفضها معلن لما سُمي زعامة عبد الناصر للقومية العربية.

أذكر تفصيلات المناسبة جيدًا: كنت أفاصل تاجرًا في سوق الديرة (يرى السعوديون أن الفصال بعض ما أخذوه من المصريين) حين أعلن زكريا محيي الدين نتائج الاستفتاء على الوحدة بين مصر وسوريا، وعلى رئاسة الجمهورية العربية المتحدة (سألت نفسي: هل انتهت تسمية مصر؟!) الفرق مذهل بين الموافقين والمعارضين، لكنني صدقت. كان

الشعور العامُّ مهيَّأً للقومية العربية، الدعوة التي تلقفها عبد الناصر آنذاك، صدى الحدث في الرياض لم يكن في مستوى الصور التي نقلتها الإذاعات خارج المملكة، لم تُصدر الرياض بيانًا بالتأييد أو العكس، ظل كل شيء على وتيرته في حياة الناس. هل تعود دولة الخلافة؟ هل يعيد العسكري عبد الناصر إلى الحياة ما أماته العسكري أتاتورك؟ تمنيت لو أن الوحدة تحققت من تحت، لا من فوق، لو أن الشعب في مصر وسوريا هو الذي طالب بها، وليس مجموعة من الضباط المتحمسين. اعتبرت قيام الوحدة خطوة أولى تستكمل اتزانها بقادم الخطوات. أحاط إقليما دولة الوحدة — من الشمال والجنوب — بإسرائيل، صارت إطلالتها الآمنة على البحر المتوسط. قرأت حوارًا مع الزعيم التركي عصمت إينونو، يحذر من أن تطالب سوريا — في ظل دولة الوحدة — باستعادة لواء الإسكندرونة.

نقلت إذاعتا القاهرة ودمشق — أيام يناير — هتاف المتظاهرين في المدن السورية: «عاوزين وحدة باكر باكر ... ويَّا الأسمر عبد الناصر.»

الاستفتاء على الوحدة أُجريَ في اليوم السابق، أسفر عن أغلبية هائلة لمؤيدي قيام الدولة الجديدة.

تابعت زيارة عبد الناصر لدمشق. حرص — لدواعٍ أمنية — على تكتم الزيارة، وكما أذيع، فقد فاجأ شكري القوتلي في بيته بأبي رمانة. لم يكد النبأ يذاع حتى أحاط عشرات الألوف بمنزل بيت القوتلي، تطلب رؤية عبد الناصر. لما حاول موكبه الانتقال إلى قصر الضيافة القريب، أصرت الحشود على حمل سيارته حتى القصر، وبدأ عبد الناصر في إلقاء خطبه التي أحدثت تغيرات عميقة في المنطقة.

لم أحاول السؤال والتعقيب، ولا الأخذ والرد، لم أحاول — لظروف أثق أنك تدركها — حتى سماع الراديو خارج البيت، بعد أن كشف عبد الناصر رشوة الملك سعود لعبد الحميد السراج حتى يدبر انقلابًا على الدولة الوليدة.

ظهر الترانزستور في الأسواق، وجدت فيه تعويضًا عن غياب الراديو خارج البيت، أدير مؤشره بين المحطات، ألتقط البرامج، أَعْبر ما لا يهمني، أُرهف السمع لنشرات الأخبار. عرَفت — بتوالي الإجازات — أن الحنين يزيد بالعودة إلى بحري، والرحيل عنه. ربما كانت المشاعر تهدأ لو أن الإقامة في الرياض تواصلت، لو أن المرء ظل في الهجرة، يخبو الحنين، يبدو كذكرى بعيدة.

أحببت خالد محمد خالد، وجدت فيه منذ كتابه «من هنا نبدأ» مثلًا للداعية الذي تمنيت أن أكونه، دافع عن صحيح الإسلام والحرية والاستنارة. أضافت كلمات المواجهة بينه وبين عبد الناصر — في مؤتمر سياسي بثه التلفزيون — تقديرًا مضاعفًا للرجل.

حضر عبد الناصر — للمرة الأولى — اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، التقى كاسترو وخورشوف وأيزنهاور وغيرهم من زعماء العالم آنذاك، صورة جديدة للعمل السياسي المصري لم نرها من قبل، عدا هتاف النقراشي ضد الإنجليز في مجلس الأمن: «اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة!»

لا أذكر أين كنت لما ترامت موسيقى عسكرية، أرهفت السمع لبيان من الراديو، بصوت عبد الناصر.

الانفصال!

ضاعت أحلام الخلافة، والقومية العربية، والوحدة العربية. لم يبق إلا حلم التخلص من الهزيمة. لفت نظري أن قادة الانقلاب من ضباط مكتب عبد الحكيم عامر في دمشق عبد الكريم النحلاوي وعبد الغني دهمان وموفق عصاصة. لا أعرف سر تبدل لغة عبد الناصر من الإصرار على إنهاء الانقلاب، ثم أمره بإلغاء تحرك القطع البحرية المصرية إلى اللاذقية، وقوله — إنهاءً لدولة الوحدة: ليس المهم أن تبقى سوريا جزءًا من الجمهورية العربية المتحدة، المهم أن تبقى سوريا.

خشيت أن يجر الانفصال عبد الناصر إلى تصرف غير محسوب، يخوض حربًا ضد إقليم يبعد — بمسافة طويلة — عن عاصمة الدولة، لسنا إنجلترا وجزر الفوكلاند. أدركت صواب قراره حين اعترف الكثير من الأقطار العربية بدولة الانفصال، ربما بدأ غزل نسج خيوط التآمر من خارج سوريا.

أهم أحلام العرب، ضيعه الحكام، والمحسوبون على النظام في الداخل، لو أن دولة الوحدة استمرت، وقويت، واتسعت، ما ظلت عربستان في يد الفرس، ولا الإسكندرونة في يد الأتراك، ولا فلسطين في قبضة اليهود.

هل انتهى الحلم الجميل؟!

بدا الميثاق القومي مفاجأة، يلتزم بالاشتراكية والقومية العربية. العديد من القوانين — منذ أوائل الستينيات — كنت أدعو لها في خطبي: تخفيض الحد الأقصى للملكية الزراعية، تحديد الإيجارات الزراعية والعقارية، تأميم المؤسسات الكبيرة وشركات المقاولات، تمصير البنوك، تخصيص نصف مقاعد المجالس المنتخبة للعمال والفلاحين، وإدخالهم أعضاء في مجالس إدارات الشركات، مشاركة العمال في الأرباح، منع الفصل التعسفي.

حدث في إجراءات التأميم ما يصعب تصديقه. روى لي عم سيد النن أول الموازيني — في إجازة صيف — إن تسميته لدكان الصحف والكتب القديمة «الشركة الوطنية للمطبوعات»

أغرت مسئولي إجراءات التأميم، لم يتبينوا الخطأ إلا بعد أن داخ الرجل في البحث عما ينصفه.

قانون تنظيم الصحافة، مؤشر لتوقعات قد تجعل من مبادئ الثورة نكتًا سخيفة، أدركت أن المعنى الحقيقي لتنظيم الصحافة هو تأميمها، تصبح ملكًا للدولة، تدعو لها، تختفي المعارضة لأن صحفييها صاروا موظفين في الدولة، لن يسمح النظام لموظفيه أن ينتقدوا.

لو أن ثورة يوليو تأخرت قليلًا، ربما صنعت قيادة بلا ضباط.

لما أُعلنت الثورة في اليمن، كتمتُ محاولاتي للسؤال عن حقيقة ما حدث. تكلمت الإذاعات عن السلال والبيضاني وعلي عبد المغني وأسماء أخرى لا أذكرها. بدا رد الفعل في الرياض — عقب إعلان الثورة — متحفظًا، أو رافضًا. من يضمر تأييده قد يخشى البوح، لم أحاول الأخذ والرد حتى مع اليمنيين الذين أصادفهم في أسواق الرياض. المَلَكية تساند الإمامة، الجمهورية نُذُر أوضاع خطيرة في الجزيرة العربية. إذا كانت الجمهورية العربية المتحدة تحمي الجمهورية اليمنية الوليدة، فالبديهي أن تحمي المَلَكية في السعودية حكم الأئمة في اليمن.

اعتدتُ التوتر الذي تحدثه الخلافات بين المسئولين في القاهرة والرياض، جاوزت — في عملي — احتمالات المعاملة السيئة والإبعاد عن السعودية، أضاف إلى هدوء مشاعري ثبات نفسيات زملائي في ديوان الأوقاف، والمواطنين في الأماكن التي أتردد عليها، لا أحد يتكلم، أو يبدي ملاحظات، تتسلل بالقلق إلى نفسي. بدا التأييد المصري لثورة اليمن — وربما تحريضه على قيامها — ردَّ فعلٍ لانفصال سوريا. خاض الجيش المصري حربًا ضد قوات الإمام الذي كانت تؤيده العربية السعودية. عرَفت من إذاعة القاهرة (كانت الصحف ممنوعة من دخول السعودية) ما يعانيه الجيش المصري في جبال اليمن، ما صنعه التآمر وإنفاق الأموال وشراء القبائل، تواصَلَ النزف سنوات متتالية، وهو ما أثر — فيما بعد — في هزيمة يونيو. أمضيت في الرياض سنوات من الحرج، عانيت — شخصيًّا — حين ساءت العَلاقات بين مصر والسعودية، الود يغيب حتى في النظرة إلى العمامة والجبة والقفطان، كان للزي الأزهري هيبته، وإن صدمت أذني تعليقات متناثرة، ملمِّزة عن كفر المصريين، وديكتاتورية عبد الناصر.

الملك فاروق مات.

نقلتني قراءة الخبر إلى الإسكندرية؛ إلى سيدي علي تمراز، الملك يتقدم حاشيته لأداء صلاة الجمعة. أَلِف سكان البيوت المطلة على الجامع رؤية الملك يقود — بمفرده — سيارته

الحمراء في طريق الكورنيش، خيالة سراي رأس التين في جولتها الصباحية، المواكب الرسمية من باب الجمرك إلى داخل المدينة، تلك الزيارة أول توقف لموكب الملك في ميدان «الخمس فوانيس». أُخْلِيَ الميدان من الحصير، ومن المصلين، فُرِشَ السجاد داخل المسجد، وجدت نفسي — للمرة الأولى — أؤدي واجبًا رسميًّا، أقف لاستقبال جلالة ملك مصر والسودان وبلاد النوبة وكردفان، هذا هو لقب الملك آنذاك. تقدم الموكبَ راكبو الموتوسيكلات، تلتهم سيارة الملك، وسيارات الياوران، والحرس الملكي. أحسست بغربة وسط العشرات من ذوي البدل الأنيقة والطرابيش، عدا قلة من علماء الأزهر والأوقاف. لو أن السلام الملكي عزف قبل الزيارة، ربما تبدل معنى صلاة الجمعة.

قلت: أراد استمالتك بالخِلعة؟

قال: لم أرفض الخِلعة، فهي هدية من الحاكم، لكنني لم أتوقف عن انتقاده!

وأطلق ضحكة رائقة: تأملت ما رُوي عن ظروف وفاة فاروق: هل كانت طبيعية نتيجة بدانته المفرطة، أو أنه مات مسمومًا بأيدي مخابرات عبد الناصر.

– إذا كان ابن ناظر الوقف يتولى النظارة من بعده، فإن وراثة الابن لمشيخة الطريقة صحيحة تمامًا.

خرج المصريون للتظاهر بعد أن رفع رئيس الوزراء زكريا محيي الدين سعر أُقَّة الأرز مِليمين. اعتاد الناس خفض الأسعار لا رفعها، عرَفوا قيمة السد العالي بتنزيل أسعار الكهرباء، وتكونت لجان درست إيجارات المساكن، وخفَّضت الإيجارات وفق قواعد قانونية واجتماعية، زكريا محيي الدين من أقرب معاوني عبد الناصر، عزَله ليرضي الناس. مثلما استجاب عبد الناصر لمظاهرات رفع الأسعار، فقد استجاب — فيما بعد — لمظاهرات الطلبة في ١٩٦٨م. أعاد عبد الناصر محاكمة قادة الطيران، وأصدر بيان ٣٠ مارس، احتوى غضبة المصريين، كان ذلك آخر عهد عبد الناصر بالمظاهرات، وإن تكررت بصورة لم تحدث من قبل في الحشود التي خرجت لوداعه.

الذكريات هي ذكريات، تحزن لاستعادتها، أو ترفُّ على شفتيك ابتسامة. الهزيمة أمام إسرائيل في ١٩٦٧م أسوأ ما أتذكره، أقرب إلى الزلزال، أو الطوفان، أو الإعصار، ربما يختلف الإحساس بفداحة المأساة لو أن البدايات أفضت إليها. لم أتصور أن التباهي بالقوة سينتهي إلى دمار.

لم تكن كل التطورات السياسية والعسكرية التي سبقت الحرب سببًا في قيامها، ربما كانت مدخلًا للحرب. الطريق إليها بدايته في أعقاب ١٩٥٦م. أذكر تصريحًا لأبا إيبان وزير

الخارجية الإسرائيلي — آنذاك — يطالب العرب بقبول السلام المتاح عقب زوال العدوان، أضاف إن ما يرفضه العرب بعد ١٩٥٦م ربما تمنوا قبوله بعد ١٩٦٧م، حدد السنة التي شنت فيها إسرائيل حربها.

كان إغلاق مضيق تيران، وإغلاق باب المندب وخليج العقبة، وسحب قوات الأمم المتحدة من سيناء، وغيرها، مدخلًا إلى الحرب، المقدمة الحقيقية أعقبت انسحاب الجيش الإسرائيلي من شبه الجزيرة. سعدت — مثل كثيرين — بإغلاق عبد الناصر خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية. لم أكن أعرف — مثل كثيرين كذلك — أن السفن الإسرائيلية تعبر الخليج منذ عدوان يونيو.

لماذا أخفى عبد الناصر هذه الفقرة في اتفاق الانسحاب الإسرائيلي من سيناء؟ وهل ثمة أسرار أخرى لا نعرفها؟

لا أذكر أني عاديت اليهود، كان لي في الإسكندرية منهم معارف وجيران، لم أنظر إليهم بتشكك حتى عندما نشبت المعارك بين الفلسطينيين واليهود، لفَّني اطمئنان أنها شدة وتزول، وأن فلسطين ستعود للعرب ولليهود بعيدًا عن الصراعات اليهودية، لكن الاطمئنان زايلني منذ تحولت العصابات اليهودية إلى دولة تدعمها الدول الكبرى بالمتطوعين والأسلحة، ثم اقتحم الخطر حياتنا بعدوان ١٩٥٦م، ثم في الأعوام التي أعقبته، حتى الآن.

ربما اتخذت إسرائيل لحظة بدء العدوان عند الإعلان عن موعد أول تصدير للبترول المصري في يونيو ١٩٦٧م. بدا أفق التقدم واضحًا. قرأت — فيما بعد — أن العسكريين الإسرائيليين أرادوا الحرب، كانوا يتطلعون إلى خطوة تالية، جديدة، للدولة العبرية ما بين النيل والفرات.

هل كان عبد الناصر جادًّا في دفع القوات المصرية إلى سيناء؟ هل كان مستعدًّا لخوض الحرب؟

أكبر الأخطاء أن قبائل اليمن كانت تستنزف نصف قوات الجيش المصري، وهو ما رتب عليه الإسرائيليون خططهم. كنت قرأت عن خطتين، تقتصر أولاهما على الأهداف العسكرية، ومدتها سبعة أيام، وثانيتهما في يومين، لا تفرق بين الأهداف العسكرية والمدنية. نقلت الإذاعات هتاف المتظاهرين في الشوارع: «يا ناصر يا حبيب ... بكرة تدخل تل أبيب.» تأكد ما كان مرجَّحًا بتشكيل الوزارة الائتلافية أول يونيو برئاسة ليفي أشكول، وعضوية مناحم بيجن وموشي ديان وقادة آخرين. بدت الحرب حتمية بإعلان إسرائيل التعبئة العامة، مجتمع عسكري يسهل تجميع قواته، الصعوبة في استمرار التعبئة، إذا لم يحقق الجيش المصري نصرًا خاطفًا، فإن إطالة أمد الحرب ضرورة لهزيمة إسرائيل.

في الخامس من يونيو اجتاحت قوات إسرائيل سيناء. المساعدة الأمريكية أغنتها عن الاستعانة — كما حدث في ١٩٥٦م — بالقوات الفرنسية والإنجليزية. توقفتُ — مثل عشرات — لأنصت إلى أحمد سعيد، يهدر بالانتصارات المتلاحقة التي جعلت الانتصار النهائي في قبضة اليد، تكلم عن مشاركة السعودية وأبوظبي والعراق وغيرها من أقطار العرب، الطائرات المتساقطة كشهب متلاشية، دُمِّرَ أكثر من خمسة وسبعين في المائة من طيران إسرائيل، ذلك كله يعني اقتراب استعادة فلسطين. لم أصدق إذاعة صوت العرب في أحيان كثيرة، لا أنسى زعيق أحمد سعيد: أبوظبي دخلت المعركة! ... لكنني أُعجبت بتأثير الإذاعة في تحريك ملايين العرب. أحرص أن يعلو الترانزستور بصوت أم كلثوم، أتظاهر بإغلاقه، وإن تركته مفتوحًا حد الهمس.

أفزعتني صرخة مصري تعاقد على العمل في السعودية بعد إحالته إلى الاستيداع في الجيش. أعلنت إذاعة القاهرة أن قواتنا تراجعت إلى خط الدفاع الثاني، صرخ: انهزمنا! وضع رأسه بين كفيه، لا يأبه بكلمات التوبيخ والتأنيب وتهمة الخيانة. لم يكن إسقاط العدد الهائل من الطائرات إلى خط الدفاع الثاني سوى محاولة لطمأنة الجبهة الداخلية، كل شيء استقر لصالح إسرائيل في إغارات الطيران الإسرائيلي على المطارات العسكرية، وتحطيم الطائرات في قواعدها.

صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار، تشككتُ في كل ما استمعت إليه من أحمد سعيد وغيره، استبدلت الإذاعة أغنية محمد فوزي «وطني وصباي وأحلامي» بأغنيات أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وفايدة كامل عن تجاهل الأمريكان، والطيور الجارحة التي تنهش لحم الأعداء، والرجوع بقوة السلاح لتحرير الحمى ... استبدلت الإذاعة أغنية فوزي بتلك الأغنيات، عرَفت أن الهزيمة حلت بنا. عبارات قليلة أشرنا بها — في ديوان الوزارة — إلى الأحداث القاسية، الصمت فرض نفسه على دردشات الأسواق، وإن لاحظت الجهامة على الوجوه، والتثاقل في الحركة، والأسى يطل من الأعين. لم يعد الترانزستور يفارقني، أضعه أمامي، أدنيه من أذني، أحرك مؤشره بين المحطات، أرفع صوته، وأخفضه، نتبادل الأخبار، يسرقنا الوقت في مناقشات لا تنتهي، يتغلب التمني حتى على ما يذاع من أخبار الهزائم. تأثير الأخبار في الغربة، تصورها، يختلف عما لو أنك لم تغادر بلدك. لمحت الأسى في أعين العرب الوافدين إلى السعودية، حتى من عادَى حكامَهم عبدُ الناصر، اعتبروا الهزيمة مصيبة عربية.

ما أثار دهشتي أن القيادة المصرية كررت قرار عدوان ١٩٥٦م بالانسحاب من سيناء. تغافلت اختلاف الظروف، بداية من ضرب الطائرات في قواعدها، وحصار القوات المصرية

داخل سيناء. معلوماتي في العسكرية لا تزيد عن الصفر، لكن القرار قبول بالانتحار. أذهلني غياب خطة اليوم الواحد لاستعادة أرض فلسطين، وخطة الأيام الثلاثة التي تبتعد عن المناطق السكنية. حلت — بدلًا من الخطتين — خطة إسرائيلية، استولت على كل شيء في ساعات قليلة.

مأساة!

كنت في الرياض أثناء الحربين؛ عدوان ١٩٥٦م، وما سُمي النكسة. اختلفت الصور بين ما كان وما حدث، قيل إن الديوان الملكي السعودي أعطى إشارة البدء لحرب النكسة إلى الرئيس الأمريكي جونسون. في العدوان كانت وقفة السعودية إلى جانب مصر، قطعت إمدادات البترول تسعة وعشرين يومًا متصلة، منعت تزويد ناقلات البترول الإنجليزية والفرنسية في موانئ السعودية، وضعت مطاراتها تحت تصرف الطيران المصري، فتحت الموانئ البحرية أمام قطع البحرية المصرية، بالإضافة إلى إقبال عدد كبير من المواطنين السعوديين على التطوع في الجيش المصري، منهم — فيما أذكر — الأميران (الملكان) فهد وعبد الله.

لم تعد القيادتان المصرية والسعودية على وفاق، جعلتهما حرب اليمن في موضع العداء الصريح، الطبع العربي الذي لا يعرف سوي خصومة المنافرة والتآمر، نتحدث عن التكاتف الدولي، ونعجز عن لم شتاتنا المبعثر.

سألني خيري الشحات: هل تتوقع أن يواصل الإسرائيليون تقدمهم إلى داخل المدن المصرية؟

قلت من فمٍ ملأَتْه المرارة: إنهم أذكى من أن يلقوا بأنفسهم في بحر الملايين، سيفقدون ما حصلوا عليه في صحراء خالية.

ربما اختلف توقعي لو أن موشي ديان سمَّى شخصًا آخر غير عبد الناصر في جلوسه إلى الهاتف ينتظر مكالمة الاستسلام. لي في عبد الناصر رأيٌ منذ وقف على منبر الأزهر في ١٩٥٦م، ليرفض العرض الفرنسي الإنجليزي، وجنود الدولتين في القناة، وقوات إسرائيل في أرض سيناء.

صدقت عبد الناصر حين أعلن — في التلفزيون — اعتزاله الحكم، أدرك جسامة الحدث، وأن الكلمات الوردية لن تحيل الهزيمة نصرًا. لم يعد عبد الناصر الذي اعتدت رؤيته: الوقفة العملاقة، الواثقة، العينان البراقتان تُصدران وميضًا كالسحر، الخطب التي تحسن اختيار النبرة، والكلمات تُدين، تنتقد، تعاير، تتحدى، تحرض، تدعو إلى الثورة،

تخلق جسرًا من العَلاقة الحميمة بين الرجل ومستمعيه. حلَّ تخاذُلٌ ونبرات حزينة وعجز عن الفعل.

كنت أسبق التهيؤ لسماع خطبته الجديدة بالقول: سيكذب، ويفلح في إقناعي!

شغلني السؤال: كيف تعترف بإغراق المركب، وتكتفي بالاعتذار عن مسئوليتك فيما حدث؟

كنت في الحجاز. لو أن ما جرى أثناء إقامتي في مصر، ربما كنت سأخرج مع المتظاهرين، أردد هتافاتهم برفض الاستقالة. لم تكن المظاهرات مدبَّرة، أبلغتني رسالة من زين العابدين أنه شارك فيها، نزل الشارع من نفسه، بلا تحريض من أية جهة، ولا أي شخص. هذه المظاهرات الهائلة، هل عرَف المشاركون فيها حجم الهزيمة؟ هل طالبوا عبد الناصر بالعودة انسياقًا وراء وهم القوة، وأنه يستطيع أن يعيد كل شيء إلى ما كان عليه؟

العاطفة دفعت كثيرين إلى الخروج في المظاهرات المطالبة بعودة عبد الناصر، لكن الكثيرين كذلك خرجوا لمطالبته بالبقاء، حتى يعالج المصيبة التي أسهم في صنعها.

كنت أحرص على قراءة أهرام هيكل، هذه هي التسمية التي كان باعة الصحف يدعونها بها. عدا الأخبار الصغيرة، المهمة، التي كان يُخرج بها يده من جيب عبد الناصر، ومقاله الأسبوعي، فإن الأهرام كانت أقل إرضاءً للقراء من الصحف الأخرى. خلت من هموم الناس اليومية، ومشكلاتهم. حرصت على أهرام الجمعة، وعلى جريدة أخرى بقية أيام الأسبوع، أتعرف — في الصحف — إلى تطورات حياتنا اليومية، وفي الأهرام إلى اتجاهات ريح السياسة في الداخل والخارج. لم أكن أطرح الاتفاق والاختلاف، إنما كان يشغلني السؤال: إلى أين تمضي مصر؟!

كان التليفون أداة المكالمات الشخصية الوحيدة، لم نكن عرَفنا المحمول والسكايب وغيرها من الوسائل التي يسَّر لي الأحفاد استعمالها، وإن لم أحاول التعرف إلى دقائقها. تبدلت وسائل الاتصال، قلَّت رسائل البريد والمكالمات الهاتفية في صورتها القديمة. حلَّت — بدلًا منها — وسائل البرق والفاكس والتلكس والإنترنت، حاولتُ أن أفيد منها بما أقدر على فهمه، والتعامل معه، أو ألجأ إلى من يُحسن استخدامها.

أُحبُّ الرسائل المكتوبة بخط اليد، أتبين فيها تمتُّع الكاتب بالعافية. أما رسائل تقنية الاتصالات فإن من نقلت كلماته قد لا يكون هو الذي كتبها بخطه.

ما كان في أفق التشوش صار واضحًا، أدركت معنى قبول مصر وقف إطلاق النار بغير شروط، أحاول متابعة ما يجري، بدا لي الجيش — على البعد — أملًا يُرتجى، لكن

الأمل تقوض في ذلك اليوم. بعُد عن التصور أن السوس نخر في داخل الجيش، عرَفت أن المرض تفشى في الجسد كله، لم أكن أملك تفسيرًا لما حدث، التيقن من أن النصر تحول — بلا سبب — إلى هزيمة قاسية. أضفت إلى قول ديجول بأن المعركة أمريكية والأداء إسرائيلي، ما أثبتته التطورات من أن التحريض كان — للأسف — عربيًّا. زال — في ساعات — شعار تحرير فلسطين من البحر إلى النهر. حل — بدلًا منه — واقع الاستيلاء على أراضي ثلاث دول عربية. تمكنت القوات الإسرائيلية من احتلال الضفة الغربية والقدس، عاد شرقي الأردن — في يوم واحد — إلى حجمه الأول. زاد الوضع تفاقمًا — بعد ثلاثة أيام — بالاستيلاء على هضبة الجولان السورية.

من صنع المؤامرة: هل هو المخطط الصهيوني الذي أجاد الاستعانة بقوى الغرب؟ أو أن الولايات المتحدة أجادت التخطيط، وتركت التنفيذ للقوات الإسرائيلية، أو أن المعلومات المضلِّلة بوجود حشود إسرائيلية على حدود سوريا دفعت مصر لخوض حرب لم تكن مستعدة لدخولها؟ أو أنه قرار عبد الناصر بإغلاق مضيق تيران؟

أذكر قول عبد الناصر إن إغلاق المضيق لم يكن هدفه فرض الحصار على ميناء إيلات، أو إغلاقه، إنما العمل على إفناء إسرائيل.

تساقطت شعارات كنا نكتفي بترديدها، مثل كلمات الأغنية: من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر، لبيك عبد الناصر، ثبت أن تلبيتنا اقتصرت على مقولة عبد الحكيم عامر: رقبتي يا ريس!

لم تقنعني كذلك تعبيرات: لا صوت يعلو فوق صوت المعركة، خسرنا معركة ولم نخسر الحرب، إزالة آثار العدوان، بقاء النظام الثوري ... اختفت تلك التعبيرات في ظلمة الهزيمة، غاب الفعل والتهيؤ للفعل، لم تعد إلا ردود الأفعال.

إن مارست الدولة القهر في الداخل، صعب عليها رد الغزو الخارجي.

تغاضيت عن قول الشيخ خيري الشحات في تلهفنا لمتابعة الأنباء. كانت حواراتنا عقيمة، لا أذكر منها الكثير.

اختلفتُ في أفعالٍ لعبد الناصر، لكنني وجدت في نكسة يونيو هزيمةً لكل الطموحات، حتى المشروع القومي الذي أعلن عن نفسه في كثير من المواقف، ران عليه ذبول.

تأثيرات ما حدث لم تقتصر على الهزيمة العسكرية، تهاوى المشروع الناصري كبيت رمل، لم تعد إسرائيل هي الجزيرة المحاطة بالأعداء، لكنها تمتلك الجيش الذي لا يُقهر، بدا الأفق ملبدًا بغيوم اليأس. كان يجب ألا تخيفنا الخسارة ... عافية الشجرة تأتي بتقليمها. تبينت في نفسي كائنًا سياسيًّا، وإن اقتصر عملي في الرياض على التبصير بمسائل الفقه.

عرَفت — فيما بعد — أن فضيلة الشيخ الشعراوي سجد لله شكرًا على هزيمة الجيش المصري. أكد عديد من الأصدقاء ما قاله الشعراوي، أغناني عدم المشاهدة عن إبداء الرأي، وإن كان من الصعب تقبُّل أن يتشفى المرء في هزيمة بلده، حتى لو كان الباعث خلافًا مع الحاكم.

لأن الوجدان الشعبي له منطق يصعب تفسيره، فلم يكن استقبال أبناء السودان لزعيم مهزوم، بل لزعيم رفض الهزيمة. تأثير كلمات التنحي خرج بالمظاهرات في المدن العربية، رفض الناس الهزيمة، هتفوا بحياة عبد الناصر، طالبوا بالثأر من إسرائيل، وتحرير الأرض. خرج القادة العرب من مؤتمر الخُرطوم بِلاءات ترفض الهزيمة: لا سلام مع إسرائيل، لا مفاوضات معها، لا اعتراف بها. أصر عبد الناصر أن يظل — أيام عدوان ١٩٥٦م — في القاهرة. لم أتصور أنه يرضخ لطلب موشي ديان بالجلوس إليه على مائدة المفاوضات، تأكد حدسي في لاءات مؤتمر الخُرطوم. لم يعد استمرار الخلاف بين القاهرة والرياض واردًا، تهيأتُ — دون قلق — للأسئلة والأجوبة والأخذ والرد، وإن أحزنني أن يلجأ الناس إلى الخرافة، يتوهمون رؤية السيدة العذراء على واجهة كنيسة الزيتون، يَلجئُون إلى السلال ليتعرفوا — من الأرواح — إلى صورة المستقبل، يطالبهم منجم في التلفزيون أن ينتظروا النصر القادم بلا عناء، ذلك ما وشت به حركات النجوم.

بدا الأمل في قيادة عبد الناصر للبلاد، بعيدًا عن الصراعات الشخصية، لما قدم عبد الحكيم عامر استقالة تالية لاستقالة عبد الناصر، ازدواجية سخيفة كان يجب أن تنتهي، لكن عبد الحكيم اعتبر مطالبة المصريين له بالبقاء في منصبه، مطابقة لمطالبة عبد الناصر بالمطلب نفسه. تابعت مراجعة عبد الناصر — تأخرَتْ كثيرًا! — لأحوال البلد. اعتبر ما حدث هزيمة في معركة، لا حرب، أجرى إصلاحات وتغييرات في القيادة العسكرية، قدَّم قيادات إلى المحاكمة العسكرية، اختفى الشتم والردح من وسائل الإعلام. صداقة عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، أبعدت تصوري أنه يزيح قائد الجيش من منصبه، الصراعات التي فاجأت الجميع انتهت بانتحار عبد الحكيم، أو مقتله.

لا صداقة في العمل السياسي، تلك هي العبرة التي خرجتُ بها من انتحار عامر، سواء باختياره، أم قُتِلَ بإجباره على تناول السم. أذكر أن الرجل قدم استقالته في اليوم التالي لإعلان عبد الناصر تنحيه عن الحكم. أعادت المظاهرات عبد الناصر حتى يعيد ترتيب البيت، تمنيت أن يعي الظروف القاسية، ويبتعد، فتغيب تهم الفساد التي كانت عنوانًا لكثير من تصرفاته. يقيم في بيته بالجيزة، أو في قرية أسطال، يترك للزمن تبديل الأحوال، لكنه اختار طريقًا خاطئة أوصلته إلى نهاية المأساة.

بداية المأساة — في تصوري — تعود إلى يوم تعيين الصاغ — الرائد في تسميات ما بعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا — عبد الحكيم عامر قائدًا للقوات المسلحة برتبة لواء. أُحيلت إلى الاستيداع — نتيجة ذلك التجاوز — غالبية الرتب الأعلى من الضباط. انعكس غياب الخبرات والقيادات في عدوان ١٩٥٦م. لم يكن قرار انسحاب القوات المصرية من سيناء حلًّا، لولا أن تلته مواقف الدولتين الأعظم، وقرارات مجلس الأمن. صدَّق عامر نفسه بعد أن صار مشيرًا. بدلًا من إعادة ترتيب القوات المسلحة، أوكل لها مسئولية الإشراف على عديد من مؤسسات الدولة: النقل العام، المجمعات الاستهلاكية، الصحف القومية. حتى قرارات التأميم ومحاربة الإقطاع، تصدت الشرطة العسكرية لتنفيذها. لم تكن مساندة القوتين العظميين قائمة في ١٩٦٧م، وتواطأت الولايات المتحدة في تدبير إسرائيل للحرب. كان على عبد الحكيم أن يتحول إلى مسئول مدني كما فعل عبد الناصر نفسه. رفض عبد الناصر آراء معارضة للبغدادي وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم وغيرهم من قيادات الثورة، ورضي بثنائية القيادة مع عامر، خشي أن تؤدي محاولة عزله إلى تهديد الرئاسة، كان لا بد من الكارثة حتى ينحيه.

اختلطت الأوضاع في القوات المسلحة إلى حد الوعد بالرقبة لرد الخطر القريب. الضباط الذين حظُوا بثقة عبد الحكيم، رشحهم الولاء الشخصي وليست الخبرة العسكرية. قرأنا عن مدير مكتبه الذي يملي أوامره على الرتب الأعلى، رشحه عامر — بعد النكسة — لرئاسة الجمهورية.

جاوز عبد الحكيم صفة زميل السلاح والصديق الشخصي إلى القائد العسكري الذي نجح في بلوغ مكانة تساوي مكانة القيادة السياسية.

أذكر أول مظاهرات حقيقية في عهد عبد الناصر، ضمت مئات الألوف من الطلاب والعمال، تندد بأحكام الطيران التي برأت، أو أصدرت أحكامًا مخففة مع المسئولين عن الهزيمة. ارتحت لتصرف عبد الناصر، كرئيس دولة مدنية. أعاد المحاكمة، وأصدر بيان ٣٠ مارس مؤشرًا لمرحلة جديدة، طالب بها المتظاهرون.

صار لي خبرة بأفكار عبد الناصر ومواقفه، لم أتوقع نتائج ذات بال بمظاهرات الطلاب في فبراير ١٩٦٨م، عرَف عبد الناصر كيف يتصرف في أحداث كفر الدوار وعدلي للوم والمنشية، وحتى مصيبة النكسة، ما توقعته حدث، صدر بيان ٣٠ مارس ليعيد الاستقرار كما أراده عبد الناصر.

الهدف من الحرب، وهو تقويض الاقتصاد المصري، لم يتحقق. اكتمل مشروع السد العالي، وشُيِّد مجمَّع مصانع الألومنيوم بنَجْع حمادي، وزادت نسبة النمو الاقتصادي، وزادت مساحة الأرض الزراعية، وزاد عدد طلاب المدارس والجامعات ثلاثة أضعاف.

امتلأتُ بالسعادة لنبأ إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات بصاروخ أطلقه زورق بحري مصري. بدا إشعال النيران في الزيتية ردًّ فعل متوقعًا ينبغي احتماله. تكررت الأحداث المهمة: منع القوات الإسرائيلية من التقدم في رأس العش، منع دخول إسرائيل إلى بور فؤاد، تفجير مخازن الذخيرة المصرية في سيناء. هبت من انفراجة الباب نسائم منعشة.

عرَفت — فيما بعد — أن ذلك كله مهَّد لما سُمي حرب الاستنزاف، شملت تزويد الجيش بأسلحة روسية، وصواريخ جديدة، وبناء حائط للصواريخ على الضفة الشرقية للقناة.

ظني أن حرب الاستنزاف — ست سنوات — لم تكن تستهدف دحر الجنود الإسرائيليين، بقدر ما استهدفت التأثير في معنويات هؤلاء الجنود، فضلًا عن المستوطنين الإسرائيليين. لا يقتصر ما حدث على استيلاء إسرائيل على أراضٍ عربية في حرب خاطفة، وانتهى الأمر. هي أراضٍ محتلة، إن ساندت القوة مغتصبها على البقاء فيها، فمن المهم أن تتحول هذه الأراضي إلى حقول ألغام، تغيب أسطورة اليد الطولي، والجيش الذي لا يُقهر، والجزيرة المحاطة بالأعداء.

في التاسع من مارس ١٩٦٩م استُشهد عبد المنعم رياض! مات وهو يتفقد الخط الأمامي بالجبهة، لم أكن أعرف عنه الكثير، لكن ما قرأته، واستمعت إليه، في الأيام التالية، والجنازة الهائلة التي تقدَّم عبد الناصر صفوفها، دون التفات للمخاطر الأمنية، ذلك كله جعل الرجل أمامي في صورة رائعة. أدركت معنى حرب الاستنزاف في استشهاد قائد عسكري كبير تقتله قذيفة أثناء وجوده في الخطوط الأمامية لجبهة القتال، ذلك هو المعنى الذي نظر من خلاله مئات الألوف — يتوسطهم عبد الناصر — إلى استشهاد عبد المنعم رياض في وداعهم للقائد، يودعونه في رحلته الأخيرة.

ثلاث سنوات، من يونيو ١٩٦٧م حتى أغسطس ١٩٧٠م، استطاع خلالها جمال عبد الناصر أن يعيد بناء الجيش المصري على أنقاض هزيمة، في بالي ما تناقلته الإذاعات عن هزيمة الأبد، لكن العنقاء رفضت المستحيل، نفضَت الرماد تأهُّبًا لما حدث في حرب أكتوبر. روى لي ابني عبد الحميد أنه شاهد تدريبات للقوات المصرية في الخطاطبة، صنعوا سدًّا ترابيًّا شبيهًا بخط بارليف، تهاوى بتأثير مياه الخراطيم الهائلة. سألته: هل رأيت التدريبات؟ قال: كل من يمر في الطريق يراها. ابتسمت، ذكَّرتَني بالمطار السري.

ظلت الجبهة الداخلية صامدة، رغم غارات الطائرات الإسرائيلية على مدن الإسماعيلية وبور سعيد وبور فؤاد ومصنع أبوزعبل ومدرسة بحر البقر.

لا أعرف تفصيلات مبادرة روجرز، وإن عرَفت أنها حاولتْ إقرار السلم الذي طال غيابه بين مصر وإسرائيل. حين طلبت إسرائيل من روجرز تقديم مبادرة لوقف إطلاق النار، أدركت أنها تعاني مأزقًا، تسعى — بالهدنة — للتخلص منه، ذلك ما فعلته في حرب ١٩٤٨م، تشعر بالمحاصرة فتطلب الهدنة، تعيد ترتيب أوضاعها، وتحاول كسب أرض جديدة، حصلت من اتفاقيات الهدنة على أضعاف ما كانت تحتله.

لأن دعم واشنطن لتل أبيب معلن، فقد تخوفتُ من موافقة مصر على المبادرة. هل الموافقة المصرية دليل ضعف، أو بتأثير ضغوط لم يقو عبد الناصر على مواجهتها؟

اطمأننت إلى إجماع التعليقات بأن قبول عبد الناصر مبادرة روجرز حتى يتمكن من إنهاء حائط الصواريخ. أذكر قوله: إسرائيل لن تنسحب دون شروط، ونحن لن نقبل شروطها، القتال هو خيارنا الوحيد.

فاجأني رحيل عبد الناصر.

رفضتُ الهاجس في داخلي بأن عبد الناصر لا يموت، الجسد العملاق، العينان النفاذتان، الجرأة، التحدي ... ذلك كله انتهى قبل أن يجاوز الرجل عامه الثاني والخمسين، نفضتُ عن رأسي تهويمات وأسئلة لا أجوبة لها. شيَّع الجنازة في القاهرة نحوُ خمسة ملايين، خرجت جنازات مماثلة خلف نعوش رمزية في مدن العرب، كأنها جنازة الوطن العربي.

أتذكر قصيدة نزار قباني «قتلناك يا آخر الأنبياء». يهمني المعنى وليس نص الكلمات، قام عبد الناصر من نقاهة المرض في مرسى مطروح، ليمنع استمرار مذبحة الجيش الأردني ضد الفصائل الفلسطينية، سبقت المذبحة عمليات اختطاف طائرات، هبط بها مقاتلو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في مطار المفرق بالأردن. أُطلق سراح الركاب، عدا أربعين احتفظت بهم المقاومة للتفاوض بهم، مقابل إطلاق سراح فدائيين فلسطينيين في السجون الإسرائيلية. حوصر الفلسطينيون شمالي الأردن، وحصدت قذائف الدبابات آلافًا من الفدائيين، من استطاع النجاة لاذ بالفرار إلى لبنان، أو — كما أجمعت وسائل الإعلام — إلى إسرائيل، الفرار من النار إلى النار. توافد الزعماء العرب على القاهرة، وُقعت اتفاقية إيقاف المذبحة، ناب عن القمة إلى الأردن وفد برئاسة جعفر نميري، أخفق في معالجة الموقف، وإن اصطحب في عودته ياسر عرفات، أخفاه سعد العبدالله ولي عهد الكويت في

عباءته. دار الحوار الساخن في قاعة فندق هيلتون ما يقرب من الساعات الخمس، قبل أن يُوقَّع اتفاق إطلاق النار فورًا، وانسحاب الجيش الأردني وفصائل المقاومة من كل المدن قبل غروب اليوم نفسه.

في اليوم التالي، أنهى عبد الناصر اتفاق الزعماء العرب، ثم اتجه إلى بيته في منشية البكري، ومات.

ودع عبد الناصر حياتنا، لكنه قدِم من إجازته المرضية ليمنع اغتيال الفلسطينيين، ثم مضى. مات عبد الناصر، وانهزمت المقاومة الفلسطينية في أسبوع واحد، وكان تولي السادات رئاسة الجمهورية بُعدًا مكملًا لأبعاد المثلث المأساة.

قيمة عبد الناصر الأهم ليست في معاركه، انتصر أحيانًا، وواجه الهزيمة أحيانًا أخرى. عبد الناصر هو فارس الملايين من البسطاء، وجدوا فيه أملًا ومناصرة لأحلامهم. أختلف مع عبد الناصر، لكنني لا أستطيع أن أغفل خمسة إنجازات، كانت حياتنا ستظل ساكنة في مشروع مقاومة الحفاء لو لم يقدم عليها: تحديد الملكية الزراعية، تأميم القناة، بناء السد العالي، مجانية التعليم، التأمينات الاجتماعية ... كل إنجاز فيها يحتاج إلى ثورة. زار عبد الناصر بلادًا كثيرة، دون أن يرى إلا البنايات الرسمية.

اعتدت الإنصات وقت إلقاء العظات، أو الدروس، تنعكس المتابعة في إحناء الرأس، أو التحديق، أو الإصغاء، يتبدل الأمر حين أبدى ملاحظة في قرار لعبد الناصر. تتشابك الأصوات في الدفاع عن قرارات الرجل. عرفت — بتوالي المواقف — أن الإشادة بسياسة عبد الناصر تجتذب التعاطف والموافقة، المظاهرات المعارضة التي خرجت في عهد السادات وعهد مبارك كانت ترفع صور عبد الناصر، تصرف له دلالة، أهمها أن الرجل ما زال حيًّا في نفوس الناس، لم تفلح كل الحملات في تشويه صورته. أتردد في إعلان الرأي المغاير.

حسين الشافعي وأنور السادات، أولهما اكتفى بالطاعة فلم يبتعد عن السلطة، والثاني مزج طاعته بحيل ذكية، فارتقى رئيسًا للجمهورية.

رحل عبد الناصر والقومية العربية في وعينا كاليقين. لم تكد تنقضي سنوات على حكم السادات حتى تحولت القومية العربية والتطبيق الاشتراكي والتقريب بين الطبقات، وغيرها من معالم العهد الناصري، إلى أخطاء يجب إنكارها.

لا أدري، كيف تحول عام الحسم في ١٩٧١م إلى عام للضباب. ثم ألقى السادات خطابًا، برر فيه إرجاء عام الحسم بالحرب الهندية الباكستانية، وما أسفرت عنه من بناء دولة جديدة هي بنجلاديش، اعتبر المثقفون ذلك التبرير نكتة سخيفة، تعددت المظاهرات التي تطالب بالسلم أو الحرب.

سألت نفسي: ما معنى مبادرة السادات بفتح قناة السويس، والجيش الإسرائيلي على ضفافها؟

تغدى السادات في حركة ١٥ مايو بمعارضيه قبل أن يتعشَّوا به. ظلت نظرتهم إليه على ما كانت عليه أيام عبد الناصر، لم يدركوا أن الأوضاع تغيرت، وأن السادات الذي يلبي أوامر الرئيس، عاد إلى ما كان عليه في العمل السياسي، والسري، الذي كاد يحيط عنقه بحبل المِشنقة. أغمض عينيه عن التصرفات المستفزة لرجال الاتحاد الاشتراكي، حتى رسم في خياله الخطة جيدًا، قابل تحديهم له بتقديم استقالات جماعية، بعزلهم، ووافق على الاستقالة. رجال عبد الناصر اختاروا السادات لتصورهم سهولة السيطرة عليه، أخذ من خبراته الشخصية ما جعله يزيحهم ويستقر — بمفرده — على كرسي الحكم، نصبوه رئيسًا فأودعهم السجن، تبع قبول الاستقالات تقديمهم إلى المحاكمة، بتهمة التآمر على نظام الحكم. عبَر السادات السنين إلى ما قبل ثورة يوليو، عاد إلى أجواء العمل السري والتآمر والتنظيمات المتطرفة ومحاولات الاغتيال والمحاكمات والمعتقلات، الخناقة كلها حول ميراث عبد الناصر، قميص عثمان. كانوا يعتبرون السادات مجرد عابر سبيل، استخفُّوا به فدفعوا الثمن. شاهدت السادات وهو يحني رأسه لتمثال عبد الناصر في مجلس الشعب، حدست — بما أتيح لي معرفته من شخصية السادات — أنه سيهوي على التمثال بمعول، ويقوضه. تكرر استغرابي وأسفي، ماذا أبقى للأعلى؟!

تكررت تصريحاته عن الميراث الثقيل الذي ورثه. كما أرى، فإن الرجل لم يبدل ما ورثه عن سلفه، لكنه أضاف إلى كرة الثلج ما ضخم حجمها، رحل بعد أن جعل التركة أكثر ثقلًا.

ما صنعه السادات في ١٥ مايو لم يكن ثورة حسب تسمية الرجل، كان انقلابًا فاقت تأثيراته السلبية كل ما أفرزته نكسة يونيو.

كان عبد الناصر — كما قال الشاعر الجواهري — عظيم المجد والأخطاء، لكن ذمته المالية ظلت خارج الاتهامات. لعلي تشممت رائحة المؤامرة والتحريض في اتهام الصحفي جلال الحمامصي لعبد الناصر باختلاس عشرة ملايين دولار، حصل عليها كقرض من الملك سعود. فرضتْ ظروف الغربة أن أُجري الحوار في القضية بيني وبين نفسي، لا أناقش أحدًا من المحيطين بي، سواء زملاء العمل، أو من ألتقيهم في الأسواق. وحين أعلن السادات — فيما بعد — تبرئة عبد الناصر من التهمة الغريبة، القاسية، لم تتبدل مشاعري إزاء ما جرى، كنت مطمئنًّا إلى ما قاله علي الجريتلي رئيس لجنة التحقيق إن عبد الناصر أشد كبرياء من أن يقبل أي فساد.

اختلطت مشاعري عندما أعلن السادات تغيير اسم الجمهورية العربية إلى جمهورية مصر العربية. ذكر الله مصر في القرآن الكريم، ووحدة مصر وسوريا كانت بداية الطوق الجغرافي حول إسرائيل، لملمة الكيانات المتفرقة في كيان موحد.

ساءني قرار السادات طرد الخبراء السوفييت من مصر. مصر. أرفض الشيوعية، ومن يروج لها، لكني لم أتصور أن يلقى الاتحاد السوفييتي جزاء سِنِمَّار. كان المصدر الوحيد — أو كاد — لتسليح الجيش المصري، شارك في حرب الاستنزاف، بلغ عدد خبرائه نحو عشرين ألف خبير. حين وصلوا إلى مصر، كانت تلك سابقة لم تحدث منذ الحرب العالمية الثانية، وعلى حد تعبير بريجنيف فقد كانت المرة الأولى التي يخرج فيها — منذ الحرب الثانية — جندي سوفييتي إلى دولة صديقة. حتى معارك الطيران — في تلك الفترة — شهدت مشاركات للطيارين الروس.

أضاف إلى تأثري موافقة موسكو على مغادرة خبرائها في مدى أسبوع، تصور السادات — ربما — أن القرار سيرضي واشنطن، أراد أن يستبدل بصداقته للروس صداقة الأمريكان. أثبتت حرب أكتوبر خطأ تصوره.

منذ أعلن بن جوريون قيام دولة إسرائيل، ظلت واشنطن على دعمها للدولة العبرية. واجهنا ثلاث حروب، استهدفت إضعاف قدراتنا العسكرية والاقتصادية، لتظل إسرائيل أقوى من كل الأقطار العربية.

ماذا يعني تنويع مصادر السلاح؟ هل توافق واشنطن على تقديم السلاح لمصر بالكميات نفسها، وبالنوعيات نفسها التي تقدمها لإسرائيل؟

استعدت قول عبد الناصر إنه لا يمكن أن يحدث تناقض بين الثورة وشبابها. لكن الشرخ — في رأيي — كان قد حدث. بدأ في الاتساع منذ انشغل عبد الناصر باستعادة مصر قوتها العسكرية، وبما سُمي حرب الاستنزاف. ترك البلاد في أيدي جماعة من العسكريين، أحالوا مصر معسكرًا يخضع للضبط والربط، ثم كان رحيل عبد الناصر المفاجئ انعطافة سلبية، سكنت ملامحها قبل نشوب حرب أكتوبر، وتأكدت ما بين الانفتاح وسلام السادات وبيجن.

أكره الشيوعية، لكن السبب وراء طرد الخبراء الروس لم يكن تنويع مصادر السلاح، الأسباب الحقيقية هوًى شخصي للسادات. أشفقت على الرجل اندفاعه المحموم نحو أمريكا. اللافت أن ترحيل الخبراء (تلك هي التسمية التي استقرت في الأخبار) لم يؤثر في واردات السلاح إلى مصر، بل إن المعدلات زادت.

قلت للشيخ حسن وردي: تصورت — في بدايات وعيي — أن المرء إما أن يكون شيوعيًّا أو رأسماليًّا، حلَّ الاختيار بدلًا من المحور والحلفاء.

قال: المثقف في مصر الآن واحد من اثنين: انتهازي، أو يعجز عن أن يكون كذلك. إذا كانت مصر تعاني أمراضًا متوطنة، فإن الانتهازية أخطر هذه الأمراض.

سؤال ألحَّ على ذهني قبل أسابيع من حرب أكتوبر: هل كان تحطم طائرة المشير أحمد بدوي جريمة مدبرة، أملاها اعتراض المشير على المبالغة في عمولات صفقات السلاح؟

أنور السادات رجل دولة، ذلك ما أثبته في قراره بإلغاء كل الإجراءات الاستثنائية. عرفنا أن الإلغاء تمهيد لحرب العبور، عدل عن اعتقاله لقيادات تمثل كل التيارات السياسية.

الدراسة الجادة لقضية ما، تتيح أقصى حد من النجاح. ذلك — في تصوري — ما حدث قبل أن يبدأ الجيش المصري عبوره إلى الضفة الشرقية في القناة، وضع خطط إزالة السد الترابي، الضربات الجوية الأولى حققت المفاجأة في قيادات إسرائيل، اختيار يوم إجازة اليهود في عيد الغفران «كيبور» لبدء عمليات العبور، تدريب مئات المقاتلين على استخدام صواريخ سام ستة، يواجه المقاتل دبابة بمفرده، يدمرها بطلقة صاروخ، يقضي على طاقمها، تضاعف أعداد التشكيلات الجوية والبحرية، وفرق المشاة، التظاهر باللهو على شاطئ القناة، والاستحمام قبل ساعات قليلة من صدور أمر الحرب، الإعلان عن زيارات لعدد من كبار المسئولين المصريين إلى عواصم العالم، وعن استعداد مجموعة من الضباط للسفر إلى مكة — في الثامن من أكتوبر — لأداء فريضة الحج.

الحرب!

لم تكن المفاجأة مقصورة على المواطنين العرب، فاجأ هجوم الطيران المصري على القواعد الإسرائيلية في سيناء، في الثانية إلا خمس دقائق يوم السادس من أكتوبر، مواطني إسرائيل، وفاجأ الكثير من قياداتهم السياسية والعسكرية.

في مساء ذلك اليوم، جاوز عدد القوات المصرية على أرض سيناء ٣٠ ألفًا من الضباط والجنود والمهندسين والألوية المعاونة.

اخترع المصريون وسيلة إزالة السد الترابي. في ذهني ما استمعت إليه في الإذاعة، منسوبًا إلى موشي ديان: يَلزم المصريين — لعبور القناة — سلاحُ المهندسين في كلٍّ من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. فاق الخط، في ضخامته وقدرته على الصمود، خط ماجينو أثناء الحرب العالمية الثانية، غير قابل للدمار، فهو يقاوم هجوم ١٥٠٠ دبابة، ومائة طائرة.

تابعت — باعتزاز — اندفاعات القوات المصرية في موجات متلاحقة إلى عمق سيناء، ربما أملى التحمس قول البعض إن الملائكة شاركوا الجنود معاركهم، لكن الدافع الإيماني يصعب إغفاله.

حين سألني الناس: لماذا لم يتجاوز العبور خط بارليف، اكتفيت بالرد: تلك قضايا عسكرية لا أعرفها!

لماذا ستة أكتوبر؟

عرَفت أنه يصادف عيد الغفران لليهود، وأنه يوم سبت، يوم الإجازة الأسبوعية — دينيًّا — لكل الإسرائيليين.

تملكني اعتزازٌ لما نشرته الصحف عن شارون، بأن المفاجأة الحقيقية — بالنسبة له — هي الجندي المصري الذي اختلف كثيرًا عن الذي خاض الحروب السابقة.

لم تكن وقفة واشنطن المساندة لإسرائيل لمنع انتصار السلاح الروسي على السلاح الأمريكي، التأييد الأمريكي يمتد إلى سنوات بعيدة، ربما منذ احتل الأوروبيون أرض الهنود الحمر، استعادة الفعل في احتلال اليهود أرض فلسطين.

أظهرت تحركات كيسنجر أنه مهموم بإزالة الهزيمة عن إسرائيل. ادعى الحرص على تفوق السلاح الأمريكي على السلاح الروسي، وأعدَّ بنفسه نقل الدبابات والمعدات من العريش إلى القوات الإسرائيلية شرق القناة، ونقل طائرات الفانتوم من الولايات المتحدة إلى إسرائيل، وأومأ إلى سلاح إسرائيل الذري، تحرك بعنصرية دينية، وإن وجد في منصبه قناعًا مناسبًا.

لا أذكر القائل إن انتصار مصر في ١٩٧٣م يفوق انتصار إسرائيل في ١٩٦٧م.

هو قول صحيح.

تملكني قلق لتحذير موسكو واشنطن بضرورة انسحاب الإسرائيليين إلى خط وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

وقف إطلاق النار؟

هل عدنا إلى أيام ١٩٥٦ و١٩٦٧م؟

ما معنى الانتصار إذن؟!

زاد قلقي عند إعلان قرار إيقاف جميع الأعمال العسكرية، هل هي حرب عبور لسيناء، أو استرداد للأرض السليبة كلها؟

قبِل السادات إيقاف المعارك. قال إنه على غير استعداد لمحاربة أمريكا، ألم يضع في تقديره أن واشنطن ستناصر إسرائيل؟

لجأ السادات إلى تعبيرات كثيرة، غريبة، قدمت معاني مغايرة للحرب التي كنا نخوضها. أكد — دون أن يطالبه أحدٌ بما قال — أن الولايات المتحدة هي الدولة الوحيدة التي تملك ٩٩٪ من أوراق عملية السلام، ووصف وزير الخارجية الأمريكي كيسنجر بالعزيز والأخ والصديق.

أذهلني ما قرأته ليوسف إدريس عن حرب أكتوبر في جريدة خليجية، وأنها ليست إلا صفقة بين السادات وقادة إسرائيل. أيًّا ما يكن الاختلاف في انتصار أكتوبر، فقد كان ذروة طبيعية لحرب الاستنزاف. أراد إدريس أن ينال من السادات، فنال من الجيش المصري. ربما لإحساسه بالخطأ الخطيئة لم يُصدر طبعة ثانية من مقالاته بعد أن نشرها في كتاب.

حتى الآن، لا أعرف من المصيب ومن المخطئ في مصيبة الثغرة، بدا أن إسرائيل تريد نصرًا مقابلًا لنصر العبور، يسلب المصريين إحساسهم بالنصر، ويضع العالم الخارجي أمام احتمالات متباينة، أرادوا أن يبلغوا العالم بانتقال القتال من الضفة الشرقية للقناة إلى الضفة الغربية، وأن صورة المعارك تبدلت. لو أنهم وجدوا في بقائهم في الضفة الغربية ورقة يتفاوضون عليها، ما قبلوا الانسحاب من الغرب، فضلًا عن الانسحاب من مواقع القوات المصرية في الشرق.

قرأت للفريق الشاذلي أنه لم يوافق على الابتعاد عن ضفة القناة، ثمة من أكد انحياز الشاذلي لفكرة دفع فرقتين من غرب القناة إلى شرقها، بينما ذهب وزير الدفاع أحمد إسماعيل إلى ضرورة التريث، والامتناع عن توسيع نطاق الجبهة شرق القناة. كانت الثغرة انتقاصًا من قيمة عبور القناة، بلا مبرر لإحداثها، يلحظ شارون فاصلًا بين الجيشين الثاني والثالث، ينفذ منه إلى الضفة الغربية للقناة. اختلاف الآراء في كيفية تصفية الثغرة، يسر اتساعها إلى ما صارت عليه. رأى أحمد إسماعيل أن تصفى الثغرة من ناحية الشرق، رأى سعد الشاذلي أن تقطع الثغرة من الغرب، شابت الحسابات الشخصية حسابات القائدين، وإن تمنيت أن يُبقي السادات رئيس الأركان، وينتهي اختلاف الآراء إلى رأي يقضي تنفيذه على الثغرة.

أحزنني أن السادات لم يكن يعلم — وهو يلقي خطابه في مجلس الشعب — أن الإسرائيليين في الضفة الغربية للقناة.

لا أعرف ظروف استيلاء إسرائيل على هضبة الجولان، قرأت — في جريدة لبنانية — أن حافظ الأسد أكل سمكًا من بحيرة طبرية. المعنى شطر إسرائيل، لكن الأوضاع تبدلت في ظروف لا أعرفها، تحول الانتصار الصعب إلى هزيمة سهلة في العاشر من أكتوبر، بعد بدء القتال بأربعة أيام.

لو أن الجيشين المصري والسوري شكلا قيادة موحدة، ربما صعب على الجيش الإسرائيلي أن يقاتل في جبهة، وينتقل إلى الجبهة الأخرى.

ما أحزنني أن الإعلام الإسرائيلي اعتبر إبطاء عملية السلام — بفضل مكوك كيسنجر — نصرًا استراتيجيًّا لإسرائيل، نقلت وكالات الأنباء تهنئة كيسنجر لنتنياهو على ذلك النصر.

نسي السادات — فيما بعد — ولعله تناسى، ما فعله الأمريكان لمنع هزيمة إسرائيل في حرب رمضان، ألا تمثل دليل إدانة دافعًا للموقف الأمريكي؟!

عكَس تغيُّرُ مظهر الرجل، ما حدث في نفسه من تغيُّر: الأزياء الأنيقة الكثيرة، العصا، الغليون، التكلف في الحركات والسكنات.

لم يعد هو السادات الذي اعتدت رؤيته قبل أن يتولى الحكم.

في العام التالي، بدأ أهل مدن القناة في العودة إليها، كما بدأ العمل في تطهير القناة من السفن الغارقة، وآلاف القنابل والصواريخ التي استقرت في القاع.

حين أُعيدَ فتح القناة، قتلني الإشفاق على ما يقرب من أربعة ملايين مواطن أجبرتهم ظروف الحرب على الهجرة إلى الداخل. روى أبناء تلك الأسر في الرياض ما عانوه خلال سنوات التهجير.

راجعتُ — بعد إعلان سياسة الانفتاح — تعبيرات مثل القطط السمان، زوال الطبقة الوسطي، السداح مداح، في مقابل التعبيرات التي اختارها السادات وصفًا للمثقفين مثل الأراذل والأفنديات.

كنت ألتقي أعدادًا قليلة من المصريين في شوارع الرياض وأسواقها، أكاد أميزهم بتوالي المشاهدة. زادت الأعداد، تضخمت، تعددت الوظائف التي أُعيروا لها. تكاثرت السحن، واختلطت، لا أتأمل الملامح، ولا أفتش عن شخص أعرفه. كانت هجرتي فرارًا من ضغوط قاسية. لماذا ترك هؤلاء الآلاف قراهم ومدنهم؟ هل دفعتهم الظروف الاقتصادية وحدها إلى ترك البلد؟

أذكر قول السادات في أول السبعينيات: من لا يحقق الثراء في عهدي، لن يستطيع تحقيقه أبدًا، الفقر هو الذي تحقق للكثرة من المواطنين، في حين أفادت القلة من ارتفاع أسعار الطعام والأراضي وإيجارات الشقق، وجرى الاستيلاء على أملاك الدولة، وتخصيص القطاع العامِّ لجماعة المحتكرين.

عادت الصورة — كما حدثتك — إلى انتهازي، أو عاجز أن يكون انتهازيًّا، وعمقت المدن الجديدة، والأحياء الجديدة، من الفوارق بين المواطنين.

دس النشوق في فتحتي أنفه، تكرمش وجهه، والتمعت عيناه بالدمع، ثم انخرط في عطس متواصل.

لماذا حُظرت الأحزاب؟ ولماذا عادت؟

أعلن السادات — من قبل — تكوين المنابر الثلاثة، تمهيدًا لعودة الأحزاب إلى الساحة السياسية المصرية.

غلب التمني على تجربة المنابر، أداؤها مثل مشية الغراب في تقليد مشية الطاووس، عابها الافتعال وشحوب الهدف، انطبق عليها مَثَل التي تتوق للعناق لكنها تخشى الحمل. التشبيه تنقصه الدقة، ولعله يعاني الفجاجة، لكن الأحزاب لم تعد إلى صورتها القديمة، أُنشئت بقرار من السادات، وجعل أَلفتها حزب مصر، فاجتذب الانتهازيين ومحترفي السياسة، تحولوا — بربطة المعلم — إلى الحزب الوطني، بعد أن استبدله السادات بحزب مصر.

أعلن السادات إلغاء معاهدة التحالف والصداقة مع الاتحاد السوفييتي، قال السادات: إن السوفييت يعارضون اتجاه مصر نحو السلام.

ما ساورني من قلق في إعلان إيقاف الأعمال العسكرية وقت الحرب، تحول إلى شك عقب إعلان السادات أنه على استعداد للقاء الإسرائيليين في آخر الدنيا، أذكر نص كلماته: «إنني مستعد للذهاب إلى آخر العالم، وإن إسرائيل ستندهش عندما أقول إنني مستعد أن أذهب إلى بيتهم، إلى الكنيست ذاته، ومناقشتهم.»

لم أصدق أن يصفق له أعضاء مجلس الشعب، والعشرات من الضيوف العرب. تصورت أنه بعض أساليب الصدمة التي أَلِفها المصريون، هي مبالغة حماسية أملتها طبيعةٌ تميل إلى الاستعراض والكلمات الجهيرة ومخاطبة التاريخ.

حلَّ في داخلي ارتباك، اختلط القلق والخوف والحزن والمسافات والأزمنة والاتجاهات، بدت الأمور متشابكة، وقاسية، لا أستطيع أن أتفهمها بسهولة.

قال السادات إنه أحدث — بمبادرته — زلزالًا في إسرائيل. بدا الزلزال في مصر أشد عنفًا، أحدثه الرافضون، وهم القلة، والمؤيدون، الكثرة الغالبة، توهموا في قيام العَلاقات بين مصر وإسرائيل جريانًا لأنهار اللبن والعسل. أسهم الإعلام المصري في صنع الغيبوبة، لفَّني الحزن لإطلاقِ مُزارعٍ من الدلتا اسم بيجن على وليده، وكلمة «شالوم» بالعربية والعبرية على سيارات التاكسي والسيارات الخاصة، قرأت كتابات عن أبناء العم الذين نجد في عَلاقتنا بهم ما يعوضنا عن العَلاقات مع بدو الصحراء.

عرَفت بواعث مشاعري، لما أعلن بيجن موافقته على مبادرة السادات، لكنه ضمَّن كلماته شرطًا بأن تعود جوديا والسامرة — يقصد الضفة الغربية — إلى إسرائيل.

كشفت ردود الأفعال الرافضة طبيعة الثمار التي زرعها السادات. قدم إسماعيل فهمي وزير الخارجية استقالته، أخفق السادات في أن يوضح له وجهة نظره. استقال السفير محمد رياض بعد ست دقائق من استبداله بفهمي، جعل الإعلام العربي من السادات هدفًا لحملات متوالية، قاسية، وصَّفها بأنها هجوم على مصر، وأعلن حافظ الأسد معاداته لرئيس مصر فور مغادرته دمَشق.

استحال الشك يقينًا بزيارة السادات لإسرائيل، وإلقائه كلمة في الكنيست، وبدء مفاوضات الكيلو ١٠١ في الناحية الغربية من القناة، لإقرار السلام العادل بين مصر وإسرائيل.

حين هبطت طائرة السادات في مطار بن جوريون، أيقنت أن أفعال السادات — منذ الاستغناء عن الخبراء السوفييت — لم تكن مجرد أخطاء، امتدت نتائجها إلى ما بعد حرب أكتوبر، إلى معاهدة السلام مع إسرائيل، والدمار الاقتصادي الذي سُمي انفتاحًا. غاظني إصرار الولايات المتحدة على أن تمتلك إسرائيل من السلاح ما يفوق السلاح الذي يملكه كل العرب. ثورة ٢٥ يناير رد فعل للأعوام التي تلت أفعال السادات.

تابعت مفاوضات البحث عن التسوية منذ الكيلو ١٠١ إلى اتفاقية مارس ١٩٧٩م.

أحزنني أن من حقق الانتصار جلس في خيمة داخل حدوده، ليتفاوض على إخلاء أرضه. هل دخل الجيش المصري سيناء لاستعادة الأرض، أو لإجبار إسرائيل على الدخول في مفاوضات؟

أفهم أن يتنازل المهزوم، لكنني لا أفهم لماذا يتنازل المنتصر. نحتفل بانتصار العبور، فنحن انتصرنا إذن، أو أن البلاغات تشابهت مع توالي إسقاط طائرات العدو في ١٩٦٧م. بدت الأوقات هي الأنسب لانتزاع الحقوق الضائعة. العرب يدعموننا، دول أفريقيا والكثير من دول وآسيا وأمريكا اللاتينية أعلنت مساندتها، الجبهة الداخلية متماسكة، دفعة النصر السريع في عملية العبور أكسبتنا الثقة.

كيف نعطي آذاننا للصهيوني كيسنجر يضع فيها التخاذل والخوف من السلاح الأمريكي الذي هزمه ما بحوزتنا من السلاح الروسي؟!

تابعت الحروب من ١٩٤٨م إلى ١٩٧٣م، مؤشر بياني يهبط بشدة، ويتجه إلى الصعود، لم أكن أملك سوى الدعاء أن تتحسن الأحوال. قلت: هذه حكومة فاسدة، إذا سكتنا عنها فنحن نوافق على فسادها، وقلت: الساكت عن الحق شيطان أخرس. لما أُعدم خميس

والبقري في محاكمة ظالمة، شعرت أنه لا بد من ثورة تالية. إذا كنا نُصرُّ على تحميل عبد الناصر ما عانته مصر بعد رحيله، فأولى بنا أن نحمِّل آدم وحواء معاناة البشرية بعد طردهما من الجنة! لم أدرك قيمة عبد الناصر إلا بعد أن تابعت سياسة السادات.

قلت: قصقص عبد الناصر ريش الأغنياء.

قال الشيخ: عوضهم السادات بريش من الذهب والفضة.

حاول مداراة حزنه بضحكة مبتورة: جاء أبو ذر بعد الخليفة عثمان ... لكن السادات جاء بعد عبد الناصر.

ضحك. بدت أسنانه كاملة بما لا يناسب تقدُّم سنه، عرفت من التسوس في ثنايا الأسنان أنها طبيعية، وليست طقمًا صناعيًّا.

قلت: هل تصلح الاشتراكية الإسلامية؟ هل تصلح اشتراكية «أبي ذر»؟

قال: أفضل من مجتمع الناس اللي فوق والناس اللي تحت!

استطرد موضحًا: الاشتراكية في مصر لم تسقط من نفسها، لكنها سقطت بتأثير المؤامرات من الخارج.

وأنا أحاول السيطرة على مشاعري: الاشتراكية لم تمت، لكنها قُتلت.

همس بالسؤال المنفعل: كيف صار السادات بطلًا للحرب والسلام؟

أمتدح بطولته في حرب رمضان، لكن سلام الانفتاح يصعب أن يصنع بطولة. لو أني عدت للخطابة في علي تمراز، كنت سأجد مجالات كثيرة للإدانة. السداح مداح كلمتان عبرتا عن الفساد الذي لم يُفلت من تأثيراته العباد والبلاد. الانفتاح — كما أتصوره — يعني عدالة توزيع الثروة، وليس سوء التوزيع. تلاشت وعود الخير الذي يعم الجميع. عرَفنا أحمد عبود ومحمد فرغلي والبدراوي عاشور وعبد اللطيف أبو رجيلة، أصولهم معروفة، أخذت مواضعَهم — بعد أن غابوا — نباتاتٌ غريبة، متسلقة، لا نعرف شيئًا عن نشأتها، ولا ظروف حياتها. كانت للأثرياء القدامى تصرفاتهم التي أدَنْتها في خطبي، في أيام السادات طلعَتْ أسماء مقترنة بغياب الأصل والمبتدأ، من أين جاءوا؟ أرفض ثبات النظرة إلى البشر، أطمئن إلى فلان أو لا أستلطفه، أحكم عليه بشعوري الأول، يظل هو الشعور الذي أنظر من خلاله إلى هذا الفلان، لا تبدله كلمات أو تصرفات تكفل له تبديل مسار أكبر الأنهار. الأمر يختلف في قضايا الوطن، قد يسقط «الوطني» فنعتبره شهيدًا، لكن تحول الخائن إلى وطني يقتصر على مشهد في فيلم عربي.

أذكر أني كنت سائرًا في سوق البطحاء عندما ترامت — من راديو قريب — أنباء العنف في مصر، مظاهرات ضد رفع الأسعار، والانفتاح الخطأ. رفعت الحكومة دعمها

عن السلع الضرورية، امتثالا لتوصيات صندوق النقد الدولي، لم تكن الانتفاضة مفاجأة. كانت الصدور محتدمة، تنتظر اللحظة المناسبة، أتاحها قرار ارتفاع الأسعار. الأخبار — في التلفزيون — شحيحة، انتظرت حتى ثالث يوم من بدء الأحداث، استوقفني أن المظاهرات التي تلت رفع الأسعار، اعتدت على ملاهي شارع الهرم، وحطمت زجاجات الخمر، واقتحمت محال الملابس المستوردة، واستولى الفقراء على ما بها من بضائع. جذبني — مما قرأت — تناغم الهتاف في الإسكندرية والقاهرة وبقية المدن: «سيد بيه يا سيد بيه ... كيلو اللحمة بقى بجنيه.» سيد مرعي هو صهر السادات الذي يرأس مجلس الشعب، ويتمطى في الثراء، وجهوا إليه الهتاف كأنهم يوجهونه إلى السادات.

سُمي ما جرى ثورة الخبز، لكن السادات سماها — بعد زوال الخطر — انتفاضة الحرامية. شاهدت الصور، فانقبض قلبي، خشيت مما يصعب التنبؤ بنتائجه. رد فعل السادات غلب عليه الانفعال والافتعال. لم أحب أن تتحول انتفاضة الخبز في رأي الناس، إلى انتفاضة الحرامية في رأي السادات. ما حدث ليس وليد ذاته، ولا مصادفة. ارتفعت الأسعار بما لا يقوى عليه الناس، فثاروا، انتفاضات الغلابة، وليس الحرامية، ذروة الرفض لسياسة أخذت من الاشتراكية والرأسمالية أسوأ ما فيهما. قال عبد الناصر — عقب هزيمة ١٩٦٧م — إن ما أُخذ بالقوة لا يُسترد بغير القوة، استبدلوا بالكلمات كلمات أخرى، تعبر عن واقع الحال: إن ما أُخذ بالسرقة لا يُسترد بغير القوة! الفقر إلى الله مطلب يتساوى فيه الجميع، أما الفقر الذي يعني المسغبة والجوع، فهو يقتصر على فاقدي الحيلة من عباد الله. حكمنا من تولوا أمور البلاد في أعقاب نصر! شهدنا أيام عثمان بن عفان ... التطبيق السيئ يجعلها غير صالحة لنا ... لا شيء اسمه الرأسمالية الإسلامية.

كان بديهيًّا ومتعقِّلًا قرار السادات بسحب قرار رفع الأسعار، وصف ما حدث بأنه انتفاضة شعبية صحيح، بينما اختار السادات وصف انتفاضة الحرامية!

أشك في أنه صدقه.

حزنت لإسقاط الشيخ عاشور من عضوية مجلس الشعب، دافع الرجل عن الحق، وإن أخطأ في الهتاف بسقوط السادات، دفعه إلى ما فعل قول الشيخ الشعراوي عن الرئيس السادات: والذي نفسي بيده لو كان لي من الأمر شيء، لرفعت الرجل الذي رفعنا تلك الرفعة، وانتشلنا مما كنا فيه إلى قمة ألَّا يُسأل عما يفعل.

اللهم لا اعتراض، لكن الحيرة تملكتني وأنا أتابع استقدام الرئيس السادات علماءَ ووعاظًا من أقطار الخليج، في حين أعاني الغربة بعيدًا عن علي تمراز والقائد إبراهيم. عمَّق

حزني إحلال وعاظ السلطة، بدلًا من الأئمة الكبار في قامة محمد عبده والمراغي والبشري وسليم والفحام وشلتوت وخالد والغزالي وأبي زهرة.

رفع العرب — بعد هزيمة يونيو — لاءاتهم الثلاث: لا تفاوض، لا اعتراف، لا صلح مع إسرائيل، لكن السادات أسقط — بعد انتصار ١٩٧٣م — لاءات العرب، ودعا نفسه لزيارة إسرائيل، بداية للاعتراف بها، والصلح معها.

عاد السادات من زيارته إلى إسرائيل. اصطفت الجماهير على طول الطريق، لاستقباله وتحيته، استغرقتهم أحلام اللبن والعسل. ربما أراد الإسرائيليون توشية مبادرة السادات، لما أعلنوا — عقب الزيارة — أنهم توقعوا قيادة السادات مجموعة فدائيين، يتبعونه على سلم الطائرة، بأيديهم أسلحة تقضي على كل القيادات الواقفة في المطار.

قهرني الحزن وأنا أشاهد — في التلفزيون — ترحيب أعداد من المصريين بالوفد الإسرائيلي عند زيارته للمعبد اليهودي بشارع عدلي.

فقدت مبادرة السادات للسلام معناها الحقيقي لما رفضها السلفيون والعلمانيون، ظلوا على رفضهم حتى أدخل معظمهم المعتقل، من بقَوا دبروا لاغتياله.

شغلني السؤال: لماذا استقال إسماعيل فهمي ومحمد رياض ومحمد إبراهيم كامل، بينما لم يبد حسني مبارك ملاحظةً ما على مبادرة السادات؟

تابعت — منذ الخامس من سبتمبر ١٩٧٨م — اجتماعات كامب ديفيد، برعاية الولايات المتحدة. سلسلة من المناقشات بين السادات وبيجن وكارتر، انتهت في مارس ١٩٧٩م إلى معاهدة تحقق السلام بإخلاء منطقة الحدود مع إسرائيل، إخلاء سيناء من الدبابات والطائرات، تحديد قوات المشاة؛ رقم مضحك. من قُتل أبناؤه، واستُلبت أرضه، وتشرد، كيف يصالح من فعل ذلك، ولم يُخفِ تأهبه لفعل المزيد؟

معاهدة السلام؟

ما معنى أن تكون أرض سيناء منطقة منزوعة السلاح؟ أي صلح يتحقق بعد الانتصار، يجعل الأرض التي ضحت لاستعادتها بآلاف الشهداء منطقة منزوعة السلاح. ما مساحة الأرض المنزوعة السلاح في الناحية الأخرى، في فلسطين المحتلة؟

أوافق الأقطار العربية على رفض المعاهدة. أخرجَتْ مصر من قضايا العرب، وجعلت من المقاومة عمليات للتفاوض في إطار التطبيع. لم يكن الرفض العربي — كما قال إعلام السادات — معبرًا عن قصور في الرؤية السياسية، أبانت تطورات الأوضاع — فيما بعد — عن المأزق الذي وضع فيه السادات نفسه.

لم أفهم معنى الحاجز النفسي الذي سمَّى به السادات ما بيننا وبين إسرائيل من عداء. اختصر الرجل تاريخًا من المؤامرات والحروب في عبارة متفلسفة. بدت أيام ما سُمي بالتطبيع أقسى من الكابوس، حُذف ما يمس اليهود من آيات القرآن، وُضع اسم إسرائيل بدلًا من فلسطين في الخرائط العربية، حُذفت حقائق الصراع من كتب التاريخ.

هل تصبح حرب أكتوبر — بالفعل — آخر الحروب؟

أعرف السادات مناضلًا، وسياسيًّا، لا أعرفه منجمًا، ولا قارئًا للبخت!

لولا أني شاهدت ما جرى على شاشة التلفزيون، ما تصورت أن عرفات يخطب في بيروت بالقول: إن السادات خان الشعب المصري. لم أُخْفِ رفضي لخطوات السادات منذ الاستغناء عن السلاح الروسي، وما تلاه من تصرفات عشوائية، أخطرها معاهدة الصلح. العادة أن المنتصر هو الذي يملي شروطه، لكن السادات وافق على التفاوض في داخل الأرض المصرية، وقبول تنازلات دفع شهداؤنا ثمنًا لعدم حدوثها. مزج السادات بين قضايا مصر ونوازعه الشخصية، لما هاجمه خصومه، فادعى أنهم هاجموا مصر. حتى الجماعات السلفية التي غادرت مكامنها بتحريض من السادات، صارت عدوًّا له، بعد أن فقدت ثقتها في تصرفاته.

نقلت وسائل الإعلام ضرب القوات المصرية حشودًا داخل ليبيا، غلب الخوف على ما عداه من مشاعر المصريين. البعد عن المكان يجعل الصورة شاحبة، وغير صحيحة أحيانًا: هل هي بداية حرب؟ هل تنطلق القوات المصرية داخل ليبيا؟ هل يستعين القذافي بقوات أجنبية؟

طال إحساسي بالغربة في الرياض، غربة مماثلة — ربما — لغربة مصر — عقب معاهدة السلام — بين دول العرب والإسلام. أهملتُ الشائعات عن البنود السرية، مواد المعاهدة المعلنة مصيبة، عرَفتُ بواعث استقالة عديد من مساعدي السادات، خافوا نظرة أبنائهم لقبول الاتفاقية.

لو أن الاتفاقية جاءت أيام إمامتي في علي تمراز، كنت سأرفضها.

رفضت قول السادات إن ٩٩٪ من أوراق اللعب في يد أمريكا، إذا ألقى الحاكم تبعة تنازله عن قوة يمتلكها، فالأولى به أن يبتعد.

ما بدا مثيرًا للسخط أو الغضب تمخض هزيمة ١٩٦٧م عن رفض الصلح، والمفاوضات، وعدم الاعتراف بإسرائيل، وأن ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة. أما انتصار ١٩٧٣م فقد انتهى إلى انفتاح اقتصادي أضر بالفقراء، بالإضافة إلى القبول بكل ما رفضته الهزيمة من المفاوضات، وتوقيع معاهدة السلام.

أعدت قراءة الخبر، وبحثت عن تفصيلات في الإذاعات والقنوات الفضائية: أصدر السادات قرارًا بإلغاء تراخيص عديد من الصحف، والتحفظ على أموالها ومقارها، وبالتحفظ على أعداد من الزعامات السياسية. أودعهم المعتقل، وسحب اعتراف الدولة بانتخاب البابا شنودة، وأمره أن يلزم الدير، مع عشرات من القيادات الكنسية القبطية. لم يكن السادات في حاجة إلى من يشخص حجم الانفعال الذي أملاه غضبه، عندما وصف الشيخ المحلاوي، وهو عالم فاضل من الجيل الذي أنتمي إليه، عُين واعظًا في جامع القائد إبراهيم، بعد أن أرغمتني الظروف على رفض الوظيفة، وترك البلاد. وصف المحلاوي بأنه «قاعد زي الكلب.»

زي الكلب؟!

ماذا لو انتقل أحدهما إلى موضع الآخر؟ هل كان السادات يرضى أن يصفه المحلاوي بما قاله فيه؟!

عندما يخضع الحاكم لانفعال الغضب، فإن يده تضغط — بتلقائية — على مفاتيح الشَّفرة، يحدث ما لم يتوقعه هو نفسه، يغيب التعقل والحكمة.

لم تعد حركتي باليسر الذي كانت عليه، تحددَتْ بين البيت وزاوية خطاب، تَواصلَ النقاش، لا يبلغ السياسة إلا نادرًا، وإن أدركت — فيما بعد — أن تلك الأحداث هي السبب المباشر في اغتيال السادات، مثَّل من خضعوا للقرارات — على نحو دقيق، وغريب — أطياف المجتمع المصري، انتماءات إلى الإسلام والمسيحية والماركسية والليبرالية والذين بلا يقين ديني ولا اتجاه سياسي. تأملت التعبير: «ما حدث هو سجن مصر.»

لا أذكر كيف ولا أين عرَفت باغتيال السادات، ربما كنت في الحرم المكي، أو الروضة النبوية. التقطتُ — وسط الزحام — عبارة: قُتِلَ وَسْط جنوده.

قال الرجل ذو الدشداشة والعقال: قُتِلَ أنور السادات في عرض عسكري.

لم أشاهد الواقعة لحظة وقوعها، وإن شاهدت إعادة ما جرى مرات متتالية في اليوم نفسه، جلست أمام التلفزيون، أتابع الأنباء، أدير مؤشر الراديو كي ألتقط ما يهدئ خوفي، اختلطت رؤًى كثيرة، وتشابكت: بيت المسافرخانة، ومحاولة اغتيال عبد الناصر في ميدان المنشية، والشيخ مكايد حتحوت، ومقتل النقراشي، ومقتل الخازندار، والصدامات القاسية بين إبراهيم عبد الهادي وجماعة الإخوان المسلمين، وعلي تمراز، وميدان الأئمة، وأبو العباس، والمينا الشرقية، وحلقة السمك، ورقصات العنف للمردة والغيلان والعفاريت، والأنفاس المكتومة، علا زفيرها عقب فوز الوفد في الانتخابات، وعودته إلى الحكم.

أتاح السادات للإخوان المسلمين والجماعات الدينية أن تصفيه جسديًّا، عندما أطلق لها حرية الحركة في الساحة السياسية.

هل جثم الكابوس على الصدر ثانية؟

زخات الرصاص تتجه من رشاشات الجنود في اتجاه المِنصة. لم أستطع — في الفوضى — تبين من مات، ومن أصيب، ومن نجا بحياته. الأخبار لاحقتني بما جرى، قُتل السادات بأيدي ضباط لا أعرف أسماءهم، هل تمضي مصر في منحدر الخطر؟ أعرف أنه جرت من قبل محاولات لاغتيال الرجل، صدم أذني تعبير متكرر عن القط ذي الأرواح السبع.

عكست جِنازة السادات تأثيرات الخوف والارتباك والرفض، جنازة بليدة، مشيعوها من رؤساء الدول. حتى الولايات المتحدة مثَّلها ثلاثة رؤساء سابقون، قوام الجنازة رجال الشرطة السريون، في أيديهم صحف يطوحون بها، ونظراتهم لا مبالية، غاب الملايين الذين ودعوا عبد الناصر. لم تكن جنازة زعيم.

ظللت متيقظًا ليلتين متعاقبتين. أذني على الراديو، عيني على التلفزيون. تناوشني التوقعات. السادات مضى، الكثيرون يعدون أنفسهم للدخول، لعل القادم خارج الصورة، هو — كما قدرت — ليس حسني مبارك، ولا صوفي أبو طالب، ولا حتى عبد الحليم أبو غزالة.

في اليوم الثالث، هاجم السلفيون ثلاثة أقسام للشرطة في أسيوط. هل هي توابع الزلازل؟ هل كان الاغتيال بداية لأحداث تالية؟

ثم داخلني اطمئنان على مصر. أفرج الرئيس الجديد عن معتقلي السادات من المفكرين والساسة، تحدث عن اختلافه مع عبد الناصر والسادات، وعن الشفافية، ووصف الكفن الذي يترك به المرء دنياه بأنه بلا جيوب.

ناوشني السؤال: لماذا لم يجد الزعماء السياسيون في لقائهم بالرئيس الجديد ما يدفعهم إلى تذكيره بالإصلاحات التي اعتُقلوا لأنهم طالبوا بها.

أعاد كوب الماء إلى الطاولة أمامه، وضع راحته على فمه، يداري تجشؤه: مفردات ذاكرتي — كما ترى — هي الصوفية والعظات وأكاذيب الساسة والمظاهرات والإضرابات والتردد — لشراء الصحف — على مكتبات الرياض، والغربة والقلق والتمني والتوقع. ثمة فجوات كثيرة — أدركها — فيما أذكره. الذهن لا يُبقي كل شيء، أخشى نُذُر تحلل الذاكرة، فأنا كثير النسيان، تداعى على الذاكرة شخصيات وأحداث مضى عليها سنوات، فظننت أني نسيتها. ربما ذكرى صغيرة، تفتح لي باب دنيا فسيحة، ظلت في ذاكرتي ثابتة لا تزول،

الكثير من المواقف غاب عن ذاكرتي الشخصية، لولا إشارتك إليها ربما تصورت أنها لم تحدث.

عندما ألتفت إلى الوراء، أعرف أن العمر الذي أنفقته لم يكن بلا جدوى.

فعلت الكثير، وحاولت أن أفعل الكثير.

# استدراك ما لم يلحقه السهو

لو أني ظِللت أصغي إليه، يعيد رواية الأحداث من وجهة نظره، كيف رآها. يختزن في ذاكرته كل شيء، ما يفاجئني من الوقائع والأحداث والتواريخ والملاحظات والتصرفات والكلمات والأشخاص والأرقام والأمكنة والألوان والتفاصيل الصغيرة، الصور كثيرة، ومختلطة، بعضها واضح، وبعضها أشبه بالنسخ السلبية.

قال في نبرة معتذرة: ظني أني رويت مجمل ما حدث، أرفقته بما قد أجده من آراء، أجاوز الكثير من الوقائع التي لا تضيف إلى المعنى. إذا أخفقت في استدعاء ذكرى قريبة أو بعيدة، تركت للحظات التالية، أو حتى للساعات التالية، ظهورها في الذهن، تومض فجأة، ربما دون أن أنشغل بها. تتباعد الأشياء، تغيب التفاصيل، تتجه إلى الفقد والمحو. الحنين إلى الماضي شعور إنساني، أدركه، لكن الإنسان قد ينسى الماضي، ولا ينسى الحاضر أو المستقبل، الحاضر يشغله، والمستقبل لم يأت باحتمالاته.

تنهد: أستعيد بالتذكر مراحل عمري، اتصالها بشخصيات وأحداث، ظلت في ذاكرتي، تشبثَتْ بها، لم تتركها. حياتي محدودة بين البيت والمسجد، في مصر أو في الحجاز، لكنها اتسعت بالمتابعة ومحاولة الفهم، دليلي الصحف والإذاعات والقنوات الفضائية، تضيف إليها ملاحظات ومناقشات وردود على أسئلة، أقلِّب ما استقر في الذاكرة، يشكل قناعات أتصور أنها صحيحة.

عاصرت الأحداث بنفسي، شاهدت، أو استمعت، أو كان لي فيها تعقيب. أحداث الزمن هي التي تصنع تاريخنا الشخصي، تختلط الجزئيات لتصنع مشهد السيرة. الكثير عشت فيه، والقليل قصر مشاركتي على المتابعة، حرصت ألا أذكر واقعة واحدة لم أعش أحداثها على نحوٍ ما، رأيتها، استمعت إليها، تناولتها المناقشات، حرصت على اتصال الخيط، لا يُفلت من يدي، يتشابك، ولا ينقطع، إذا غابت تفصيلات مهمة، فلضعف الذاكرة.

عدت إلى مصر في نهاية عام ١٩٨٥م، بلغت سن المعاش لخريجي الأزهر، كنت أستطيع البقاء حتى دون أن أكون خطيبًا، قرَّ عزمي أن أرحل إلى مكة، أقيم بالقرب من البيت الحرام مجاورًا، حتى يأتيَ الأجل. الحنين إلى الأوطان أشد في الكِبَر، والإحساس بقرب الرحيل. أعرف قيمة النهاية في ثرى الأراضي المقدسة، لكن ترددي حسمه الحنين إلى الأبناء والأحفاد والمسافرخانة وبحري والإسكندرية.

في امتداد لحادثة سعد حلاوة الذي اعتصم بالسلاح في قريته «أجهور الكبرى»، رفضًا لمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، قتَل المجند سليمان خاطر عددًا من الجنود الإسرائيليين، وأصاب آخرين. حزنت لنبأ استشهاد سليمان خاطر. أشار البيان الحكومي المصري إلى انتحاره، وأكد شهود أنه قُتِل بواسطة الموساد الإسرائيلي، وبصمت الحكومة المصرية.

أبذل جهدًا لتذكر بعض الأشياء. الذاكرة انتقائية، قد أنسى واقعة مهمة، وأتذكر حادثة تافهة، يصعب للإلحاح أن يستعيد ما حدث، لكن الملاحظة السريعة تعيد ما كان غائبًا، ما توارى في الذاكرة، تتلاشى الغِلالات فتبين الصورة واضحة.

تمرد الأمن المركزي أول ما عشت أحداثه عقب العودة، اقتَصرَتْ على الجيزة والقاهرة، الشرارة في معسكر للأمن المركزي بالهرم، لم تتسع دائرة الأحداث، لكن الأصداء جاوزت الجيزة والقاهرة إلى مصر كلها، أشفقت على وزير الداخلية أحمد رشدي، أدركت أنه يدفع ثمن مواجهته للفساد، قيل إنه ضيَّق على تجار المخدرات، فتحالفوا مع الحزب الوطني.

استمعت — بالمصادفة — إلى حوار لحسني مبارك في التلفزيون، قال إن ما قدمه لمصر لا يقاربه إلا منجزات محمد علي. تناسى ذلك الحوار بعد أن دان كل شيء لسطوة الفساد.

ليس معنى سكون الجسد الميت أنه يخلو من الحركة، لكنها حركة مغايرة، هي التحلل والتعفن وتلاشي الحياة. إذا استثنينا أحداث الأمن المركزي، فإن المشهد في أيام حسني مبارك يبدو ثابتًا لا يتبدل، أيام — على طولها — كأنها يوم واحد، كرَّت فترة حكمه متشابهة، الأحداث الطارئة أشبه بهوامش على المتن، يظل المشهد بتكويناته الأساسية، بألوانه وظلاله وأعماقه، عنوان الفساد يشي بجهارة لا أحبها، وإن كانت هذه هي التسمية الصحيحة.

البداية واعدة: التأكيد على أنه لا عصمة لأحد من سيف القانون، عدم التهاون مع أي انحراف أو تسيب، التصدي لمظاهر المحسوبية، التوعد بمكافحة الرشوة وفساد الجهاز الحكومي، نفى أن يكون للزوجة تدخل في المسئوليات العامة، الكفن بلا جيوب، والهدف تحقيق مجتمع الطهارة والعدالة، لا مجتمع الامتيازات والفوارق الطبقية.

ظلت قرينة الرئيس بهذه الصفة منذ تولي الرئاسة، ثم استعدنا تسمية السيدة المنسوبة إلى زوجها، والسيدة الأولى، فضلًا عن رئيس جمعية الهلال الأحمر، ورئيس المجلس القومي للمرأة، ورئيس مكتبة الإسكندرية، ورئيس مكتبة الأسرة.

تكرر تزوير الاستفتاء أربع مرات في عهد مبارك، مرة كل ست سنوات، على مدى ثلاثين عامًا، لا خصم ينافس المرشح الوحيد في الاستفتاء.

دخل أيمن نور ونعمان جمعة السجن لتصديقهما حرية الحياة السياسية، وترشيح كل منهما نفسه للرئاسة، وحصولهما — رغم التزوير — على أصوات مقاربة للأصوات التي حصل عليها مبارك، قرصة أذن قاسية!

عرَفت مما نشرته الصحف — متأخرًا — أن مبارك وضع صورته مكان سعد الشاذلي في غرفة عمليات حرب أكتوبر.

لماذا أبعد عبد الحليم أبو غزالة من منصبه كوزير الدفاع؟

حل — بدلًا منه — حسين طنطاوي، قيل كلام كثير، وإن فسرته — بيني وبين نفسي — أنه تعبير عن صراع الفساد في قياداته العليا.

أحزنتني الممارسات القاسية ضد المظاهر الإسلامية، وإن لم تقلل الحكومة من انتشار اللحى والحجاب.

أَعجبُ للتناقض الحادِّ بين خطاب مبارك وتدهور الأوضاع بما لا يبدو له نهاية. لم تعد الدولة قادرة على تحسين المعيشة، والقضاء على الفساد، وعلاج الأمراض التي استوطنت أجساد المصريين، ذكرني قول مبارك إن إصلاح الصرف الصحي هو المشروع القومي لحكمه، بمشروع مقاومة الحفاء الذي تواصل منذ نهايات الحرب العالمية الثانية، إلى زمن حكومة الوفد، تعرفت — عقب عودتي — إلى تعبيرات لم أكن استمعت إليها من قبل، عكست طبيعة الفترة: الزمبة، الإسفين، المهموز، وغيرها من مفردات زماننا الحالي. صارت مصر تابعة لا متبوعة، تتلقى المعونات والأوامر، وتهمل دورها في قيادة العرب، إذا اعترفنا بأن الزمن يُسرق، فسأقدم بلاغًا ضد مبارك بسرقة ثلاثين عامًا من زماننا، من حياتنا.

إذا كانت المعارك العسكرية قد توقفت بين مصر وإسرائيل، فإن الحرب الاقتصادية التي قادها في الجانب المصري هواة وفاسدون، عادت على البلد بكوارث هائلة. لو أن التراب يؤكل، فإن مصر كانت ستخلو من كل ذرة تراب، الجوع كافر. عاد الانفتاح بدرجة أعلى مما كان عليه أيام السادات، مئات الأخبار والمقالات تحدثت عن انتقال البلاد من اقتصاد الدولة إلى اقتصاد السوق الحر، كل شيء صار مستوردًا، حتى القطن محصولنا الأول،

نستورده، لم يعد أمامنا إلا استيراد البشر! صندوق النقد الدولي أمسك عصا القيادة، بما انعكس على أداء الوزارات والهيئات، زاد حجم الأغنياء والفقراء، اتسعت الفوارق، استعادت ذاكرة الطبقة الوسطى أيام ما قبل الزوال. صار الفساد هو القاعدة، ما عداه استثناء.

هل كانت الوعود الجميلة معبرًا للحكم؟!

لاحت نذر العاصفة القادمة في مشاهد متتالية: مواطن أشعل النار في نفسه، تعدد المظاهرات والإضرابات والاعتصامات، صار من مشاهداتي اليومية: سلم نقابة الصحفيين، دار القضاء العالي، ضريح سعد زغلول، أبواب نقابة المحامين، سور مجلس الشورى.

فاجأتني المظاهرة وأنا أتهيأ لعبور المسافرخانة، لم يكن العدد كبيرًا، ربما أقل من مائة متظاهر، غالبيتهم من الشباب، وشت ملابسهم بالانتماء إلى طبقة ميسورة. الهتاف هو ما جذب انتباهي: لا للتمديد، لا للتوريث. أيقنت أن ما أراه هو الخطوة الأولى، تليها — بالضرورة — خطوات أخرى، يرفض المصريون التمديد لحسني مبارك، والتوريث لابنه جمال. لم يكن ذلك واردًا في إطار التصور. أذان الظهر يُرفع في زاوية خطاب، المظاهرة قادمة من الحجاري إلى المسافرخانة، اتجهت إلى صَفَر باشا، ومنه — في الأغلب — إلى سراي رأس التين، أحد مقارِّ الحكم.

تبدلت الوقفات الاحتجاجية على إعادة ترشيح حسني مبارك، إلى وقفات احتجاجية على ترشيح الابن جمال بدلًا من أبيه.

صار مألوفًا أن يرأس جمال مبارك لجنة السياسات، واجتماعات الوزراء وكبار رجال الدولة، ويرافق الرئيس، أو يمثله، في زياراته إلى دول العالم. وحين أشارت مَجلة سعودية إلى تضخم النفوذ المالي لجمال وعلاء مبارك، مُنعت المَجلة من دخول مصر، وأُغلق مكتبها في القاهرة، وتوسط الأمير عبد الله — ولي عهد السعودية آنذاك — لإنهاء الأزمة، فرُفضت وساطته.

هل حانت الثورة؟!

لم أكن أعرف حركة كفاية، حتى كلمني عنها الأحفاد. بدأت في متابعتها من يومها. تعرفت إلى هذه الوجوه من قبل، رأيت أصحابها في الصحف، وعلى شاشة التلفزيون.

تقدم السن يُلزم المرء — أحيانًا — بأن يبيِّن عن مشاعره، بما لا يعكس تأثيرًا سيئًا، لا ينفعل، ولا يعلو صوته، وينطق بالنصيحة، ويرفض التعبيرات الفجة. كنت أكتم انفعالاتي المشفقة، وأنا أشاهد ما يتاح عرضه على التلفزيون من مظاهرات كفاية، أكثر من العشرة، وأقل من العشرين، يحيط بهم المئات من رجال الشرطة، تعلو الهتافات بما لا أرضي أن

الحكومة توافق عليه، أجد في سخط أبنائي وأحفادي ما يدفعني إلى امتصاص انفعالي، والاحتماء بتقدم السن.

توقعت أن تُحدث كفايةُ تأثيرًا ما في حياة المصريين، لم يشرد ذهني في تصورات. كفاية! ...

تأملت المعنى، هل الكلمة تحذير للنظام، أو أنها تعبير عن الإحباط الذي تملك النفوس؟ ما همني أنها تمضي في طريق الثورة، قد لا يعبر بضعة أفراد عن المعنى الكبير، لكن المثل يتحدث عن معظم النار التي تحدث من مستصغر الشرر، أَمْيز ما في الحركة المفاجئة أنها تجمع شخصيات تختلف آراؤها وتوجهاتها الدينية والسياسية.

أضافت إلى كفاية أحاديث هيكل في الجامعة الأمريكية، وحركة استقلال القضاء، والإضرابات الفئوية، وحركة ٩ مارس لاستقلال الجامعات، والتصدي لمشروعات الفساد في عمر أفندي ومدينتي، وتصدير الغاز لإسرائيل.

شابَ صوتَه ما يشبه السخرية: كنت أعرف بوجود الفساد، لكنني لم أتصور أنه بهذا القدر؟

كيف احتلت مصر المركز الخامس عشر بعد المائة من بين مائة وتسع وثلاثين دولة؟!

تحولت أعراض الفساد إلى أمراض متوطنة. أذكر تقرير لجنة تحقيق في مؤسسة حكومية، قال إن حجم الفساد في المؤسسة يفوق قدرة اللجنة على إحصائه.

ثبتت العادة المصرية القديمة: التصرف بردود الأفعال، نُهمِل حتى حدوثِ الأزمة، ثم نتحرك لعلاجها، تناسينا أن الوقاية خير من العلاج، ولعلها تغني عنه.

ساعد على التنبؤ بالحدث القادم ما حفلت به الصحف والقنوات الفضائية من بيانات وأرقام حول الفساد، وتفاقم أعداد الفقراء وساكني المقابر، وزيادة محاولات الانتحار. أفزعني تقرير لمركز البحوث الجنائية والاجتماعية، أكد أن أكثر من ٨٠٪ من المصريين يعانون الإحباط.

لم تنشأ الثورة من فراغ، سبقتها إرهاصات غابت عن النظام الحاكم، أهمل قراءتها، أو — كما قرأت — تملَّكه العناد، أخطرها وضع رجال الأعمال أيديهم على الحزب والحكومة وموارد البلد.

من المقبول في عهد الملكية رجال اقتصاد مثل عبود وفرغلي وأبو رجيلة والوكيل. تلك كانت طبيعة اقتصاد المرحلة، رأسمالية في حقيقتها، والاشتراكية في قصيدة لشوقي، وفي اسم حزب، وشعارات المعارضة. ما يصعب قوله في العهد الذي لم يُلغِ وظيفة المدعي

الاشتراكي أن يكون حسين سالم — بفسادٍ معلن — واجهة الاقتصاد، بالإضافة إلى صداقته الوثيقة برئيس الدولة.

بتوالي الأحداث بدأت قمة الجبل الثلجي في الذوبان: عبَّارة السلام، إضرابات المحلة، مظاهرات الخبز والبوتاجاز، اعتصامات موظفي الضرائب العقارية أمام مجلس الوزراء ومجلسي الشعب والشورى، انهيار صخور الدويقة، وحوادث قطارات الصعيد وكفر الدوار والعياط، والعبَّارة العائدة من الحج، تصدير الغاز لإسرائيل، عنف الشرطة في مواجهة مظاهرات العمال واعتصاماتهم. ظلوا على تحركهم حتى نالوا ما يريدون. توالت المظاهرات والإضرابات والاعتصامات والوقفات الاحتجاجية، قوامها موظفو مجلس الوزراء وخبراء وزارة العدل، والشهر العقاري، ونادي القضاة.

تجاربي مع الشرطة تشي أن لفة البانجو لا شأن لها بموت الشاب خالد سعيد، ظني أنه قُتل بالتعذيب، لا أملك وقائع محددة، لكن حدسي — من خلال تجارب سابقة — لا يخيب. هو شاب في الثامنة والعشرين، عرَفت أنه صديق لحفيدي هاني، يتبادلان الرسائل الإلكترونية، قبض عليه شرطيان في مقهى إنترنت بسيدي جابر، اقتاداه إلى قسم الشرطة بتهمة إعادة تدوير مضبوطات مخدرات. نفضت رأسي لتصور التعذيب الذي واجهه خالد سعيد في مدخل بناية بالإسكندرية، ربما ذهبت به أول ضربة إلى الموت، لا أتصور الإهانة، ولا التعذيب، ولا سحق الكرامة، ربما هي الشرارة الفعلية للثورة المرتقبة.

قال هاني إنه التقى خالد سعيد في مقهى إنترنت، هو الشاب الذي نشرت الصحف نبأ ضربه حتى الموت.

قرأ لي حفيدي هاني كتابات في الفيسبوك باسم خالد سعيد وكفاية وستة إبريل، جماعات لا أعرف إن اقتصر نشاطها على وسائل الاتصال، أم أن ذلك النشاط جزء من تحركها السياسي؟ هل تنتمي إلى أحزاب سياسية قائمة، أو إلى تنظيمات سرية كتلك التي تكونت في نهايات الحرب العالمية الثانية؟ أو كتنظيم الضباط الأحرار الذي تبنى حركة يوليو؟ أو حتى التنظيم السري للإخوان المسلمين، وتأثيره السلبي على الجماعة؟

بدا — في لحظات — كأنه يشرد فيما لا أتبينه، تمنيت — بيني وبين نفسي — لو أنه أطلعني عما يشغله، واستغرقه في الشرود. قال في هدوء من يصل ما انقطع: ذاكرتي هي الوثيقة الوحيدة التي أمتلكها عما حدث. الذكريات تخصني، رحل من كانوا يشاركونني استعادة ما جرى، أتذكر بمفردي، تبدو الذكريات شاحبة، أُجهد الذهن لامتصاصها، ربما ومضت ذكريات مفاجئة، أعيد تأملها، أحدق جيدًا لأتبين موضعي في الصورة.

حدثني أبنائي وحفدتي وجلساء زاوية خطاب عن المعركة الانتخابية، غاب ما كنت أعيشه من قبل، وإن شاهدت جولة انتخابية، أحاطت مجموعة من لابسي الجلابيب البيضاء بشاب في حوالي الأربعين، لحيته مدببة، يهز يده للمارة والمطلين من النوافذ. لم أرتح للشعار الذي رفعته لافتاتها: «الإسلام هو الحل». يعطي الفرصة لشعارات أخري: المسيحية هي الحل، اليسار هو الحل، الرأسمالية هي الحل، حلقات في سلسلة لا تنتهي.

حين انضم الرائد محسن عبد الخالق نائب مأمور قسم الجمرك إلى نصف الدائرة حولي، توقعت أن زيارته لأمر يتصل بالانتخابات، صح توقعي في همسه وهو يمد ساعده ليعين خطواتي: نعتمد على فضيلتك في كسب التأييد لمرشح الحزب.

هززت رأسي بما لا يعكس معنًى محددًا، أدركت معنى المرض السياسي لما لزمت البيت — حتى انتهاء الانتخاب — بوعكة ألَمَّت بي.

انتخابات أحمد عز — هكذا سُمِّيَت، لأنها زُوِّرت بمعرفته — هي الباب الذي انفتح عن آخره للمطالبة بمنع تزوير الانتخابات، والقضاء على الفساد، عبره متظاهرو ٢٥ يناير نحو الثورة. بدا أن كل شيء سيظل على حاله، إذا حدث تغيُّر فللأسوأ، للتوريث وتفشي الفساد وسيطرة رأس المال الطفيلي على الاقتصاد، والعشوائيات، وشحوب الخدمات الصحية والاجتماعية، وتدني مستوى التعليم، وتحول الشرطة إلى خدمة الحاكم ومطاردة معارضيه، وتوقعات أخرى كثيرة.

استعادت الأحاديث في البيت، وفي زاوية خطاب، حادثة مقتل الشاب التونسي بوعزيزي. أرفض الانتحار تعبيرًا عن المقاومة، المقاومة تعني التحدي والوقوف وقتال الأعداء، يحاول العدو قتلي، لكنني أحرص على المقاومة حتى الموت. تعددت محاولات التقليد لإقدام شاب تونسي على الانتحار، تعددت حالات انتحار المواطنين المصريين، ساءتني تصريحات مسئولي الحكومة: الانتحار ليس حلًّا ... الانتحار يرجع لأسباب نفسية ويجب ألا يستخدم للابتزاز السياسي ... انتقال عدوى تونس كلام فارغ ... مصر متقدمة بستين مليون مستخدم للمحمول ... ما يهمنيش ألف بوعزيزي ... اللي عاوز يحرق نفسه يتفضل ... المصري اللي حرق نفسه ما يستاهلش المناقشة ...

شرارة بوعزيزي أشعلت الثورة في تونس، المؤشرات المصرية لا تنتهي في اتجاه الثورة التي نريدها، شرارة خالد سعيد توشك أن تُحدث ما توقعته من النيران، أراني حفيدي هاني صفحة خالد سعيد على الإنترنت، قال إنها تدعو إلى الثورة. بدا من تتبع الناس أحداث تونس أنهم يطمحون لتكرارها، الظروف — في غالبيتها — متشابهة. ثورة الياسمين

تسمية جميلة. ظني أن الكثيرين تمنوا أن تبلغهم الرائحة، انعكس السبب المهم للثورة في تعدد محاولات انتحار مصريين حرقًا، محاكاة لإحراق البوعزيزي نفسه. الشاب التونسي بوعزيزي — متأثرًا بإحراق نفسه — شرارة حوادث انتحار أخرى في القاهرة، وفي مدن الأقاليم، مهدت — ربما — لأحداث تالية مهمة. تعددت الأخبار عن مواطنين انتحروا في أقسام الشرطة، رباط الحذاء أداة الانتحار شنقًا.

لم أتصور ما حدث، كان كل شيء في قبضة النظام. تقدم العمر والأحفاد والتفاهة والملل ... ذلك كله جعل من التفكير في الثورة عبثًا لا جدوى من ورائه، وضعت ثورة تونس قدمها على أول السلم، تبعها مصر واليمن وليبيا، وربما — في المستقبل — دول عربية أخرى.

اتسعت المظاهرات والإضرابات والاعتصامات وتعطيل العمل وقطع الطرق والعنف وقنابل المولوتوف. زاد ترديد أسماء البلطجية وأطفال الشوارع والفلول والطرف الثالث والباعة الجائلين.

الاختلاف بين عبد الناصر وكل من السادات ومبارك أجده في إعادة عبد الناصر محاكمات الطيران، وإصدار بيان ٣٠ مارس. وصف السادات انتفاضة الخبز بانتفاضة الحرامية، واكتفى مبارك بالقول — تعليقًا على اتهامات المعارضة بتزييف الانتخابات: خليهم يتسلوا.

خليهم يتسلوا، ظني أنه لو كان مبارك في ظروف نفسية طبيعية، ما صدرت عنه هذه العبارة. ذكَّرني بما رواه المؤرخون عن نيرون الذي شاهد إحراق روما، وهو يعزف على القيثارة. الشوارع تشغي بالمظاهرات والإضرابات والهتافات وجنود الأمن المركزي والهراوات والخوذات والمدرعات والكردونات المسلحة. تحول المشهد في فم الرجل إلى نكتة.

عندما يشتد الفعل، فإن علينا أن نتوقع رد فعل مساويًا له، أو أقوى. حدثت المفاجأة في وقت كان اليأس قد بلغ عمامتي.

ما جرى في ذلك اليوم ليس وليد ذاته ولا مصادفة. إنه الموجة العالية التي أزاحت أوساخ البحر، سبقتها موجات حركت سكون الأشياء: وعاظ المساجد الأهلية والزوايا، مقالات الصحف الحزبية والمستقلة، اعتصامات موظفي الشهر العقاري، العيش على رصيف مجلس الشوري، مظاهرات حركة كفاية، انتحار شاب لأنه لم يحصل على الوظيفة التي يستحقها، غرق العبَّارة، حريق مسرح بني سويف، كارثة القطار ...

في زمني، اتهمت النيابة رجلًا سرق خمسين ألف جنيه بأنه أضر بالاقتصاد القومي. اليوم تُسرق المليارات بلا مبالاة. إذا انحرف الحكام بابتعادهم عن صحيح الدين، فإن الناس أساءوا إلى الدين بما أَلِفوه من فهم خاطئ وتشوهات.

أسند ظهره إلى الكرسي، وسرح بنظراته، ومد ساقيه أمامه، كأن ذاكرته — رغم اعتذاره بشحوبها — وعت كل ما قرأه وسمعه وشاهده، يعيد رواية ما يذكره كأنه حدث بالأمس.

وهو يهز رأسه: ذكريات الشيخوخة كثيرة، تمتد بسني العمر. أما التوقعات فهي قليلة، تكاد تقتصر على المعنى الوحيد الماثل في نهاية الأفق.

شردت في حلقة الذكر على رصيف البوصيري، مكتبة النن بالموازيني، العرضحالجية في مدخل وزارة الأوقاف بشارع فرنسا، الرجل العاري الصدر يدعو المحيطين لتقييده قبل أن يفك أسر نفسه، سباق البنز على طريق الكورنيش، حصار الجيش لسراي رأس التين، الأولاد والبنات يجرون وراء عربة الرش، أرتال العربات تنقل الجنود الإنجليز إلى خارج الإسكندرية، الجلوات في انطلاقها من ميدان الأئمة — عبر شوارع الأباصيري وإسماعيل صبري والميدان — إلى جامع الشيخ، صوت أميزه، أفتقده منذ غبت عن بيت المسافرخانة، اختلاط رنين الأوعية والملاعق والسكاكين في المطبخ الذي لم أر ما بداخله.

قال: أبذل جهدًا لتذكر بعض الأشياء. الذاكرة انتقائية، قد أنسى واقعة مهمة، وأتذكر حادثة تافهة، يصعب للإلحاح أن يستعيد ما حدث، لكن الملاحظة السريعة تعيد ما كان غائبًا، ما توارى في الذاكرة، تتلاشى الغِلالات فتبين الصورة واضحة.

أكذب لو قلت إنه لم يعد لديَّ شيء أتذكره. تومض في الذاكرة — طيلة الوقت — صور وملامح، ربما التقطتها، أعيد تأملها. تداعيات لا حصر لها، وجوه وتصرفات وكلمات ومواقف، لا أستطيع أن أجد لها رابطًا، ولا كيف أربط بينها.

اعتدت — في ليلة العام الميلاد الجديد — مظاهر احتفالات الأجانب بالمناسبة: كسر الأوعية، إطلاق الصواريخ الملونة، المفرقعات، النزول إلى الشوارع. ترك الأجانب المدينة، لكن الاحتفالات ظلت قائمة. غاب أحفادي — ذلك المساء — عن نظري، عرفت أنهم يشاركون في الاحتفال. كنت قد تهيأت للنوم، لما تسابق الأحفاد في دخول الحجرة، أضاف كل واحد إلى ما رواه إخوته وأبناء أعمامه. أتذكر كنيسة القديسين، قلَّت مشاويري إلى ما بعد محطة الرمل، لكنني أتذكر الكنيسة والجامع الذي يواجهها، وشارع خليل حمادة بطوله والبنايات والمحال على جانبيه. كنت أتساءل: المسجد أمام الكنيسة، يعلو برج الكنيسة، يتبعه علو مئذنة المسجد، لماذا؟

توزعت الاتهامات ما بين إلقاء قنبلة، وتفجير حزام ناسف، ودس قنبلة موقوتة. لم أطمئن إلى اتهام محدد، ولا إن كان الفاعل هو من قُتل بتهمة ارتكاب الحادثة. أحزنني احتدام المعارك بين شباب الأقباط وقوات الأمن.

مقتل الشاب السلفي سيد بلال — فيما تلا العثور على جثته، بالقرب من مبنى أمن الدولة بالفلكي — بدا لغزًا مفتاحه في يد الشرطة. ما حدث في الكنيسة وما تلاه كان الباب الأخير إلى الثورة.

لم يتحرك الناس بدافع من الشعارات التي اعتدناها، لم ينادوا بالإسلام، ولا الاشتراكية، ولا سقوط إسرائيل، لكن الشعارات التي تولدت في الأحداث تبلورت في العيش والحرية والعدالة الاجتماعية، المعنى يكتمل — ربما — بشعار الكرامة الإنسانية الذي اختفى فيما بعد. حكامنا مجموعة من اللصوص غير المتمرسين، اللص الشاطر يترك لضحاياه ما يعينهم على العيش.

الثورة مفاجأة خالصة.

لم يكن لفرار زين العابدين في تونس صلة ظاهرة بما يجري في مصر، لكن الأفق السياسي في مصر وشى بنهاية أيام مبارك، لا واقعة محددة أستدل بها، لكن الشواهد كأنها الطرق المفضية إلى نهاية واحدة.

اقتصرتُ على دروس البيت والزاوية، حدث مد وجزر في مواقفي من الحكام بقدر ما عملوا لصالح الناس، والعكس، حتى قامت ثورة ٢٥ يناير، لا أحد يدعي التنبؤ، ما حدث مفاجأة لمن قاموا بالثورة، ولمن قامت ضدهم الثورة. هذه ثورة الإنترنت، قادتها شباب لا يحتاجون إلى مقاهي الحاسوب، المد قائم حتى يحدث الجزر — لا قدر الله — في تصرفات ظالمة، قادة ثورة ١٩١٩م أشفقوا على الطلبة من احتمالاتها، لكن الطلبة طوعوهم للثورة، هل يتكرر الأمر؟

مشكلة العدالة الاجتماعية تطل برأسها.

طالبت الأحفاد — مندهشًا — أن يعيدوا ما ردده المتظاهرون: غلُّوا السكر، غلُّوا الزيت ... بكره نبيع عفش البيت. مبارك بيه يا مبارك بيه ... كيلو العدس بعشرة جنيه. هم بياكلوا حمام وفراخ، واحنا الفول دوخنا وداخ. يا حاكمنا بالمباحث ... كل الشعب بظلمك حاسس. يا سوزان خافي عليه ... حنجبهولك من رجليه. يا منتقم يا جبار ... فوضناك تاخد بالتار. يا حرية فينك فينك ... أمن الدولة بينا وبينك. ارحل يعني امشي ... يمكن ما بيفهمشي. يا للعار يا للعار ... حسني بيضرب شعبه نار. مش ساكتين مش ساكتين ... إحنا خرجنا ومش راجعين.

مقاومة الحفاء كانت شعارًا في أيامنا. أخاف أن الشعارات لن تنتهي إن ظلت ظروفنا الحالية.

تردي الاقتصاد، غلاء الأسعار، التفاوت في الأجور، الفساد الإداري والسياسي، غياب الرعاية الاجتماعية والصحية، عدم تنفيذ أحكام القضاء، استمرار حالة الطوارئ ثلاثين عامًا، سطوة مؤسسة الشرطة، اقتصار التصدي للمشكلات بالحلول الأمنية. تعددت المسميات، وإن استهدفت المطالبة بالتغيير: ستة إبريل، كفاية، خالد سعيد، البرلمان الشعبي الموازي، الجمعية الوطنية للتغيير، بالإضافة إلى النقابات المهنية والتيارات السياسية الأخرى.

ساءني قول مبارك — تعليقًا على تحركات المطالبة بإصلاح الأحوال: خليهم يتسلوا. خشيت أن يكون الرجل ضحية معلومات مغلوطة، وتقارير كاذبة.

تتردد أسماء عمر سليمان، عمرو موسي، البرادعي، أحمد عز، المغربي، أحمد شفيق، جمال مبارك، الشريف، الفقي، نظيف، العادلي، وأسماء أخرى كثيرة، لا أعرف معظمها. آخر متابعات عمري: الإذاعة والتلفزيون، الغضب، الحواجز، المتاريس، الهراوات، خراطيم المياه، العصي المكهربة، الغاز المسيل للدموع، الرصاص المطاطي، الرصاص الحي، السيارات الصادمة، سيارات الشرطة التي تدوس المتظاهرين، الخوذ، الأقنعة الواقية، العربات المصفحة، القنابل المسيلة للدموع، الدخان الأسود، عربات الشرطة المحترقة، واجهات المحال المدمرة، قطع الصاج المنتزعة من الأبواب، أعمدة الإضاءة والتليفونات، خلو شوارع وسط البلد من المارة، غياب رجال الشرطة وأفراد الشرطة العاديين، المدن الكبرى في قبضة العنف. مشهد الحريق الهائل في مبنى الاتحاد الاشتراكي، وما رافقه من سرقة أثاثه، أعادني إلى حريق القاهرة، دعوت الله أن يجنب المصريين شر أنفسهم.

لم أكن أعرف أن ما أشاهده هو ثورة. كما صارحتك فإن الثورة فاجأت الجميع، حتى الذين دعوا إلى الثورة فوجئوا بقيامها.

نُذُر الثورة كانت واضحة، هل هي ثورة ضد الفساد والقهر والعدوانية والعنف والتعصب الطائفي؟ هل هي ثورة جياع؟ هل هي ثورة مضادة يدبرها النظام لتعديل أموره؟

ما حدث خالف أسئلتي وتوقعاتي، إنها ثورة الشعب كله.

تونس، ثم مصر، من التالي؟

أعادتني الهتافات إلى ثورة ١٩١٩م، الدين الله والوطن للجميع. شعار قديم، تمازج في أسماء سعد زغلول والشيخ دراز والقمص سرجيوس ومكرم عبيد، وخطب الرهبان من

فوق منابر المساجد، وخطب علماء الأزهر في الكنائس. تابعت تبدل الشعارات منذ «الشعب يريد إسقاط النظام» إلى «الشعب يريد إسقاط الرئيس»، بدت الأرض مهيأة للإثمار، خشيت أن تتحول المظاهرات إلى فوضى. تمنيت أن يظل المتظاهرون في اعتصامهم، لا تصرفهم وعود، ولا استفزازات، ولا محاولات بذر الشقاق. خرجوا للثورة، فلماذا يسيئون إليها بشعارات متناقضة. ساءني رفع الشعارات والشعارات المضادة، وتعدد الأعلام التي تعلن عن اتجاه ديني.

استندت إلى عصاي، أحدِّق في المشاهد المتوالية لمظاهرات عواصم المحافظات، كأنها التوابع للحدث المهم. كأن المظاهرات شملت كل المدن: المنصورة، الفيوم، السويس، بور سعيد، الإسماعيلية، الجيزة، الغردقة، سوهاج، طنطا، الإسكندرية، بنها، العريش، المنيا، شبين الكوم، أسوان، دمنهور، المحلة الكبرى، قويسنا، الزقازيق، بلبيس.

لاحظت أن غالبية المتظاهرين من الشباب، وغالبية الشباب من أبناء الأسر، غاب ما أَلِفناه من الوجوه الناطقة بالشر، جذبتني النظرات الملهوفة، والهتاف ناحية المطلين من النوافذ والشرفات: يا أهالينا، انضموا لينا!

تعليقات لا تنتهي، تصاحب مشاهد لميدان التحرير وجامع عمر مكرم والخيام المنصوبة أمامه، وجامع النور وشارع رمسيس. سألت عن مطالب المتظاهرين، ترددت مطالب كثيرة: تعديل الدستور، حل مجلس الشعب، إنقاص معدلات البطالة، تخفيض الأسعار، إتاحة العلاج، العدالة الاجتماعية، رفع الأجور، إجراء إصلاحات سياسية، التصدي لمشكلة الفقر. الإصلاح شيء مطلوب ... قبل الشعب ما ياكل طوب، يا وزرا طفُّوا التكييف ... مش لاقيين حق الرغيف.

قرأت كلمات عن الناس المحتشدين في ميدان التحرير، وعن أسماء كانت تملأ المشهد. هذه ليست انتفاضة الخبز كما سمَّى المصريون ما حدث في ١٩٧٧م، ولا هي انتفاضة الحرامية كما سماها السادات. إنها ثورة حقيقية، تنطق في الملامح والقبضات المتوعدة والهتافات: اعتصام اعتصام ... حتى يسقط النظام. يا جمال قول لابوك ... شعب مصر بيكرهوك. يا حرية فينك فينك ... الرئيس بينا وبينك.

تابعت المظاهرات في التلفزيون، استوقفني الشعار: سلمية ... سلمية. كأنه ينبه المتظاهرين بأن ذلك ما ينبغي أن يحرصوا عليه، ويرد الشرطة عن العنف.

الشباب هم الثورة في يومها الأول، لكنها — في الأيام التالية — ثورة كل المصريين، كل الأعمار والمستويات الاجتماعية، شاهدتها على شاشة التلفزيون. رفع الشيخ والقس

مصحفًا وصليبًا، ذكَّرني المشهد الجميل بثورة ١٩١٩م، وُلِدْت بعد قيامها، وإن لم تترك خاطري منذ شاهدت صورها.

لمحت — وسط المتظاهرين — كهلًا من المترددين على جلسة بيتي. أسعدني بناء المعتصمين دورات مياه خشبية داخل الميدان، كتبوا على أبوابها: حمام عمومي، تصرف فرضته الظروف، مثلما فرضت إقامة المنصات من الألواح الخشبية، وخيام الشعر والغناء والإسعافات الأولية. عادت أغنيات عبد الحليم، وصور عبد الناصر، وألحان ٢٣ يوليو.

حافظ سلامة، هذا الشيخ، قاد أبناء السويس ضد الغزو الإسرائيلي ١٩٦٧م، ها هو يقودهم ضد حكم مبارك.

ما أقلقني غياب رجال الشرطة، رأيت النهب والسلب والإحراق والتدمير، أي أحد يفعل أي شيء، والشرطة غائبة تمامًا.

هل تتكرر مأساة إحراق القاهرة؟ هل الإحراق والتدمير، بداية لاحتمالات صعبة؟!

خشيت أن زوال النظام سيؤدي إلى شروخ في بنية المجتمع، وإلى الفوضى، هذا ما نراه في الهجوم على أقسام الشرطة ومؤسسات الدولة والسرقة والنهب.

جمعة الغضب، زادت جموع المعتصمين في ميدان التحرير، أُلغيت صلاة الجمعة في عمر مكرم، وأُغلقت أبواب المسجد. نقلت القنوات الفضائية ميدان التحرير إلى بيتي، كأني أخالط المعتصمين، أشاركهم المظاهرات والهتافات، والمطالبة برحيل النظام. الصورة الثابتة، الساكنة، لميدان التحرير في تليفزيون القاهرة، تختلف عن الصور الصاخبة للميدان في القنوات الفضائية الأخرى.

اقتصار القنوات المصرية على نقل الجمود دفعني إلى العربية والجزيرة والبي بي سي وقناة ٢٤ الفرنسية، وغيرها.

لم أر في حياتي حشودًا أضخم من تلك التي صورتها القنوات الفضائية. إذا راعينا زيادة أعداد المصريين، فإن مظاهرات يناير تفوق ما سبقها من خروج المصريين للشوارع. هذه ثورة حقيقية، لولا الجدران وتفرعات الشوارع، ربما امتدت إلى الأفق.

قُطعت اتصالات المحمول والإنترنت، أُغلق كوبري قصر النيل والشوارع المحيطة بميدان التحرير، أُقيمت المتاريس الثابتة، مُنعت إقامة صلاة الجمعة في عمر مكرم، خرجت المظاهرات الصاخبة من جامع الأزهر.

أُنصت — بلا مبالاة حقيقية — إلى حديث الأبناء والأحفاد عن الإنترنت والتويتر والفيسبوك، أسماء بذلتُ جهدًا كي أحفظها، لا أعرف ما يسميه مَن حولي الشبكة

العنكبوتية، لا أذكر أني جلست أمام الحاسوب إلا لمشاهدة ما يكلمني حفيدي هاني عنه، صار لذلك كله قيمة في المناقشات والتعليقات، أدركت — بإيقافها — خطورة الحدث الذي نعيشه. الثورة هي المتن، الهوامش تطالعنا في الفوضى والتخريب والتدمير والإحراق والنهب.

لم أجلس — بحكم تقدم العمر — إلى الحاسوب، ولا أعرف ما اتصل به من وسائل أخرى. أعرف المسميات، نتداولها، الكلمات أمامي، لكنها تظل مثل الطلسم الذي لا أفهمه. أدركت قيمة هذه الوسائل في شعور الصدمة الذي تلقى به الجميع حجب مواقع الاتصالات.

الحزن الذي وسم ملامح عائلتي، بدا قاسيًا حين انقطعت اتصالاتهم بالعالم، لا وسائل اتصالات من أي نوع، استردت الهواتف الأرضية عافيتها، لكن الأنباء مشوشة ومضطربة، يرين الترقب والتوقع والاستنتاجات.

ثورة المواصلات والاتصالات ألغت بعد المسافات. أدركت قيمتها في نكتة رواها حفيدي طاهر: التقى مبارك — في السماء — الرئيسين عبد الناصر والسادات، سألاه: سم والا منصة؟ قال في تألم: فيسبوك!

أقلقني وقوف عشرات من سيارات الأمن المركزي، وعشرات من السيارات المصفحة وتشكيلات الجنود، في ميدان التحرير، والشوارع الجانبية، وسد الطرق بالحواجز والكردونات والمتاريس والأسلاك الشائكة وأسياخ الحديد وقطع الحجارة والأخشاب وبقايا ألواح الصاج. تملكني ذهول لسيارة الشرطة في اندفاعها إلى الوراء، تدهس من تلقاه.

حين نزل الجيش الميدان زاد القلق: هل يصادر العسكر الثورة؟ هل يعود حكم العسكر؟

التلقائية تعلو بالقبضات، يرافقها الهتاف: الشعب يريد إسقاط النظام، داخله اختلاف الشعارات: ألف تحية للمشير من ميدان التحرير ... يسقط يسقط حكم العسكر ... القرآن هو الدستور ... أرهفت سمعي لتبين كلمات الهتاف وسط تداخل الهتافات: الجيش والشعب إيد واحدة. هل هو تأكيد بانضمام الجيش إلى المتظاهرين، أو دعوة لانضمام الجيش إلى الثورة؟

أدركت انحياز الجيش إلى الشعب، حين أدى اللواء الفنجري التحية العسكرية للشهداء، تبدل الهتاف من «الشعب يريد إسقاط النظام»، إلى «الشعب خلاص ... أسقط النظام».

أداء عضو المجلس العسكري التحية لأرواح الشهداء، وإعلان المجلس عن انعقاده الدائم، وأنه سيصدر بيانات، يصب في مصلحة الشعب. في ١٩٥٢م تحرك الجيش، فسانده الشعب، وفي ٢٠١١م تحرك الشعب، فسانده الجيش. القرار الصائب يحتاج إلى فهم

وبصيرة ونفاذ رؤية، وقدرة على التصرف السريع، مراجعة النفس قبل اتخاذ القرار ربما تسبقها نتائج لا تخطر على البال. دفع مبارك ثمن تردده في معالجة الأمور، بدل المتظاهرون شعاراتهم، طالبوه بالتنحي. لو أن مبارك تنازل عن تصلبه، وعمل بنداء الشعب يريد إسقاط النظام، ربما لم يكن النداء الامتداد يعلو: الشعب يريد إسقاط الرئيس، وتبدلت المناداة من التنحي إلى طلب المحاكمة.

تعالت نغمة الشعارات من القول: من فضلك ارحل، إلى: هو يمشي مش حانمشي، إلى: انتهت اللعبة، الجيش والشعب إيد واحدة، بالإضافة إلى التعليقات الطريفة: امشي بقى إيدي وجعتني. أنا مستعجل مراتي بتولد. امشي، عاوز أحلق.

بلغت الأمور حدًّا فاصلًا. استنفد النظام كل حيله، لم يعد أمام مبارك إلا الاستقالة، بينما لم يعد الشعب يثق في وعود النظام.

اعترف عبد الناصر بخطأ نكسة يونيو في خطاب التنحي، لماذا لم يعترف مبارك بأخطاء حكمه؟

نُسبت الثورة إلى الشباب. سُميت ثورة الفيسبوك، المدونات، الرسائل الإلكترونية، تحدثت عن الأوضاع القائمة، والرغبة في التغيير، وضرورة النزول إلى الشارع. ملَّ الناس حكمة الرئيس، وتوجيهاته، وتزوير الانتخابات. طال جلوس الأبناء والحفدة أمام الحاسوب، يتابعون، ويشاركون، ويختصرون الوقائع.

ظني أن المبالغة هي التي نسبت الثورة إلى الفيسبوك والهواتف المحمولة، وغيرها من اختراعات العصر. أنت تنزع عن الثورة إنسانيتها عندما تنسب فضل قيامها لآلة، دورها يصعب التقليل منه، لكن الثورة صنع المصريين، ضحَّوا بأرواحهم، وبالعيش في الوطن، قُتلوا، أو ضيعوا أرواحهم في المنافي، لأنهم رفضوا السلطان الجائر.

ساءني كذلك من تحدثوا عن ثوريتهم لأنهم نزلوا التحرير، أو مروا بالقرب منه، ليس كل من ارتبطت ظروف عمله بعهد مبارك خائنًا، وليس كل من نزل التحرير وطنيًّا.

ألقى مبارك خطابًا أعلن فيه اعتزامه عدم الترشح لفترة رئاسية جديدة. تأثرت لقول الرجل: عشت في هذا البلد، وحاربت من أجله، ويحكم التاريخ عليَّ، إن مصر هي وطني الذي سوف أموت على أرضه. الموت في أرض الوطن! وضح تأثر المسيرة المليونية بوعد القوات المسلحة ألا تستخدم القوة ضد المتظاهرين، البيان صدر في الليلة السابقة، عرَف المصريون أن القوات المسلحة ستقف إلى جانبهم، وليس إلى جانب النظام.

بدا مباركٌ ضعيفًا، ومهتزًّا، وذليلًا، عانيت الإشفاق في العيش بين الاختيار والتمني، فترة إقامتي في الحجاز، أمضَّني التوزع بين مجيء الموت حيث أقيم، في الأرض المقدسة، وبين

أن أقضي بعد رحيلي إلى بحري، فرضت الحياة وتيرتها حتى عدت إلى بيت المسافرخانة. كتمت مشاعري أمام رفض الأولاد في البيت، ثم حاولت تناسيه، لكن عشرات ممن لا أعرفهم اقتحموا الميدان، يركبون الجمال والجياد والبغال، يشهرون السيوف والشوم والسنج والمطاوي. شاهدتهم على شاشة التلفزيون، توقعت أن يخيفوا المتظاهرين، لكنهم ظلوا في أماكنهم، وأسقطوا عددًا من راكبي الجمال. أُلقيت قنابل المولوتوف وكرات النار من البنايات المطلة على الميدان.

من أين أتوا؟

عشت في الرياض سنين طويلة، لم أر الجمل في شوارعها، ذكرني مئات الشهداء بقول عبد الناصر (كرهته — كما قلت لك — في الأول، وأحببته في الآخر) — عقب مظاهرات الطلبة في ١٩٦٨م: لو أن رصاصة واحدة أسقطت شهيدًا سنكون قد فقدنا شرعيتنا. أذرف الدمع — لتقدم السن — بلا مناسبة، لكنني أحسست بسخونة الدموع على وجهي، حين التقطت، من بين التصرفات والصيحات، حتى في داخل البيت، قرار مبارك بالتنحي. هل تنحى مبارك بالفعل؟ هل في الأمر خدعة؟ هل يسكت رجاله في الحكم عن تنحيه؟

خطأ الثورة عندما تقطع الرأس دون أن تفطن إلى الجذور المغروسة في عمق الأرض.

قهرني الغيظ لعناوين صحف الخميس، تتحدث عن تظاهر المصريين تأييدًا لمبارك، وتكشف مؤامرة مدبرة ضد مصر من أطراف أجنبية، وتطمئن المواطنين أن مصر ستتجاوز الفتنة، هل يتحدثون عن مصر أخرى، رئيس آخر؟ مواطنين آخرين؟

جمعة الرحيل.

تخيلت نفسي في وقفة خطيب الجمعة بميدان التحرير، قال ما كنت سأقوله لو أني في موضعه: لقد خلقنا الله أحرارًا، وسنظل أحرارًا، أدعو المصريين — كما دعا الخطيب — إلى الصبر حتى يتحقق النصر.

لو أنه اكتفى بولايتين، ما ترك الحكم بهذه الطريقة المهينة. أزاح المصريون رئيسًا رفضوه، وعرَفوا حقوقهم. حين أعلن عمر سليمان تنحي مبارك عن الحكم، شعرت أنه كل من ظلموا المصريين في توالي العصور، أن الملك فاروق، والحكومات التي دعوت لإسقاطها، تخلَّوا — بضغط الناس — عن السلطة.

علت الزغاريد والهتافات والصيحات والشعارات والأعلام والبالونات الملونة والأغاني، تعالت الهتافات: الشعب خلاص ... أسقط النظام. دلعه يا دلعه ... مبارك شعبه خلعه. افرح افرح يا شهيد ... النهارده يوم العيد. يا دستور يا دستور ... خلي بلدنا تشوف

النور. تأثرت لدموع المذيعة الشابة، عندما أعلن مبارك أنه يرغب في الموت على تراب مصر، أشفقت عليه شيخوخته وقلة حيلته وعجزه.

هل تكون الفوضى هي البديل لحكم مبارك؟ ... هذا هو ما توعد به الرجل في تصريحات صحفية، هل يتوقع، أو أنه أعد للأمر؟ هل إسقاط الرجل هو النهاية، أو أنه بداية ما يصعب توقعه؟ من يركب الموجة: الساسة القدامى، أم الإخوان، أم شباب التنظيمات الجديدة؟

خشيت أن تكون اللجان الشعبية بداية حرب أهلية. أفضت مأساة قميص عثمان إلى الفتنة الكبرى، أخشى من مأساة ٢٥ يناير.

أذهلني ما نشرته الصحف الأجنبية عن ثروة مبارك. هل بدأ الرجل بشعار الكفن الخالي من الجيوب، لينتهي — في ختام حكمه — بثروة تصل إلى سبعين مليار دولار؟

استعدت — وأنا أتابع أخبار أرصدة مبارك وأسرته في البنوك — نكتة مللت سماعها عن ابن مبارك الذي أنشأ عديدًا من المشروعات، وأسهم في مشروعات أخرى غيرها، أبدى مبارك إعجابه بشطارة ابنه الذي صنع ذلك كله من مصروفه الشخصي. إزاحة مبارك ليست هدفًا، الهدف هو التغيير.

لم يكن ما حدث في ٢٥ يناير منظمًا، ولا تابعًا لتنظيم أو حزب أو قائد يصدر لها الأوامر، ذلك هو تفسير الفوضى التي شملت تصرفاتها. تتناثر في الإذاعة والتلفزيون، وعلى أفواه الأبناء والحفدة، والقلة من الزائرين، أخبار حوادث العنف والفوضى والسلب والتدمير وفتح السجون وإحراق أقسام الشرطة ومقار الحزب الوطني. تألمت من الاعتداءات على المستشفيات ... لماذا؟! تحدثوا عن أحداث يتضاءل أمامها ما عشته في أحداث سابقة: توقف حركة القطارات، توقف خدمة الهاتف المحمول، هروب الآلاف من السجون، انتشار الفوضى وجرائم البلطجة.

فاجأت الثورة الجميع، حتى صانعيها، محركاتها مواقع التواصل الاجتماعي، هذا هو السبب في أنها بلا قائد. أقلقني غياب القيادة والتصور، لا أحد وضع في اعتباره ما سيعقب قيام الثورة. هل كان مبارك — وهو يوقع قرار التنحي — يعرف أن أحوالنا ستصير إلى ما انتهت إليه؟

إذا كانت الدولة قد أفلحت — زمان — في القضاء على فتوات الأحياء، فلماذا تعجز الآن عن تصفية البلطجية؟ تحتاج الثمار وقتًا للنضج، لكننا نتعجل قطفها، من أعطى هؤلاء تفويضًا للتحدث باسم الشعب؟ إنهم في واد، والناس في واد آخر، الشباب تجاوز الجميع.

قلت: فضيلتك تقول هذا؟

أحنى رأسه بالموافقة، ثم أردف القول: هل أكذب؟!

أطلق تنهيدة عريضة: لعل طبيعة الشعب المصري تغيرت، فلا يعود الشعب المسالم، الطيب، الذي يرضي بأقل القليل، يتحول إلى الرفض والعداء. فوجئ المصريون بالحرية المطلقة، فغاب الهدوء عن تصرفاتهم.

توقعت أن يرفع رأسه، فأرى تعبيرات وجهه، لكنه ظل على إطراقه.

نفض رأسه من الاستغراق، اتجه ناحيتي بابتسامة عصبية، كأنه بذل جهدًا في رسمها: مع ذلك، فإني أجد في الشعار الذي طرحه المتظاهرون بعد تنحي مبارك: مكملين، ما يدل على اتصال ثورة ١٩١٩م بأحداث التحرير، بتوقعات المستقبل، بالتطورات القادمة.

وهو يحدق في الفراغ: هذه ثورة حقيقية، أصلها بالثورة الأولى في ١٩١٩م وليس بحركة ١٩٥٢م، تختلف في طبيعة الجهة التي ثارت عليها: الاحتلال الإنجليزي في ١٩١٩م، وفساد الحكم في ٢٠١١م.

أضاف في نبرة تأثر: ثمانية عشر يومًا تساوي انتظاري سنين طويلة.

نقر على الطاولة بإصبعه.

– كان المصريون يتوقعون الثورة، لكنهم فوجئوا بها.

قلت: من قرءوا التاريخ جيدًا يعرفون أن ما حدث في ٢٥ يناير كان لا بد أن يحدث.

– أخشى محاولات كسب الوقت.

تصاعدت حركة الطريق، عرَفت أن الحرارة خفت عما كانت عليه في النهار. أخرج من جيب القفطان ساعة بكتينة، نظر إليها، ثم أعادها. ظل صامتًا، ساكنًا، لحظات، ثم رفع رأسه، واتجه نحوي بنظرة محدقة: كانت معاركي — قبل حركة الجيش — في مواجهة القصر والأحزاب الحاكمة. لما عدت إلى الإسكندرية، بدت الأحوال متغيرة، كنت أخطب بمفردي، ويستمع المصلون. لم يعد الفعل مقصورًا على الخطابة، وشهد الفعل تغيرات كثيرة.

– الجماعات الدينية؟

– من حاصرتهم الأوضاع القاسية، فوجدوا في الدين ملاذًا.

مقتل الشيخ الذهبي ذروة موجة من التطرف الديني، علت تلك المرة فأغرقت الشيخ المسكين، وأغرقت المتسببين فيها.

مناوشات الأقباط والمسلمين لم تصبني بالقلق، جزء من اللعبة لإسقاط الثورة. جدع يا باشا: هل فقء العين بطولة؟

يغيظني أن تكون السياسة مجرد تطلع إلى السلطة، مؤلم أن تفقد الدولة سيطرتها، الثمن يدفعه البلد، الإحباط يغري بالانتحار، قد يغري بالخروج إلى الشارع والمظاهرات

والعنف. أحيانًا، القيام بالثورة سهل، الصعوبة في الحفاظ على استمرارها. يناوشني السؤال: هل مصر الآن أفضل مما كانت عليه قبل الثورة؟

أضاف بنبرة أعادت إلى أذني صوت الواعظ القديم: مطلبي بإسقاط شرعية النظام لم تحققه حركة يوليو ... لعله يتحقق في هذه الثورة.

– لماذا الأولى حركة، والثانية ثورة؟

– الناس هم الذين صنعوا يناير وليس الجيش.

ثم وهو ينقر رأسه — متذمرًا — بأطراف أصابعه: ثورة ١٩١٩م لم تتكرر في الأحداث التالية، مظاهرات ١٩٣٥م أول ما أعيه من الأحداث السياسية، تواصلت بمظاهرات أعقاب الحرب إلى ما بعد حركة يوليو.

الفرق بين ما حدث في يوليو ١٩٥٢م، وما حدث هذا العام، أن الجيش هو الذي أعلن قيام ثورة يوليو، بينما بارك الجيش ثورة الشباب في ٢٥ يناير. أيقنت من نجاح الثورة، حين شاهدت الضابط الرفيع المقام يؤدي التحية للشهداء، أدرك قادة الجيش أنه لا شأن للغلابة بأحاديث الدستور والديمقراطية وحقوق الإنسان، لقمة العيش هي التي تعنيهم، احتياجاتهم تقتصر عليها.

مثَّل الجيش حماية للثورة، وإن خشيت استعادة العسكريين ما فعله ضياء الحق في بوتو، حرضه على انقلاب زائف لمناصرته، جعله ضياء الحق انقلابًا حقيقيًّا، وأعدمه. أخشى سطوة العسكر منذ حركة ١٩٥٢م، لكن تدخل العسكر كان هو المتاح الوحيد لإسقاط النظام، ماذا كان يحدث لو أن الجيش أطاع الملك قائده الأعلى؟

قلت: فرق بين أن أكلف قائد الجيش، أو أكلف قيادة الجيش مجتمعة.

وأومأت برأسي: الإجماع مستحيل!

ظل — لثوانٍ — صامتًا، ثم رفع رأسه متسائلًا: هل يقبل الناس حكم الجيش؟

ماذا كان يحدث لو أن الجيش وقف إلى جانب مبارك، بدلًا من أن يقف إلى جانب الشعب؟ ستكون المواجهة بين الجيش والمتظاهرين؟ لو أن الجيش فضل الحكم منفردًا، فإن خطر الحرب الأهلية وارد، الأخطر أن يعيد الجيش أيام القهر.

خذلتني الكلمات، لم أستطع أن أقول شيئًا، أو أنه لم تعد عندي رغبة في الكلام.

رنا بعين متأملة إلى شمس الغروب، تلامس النافذة الزجاجية، تضويها بالألق: نحن نعرف عرابي قائد الثورة ضد الخديو، وسعد زغلول زعيم ثورة ١٩، وعبد الناصر قائد حركة يوليو.

قاطعته قبل أن يكمل جملته: وهذه الثورة؟

– أشفق عليها إنها بلا قائد، ولا هدف تتجه إليه.

مد ساقيه، ثم تحسس ركبتيه، دلكهما: حتى شعاراتها غير محددة.

وراح يعد على يديه: عيش ... حرية ... عدالة اجتماعية ... شعار يصح في كل الأوقات، وليس بعد ثورة.

قلت: هل تخشى على الثورة؟

– أخشى أن يتحول الأمر عقب انهيار النظام إلى فوضى، يلقى الربيع العربي مصير ربيع براغ.

أغمض عينيه كمن يستعيد أيامًا فائتة: تسمية الربيع العربي ذكرتني بربيع أوروبا الشرقية، لما ثارت دول فيها على حكم السوفييت، هل يستمر الربيع، أو تدوس الديكتاتورية على زهوره؟

– ما رأيك في عودة الإخوان المسلمين إلى الحياة السياسية؟

– لم أكن إخوانيًّا.

– ألا ترحب بتوليهم الحكم؟

– حكم مصر تولته الأحزاب والعسكر والشيوعيون ... لماذا لا نجرب الإخوان؟

ما أعرفه أن الإخوان المسلمين كانوا جزءًا من حركة الضباط الأحرار عند قيام ثورة يوليو: رشاد مهنا وكمال الدين حسين وعبد المنعم عبد الرءوف وغيرهم ممن لم يظهروا في الصورة. غابت جماعة الإخوان المسلمين أيام الثورة الأولى: هل هو الخوف من النتائج؟ هل لأنهم أول من يستقبلون زوار الفجر؟ حاولت أن أجد عذرًا، لكن شعوري بالأسف غلب ما عداه. صح توقعي لَمَّا تواترت أنباء انفصال قيادات الجماعة، أَلِفوا السجن، فما يخيفهم من العودة إليه، الإحساس بالخوف هو الذي قد يضمن استمرار الحياة.

تطلع إلى خيوط الضوء والظل التي ترسلها النجفة في أنحاء الحجرة: لما أبلغت الجارية الإمام الشيباني بنفاد الدقيق، ضيعت من رأسه أربعين مسألة من مسائل الفقه.

مال برأسه إلى الخلف وهو يتثاءب.

– هذا هو فهم الإخوان لمشكلات الناس.

وشى ضعف صوته بالتعب: في شبابي كنت — لأسباب أعرفها — أعاني كثرة النوم، الآن أعاني قلته!

والتمعت عيناه ببريق التذكر: آخر الأسئلة التي استمعت إليها في زاوية خطاب، عن غاز الشرطة في المظاهرات: هل يفطر الصائم؟

– أجبت؟

هز يده في تهوين: لا ذنب للمتظاهرين في استنشاق غاز يؤذي صحتهم!

عندما نزل عشرات الشباب ميدان التحرير، بدءوا في تنظيف الميدان، وطلاء الأرصفة، وإزالة ما على الجدران من عبارات، عرفت أن اللحظات التالية تشغل الشباب، فهم يعدون لها.

أتابع — كل صباح — تنظيف الميدان، ورفع المخلفات، ووضع شتلات بدلًا من الزراعات التي داستها الأقدام، ثم يتبدل الحال، يلحقه تغيير آخر قبل أن ينتهي اليوم.

أفكر في سكان البنايات المطلة على الميدان: كيف يحيون؟ هل هجروا بيوتهم؟ هل يُتاح لهم النزول إلى الطريق، والذَّهاب إلى أعمالهم، وشراء ما يحتاجونه من طعام ودواء؟ هل يغلقون أبواب بيوتهم، أو يساعدون معتصمي الميدان؟

تململ في جلسته، قال إنه يعاني حصوة في كليته، لم يفلح الدواء في تذويبها، ويخشى من الجراحة في سنه المتقدمة.

– تقدم بي العمر … لم يعد لديَّ وقت لأروي كل ما يجب روايته. ألاحظ في نفسي ميلًا للكلام بما يختلف عما أَلِفته، واعتاده الناس، من حجب الكلام إلا لضرورة، ربما لتقدم السن تأثيره، العمر ينقضي دون أن يعطي المرء كل ما لديه من معارف وخبرات.

التقط العصا من موضعها على الجدار، رفعها، ضرب بها الهواء في تهيؤ للقيام.

قلت: هل تشارك في الأيام القادمة؟

– لم يعد المستقبل في حاجة لي، ما كان يجب أن أفعله، فعلته، تأتي بعد ذلك مهمة الأجيال التالية.

أفرغ ما بقي من كوب الشاي في فمه مرة واحدة: شاركت في المنقضي … هذا يكفي.

خفتت الأصوات، وتضاءلت، ظلت في تباعدها إلى أن تلاشت.

وهو يغلق النافذة: المغرب، يختفي الذباب، تحل لسعات البعوض.

داخل نبرته رنين: كنت معارضًا لحكومات عدة … المرحلة التالية تحتاج إلى من يؤيدها أو يعارضها.

ووضع راحته على فمه، يحاول مداراة تكرار تثاؤبه: هذا ليس زماني.

# إذا أردت الثمرة ناضجة، فاصبر

بهتت الأصوات المتصاعدة من الطريق. التفتُّ ناحية النافذة، امتدت الرؤية في الطريق بما يشبه الضباب، مال إلى زر النور خلفه، وأضاءه.

استعدت في نبرات صوته ما ذكَّرني بالصوت نفسه في خطب جامع علي تمراز: ألم يَهِن بالشيخوخة؟!

قال: أحرص ألا أكرر المنيكلي باشا في رواية المويلحي.

ونظر ناحيتي ليتأكد ما إذا كنت قد فهمت المعنى.

قلت: رواية حديث عيسي بن هشام.

– لم أكن ميتًا فصحوت، بل أنا دائم اليقظة حتى تحل إرادة الله!

وهز كتفيه بلا مبالاة: لم يعد من العمر أكثر مما مضى.

اجتذبني — في مظاهرات الإسكندرية — مشهد الممرضات يرتدين اللباس الطبي الأبيض. عرَفت أن المظاهرات شملت كل الناس، اختلطت الأعمار والمهن والوظائف، الكل مصريون.

كان أحفادي يظهرون أمامي، ويختفون، دون أن يُظهروا أنهم يشاركون فيما يجري، أو يتابعونه، أحاول تبين ما يخفون، إن كان قد حدث ما كتموا روايته.

روَوا لي عن المعالم التي بدأت في التساقط من دنياي القديمة، الدنيا التي أعرفها جيدًا: حرائق في قسم باب شرقي، ومبنى أمن الدولة. حتى مبنى المحافظة بشارع فؤاد، عرَفت أن المظاهرات دمرته تمامًا، بناية تراثية جميلة وهائلة، حزنت لفقدها، كأن كل شيء قد دُبِّر بما يُحدث حريقًا مشابهًا لحريق القاهرة في منتصف القرن الماضي.

داخلني خوف حقيقي لتوالي الأخبار عن إحراق أقسام الشرطة والهيئات الحكومية ومقار الحزب الوطني، أولى أن يستولي عليها الثوار، بدلًا من تدميرها. انعكست حرائق

المدينة في الدخان الذي غطي السماء من فوقي، لا أعرف مصدره، لكن أنباء الحرائق توالت: حي العجمي، نقطة شرطة فوزي معاذ، محكمة الدخيلة، أمن الدولة بالعجمي، قسم الدخيلة، قسم العطارين، مديرية أمن الإسكندرية القديمة، نهب مقر الحزب الوطني. أقلقني اقتحام السجون وأقسام الشرطة، وتهريب السجناء والأسلحة.

حتى مبنى محافظة الإسكندرية دمره الحريق تمامًا، سِرتُ أمامه قبل أن أترك المدينة، وبعد عودتي إليها، كأنه الأثر الجميل، تذكرت نكتة الزوج الذي أراد أن يعاقب زوجته، فخصى نفسه. لجأ المتظاهرون إلى البصل والخل لمواجهة الغازات. يقرأ الأحفاد على الإنترنت — هل هذه هي التسمية الصحيحة؟ — أسماء: كلنا خالد سعيد، ستة إبريل، الجبهة الديمقراطية، إسلاميون، السلفيون، وتسميات أخرى أسقطتها الذاكرة.

قال لي فرغلي بائع الخضر في شارع صَفَر باشا إنه أعطى كل ما في دكانه من البصل للمتظاهرين حتى يسعفوا حالات الإغماء!

وقال مريد في زاوية خطاب: هذه هوجة، الفرق بينها وبين الثورة أن الثورة فعل.

لم أتأمل المعنى، ولا حاولت مناقشته، وإن اقتحمني الخوف بالسؤال: ماذا يفعل النظام لو أنه انتصر؟

قلت: هل شاهدت مظاهرات القائد إبراهيم؟

وهو يَزيد من ضغطه على العصا، ويهز رأسه: في لحظةٍ ما، أيقنت أن الثورة لن تنتهي إلا بنجاحها، يرحل حكم مبارك، يحل حكم الثوار. رأيت ما أسعدني من الغرفة ٤١٨ في الطابق الرابع بفندق متروبول. صحبني إلى هناك أحد أحفادي.

أضاف مستدركًا: أستاذ في كلية الهندسة. أتاح لي مشاهدة ما حدث دون معاناة للزحام.

وملأت الابتسامة وجهه: جمعة المظاهرات في القائد إبراهيم اختلفت عن المظاهرات أيام إمامتي في علي تمراز، شملت مسافة المساحة ما بين المسجد والميدان والشوارع المتفرعة، آلاف الرءوس المتلاصقة، والقبضات الملوحة، والهتافات، شغل المتظاهرون حتى النوافذ المطلة من البيوت على الجانبين، والسقف الحجري لمحطة الترام، اختفت أرض الطريق في صفية زغلول وسعد زغلول والغرفة التجارية، والمسافة إلى الكورنيش، وشارع شامبليون وشوارع الأزاريطة.

فتح أحفادي الباب الخارجي لتوالي الطرقات. عرَّفني مأمور قسم الجمرك بنفسه، أعاد روايات للناس عن وقفاتي في وجه الملك، ونصحي له، ولحكومات الأقلية. طلب أن أقنع المتظاهرين في بحري بالانصراف، ظن أن لي تأثيرًا عليهم.

قلت: ساعدهم على نيل مطالبهم.

ثم وأنا أمضي إلى داخل البيت: «لن يعود المتظاهرون إلى بيوتهم إلا بعد رحيل مبارك.»

تعددت المظاهرات — عقب صلاة الجمعة — من القائد إبراهيم وابن خلدون وميدان الساعة وشارع الإسكندراني ومحطة مصر وشارع أحمد مرسي بدر، وأمام أقسام العطارين والمنشية وباب شرق. عشرات الألوف قدِموا من العطارين والمنشية ومحرم بك وجليم والمندرة والعصافرة، ظلِلت في أبي العباس عقب الصلاة، لم أغادره. كانت المظاهرات قد امتدت إلى طريق الكورنيش، وإلى الشوارع الجانبية. عندما شاهدت المظاهرات تصل قصر رأس التين، أدركت أن الثورة بلغت بحري، يختلط الناس والأغنيات والهتافات والأعلام وعربات الإسعاف واللافتات والباعة السريحة، لو أنها تلاحمت في ميدان واحد، يسعها، ربما فاقت حشودها ما ضمه ميدان التحرير.

قال: تلاصق المتظاهرين أفضل طريقة لمقاومة برودة الجو.

وحرك في يده ما لم أتبينه جيدًا: اشترى حفيدي طاهر ثمرة بطاطا، قدَّم لي هذه القطعة، قال إنها من روائح المظاهرات!

وعلا صوته: أدركت أن هذه الثورة بداية تطورات لاحقة.

– ذلك كان تأثير خطبكم في علي تمراز.

– أنا مجرد حلقة في سلسلة.

تألقت عيناه ببريق باسم: أخيرًا، تؤدي المساجد دورها القديم.

أضاف للدهشة المتسائلة في نظرتي: كنا نتابع الأخبار في الإذاعة والصحف … يكلمني أحفادي الآن عن وسائل أخرى كثيرة تجعل البعيد قريبًا. فكَّرت أن أجند شبانًا من رواد قهوة فاروق لتغيير الأحوال، مثلما جند حسن البنا عمالًا من القناة للبدء في تنظيم الإخوان.

– لماذا تراجعت؟

– كنت أعاني ملاحقة البصاصين، فخفت على الشبان!

تناثرت اللجان الشعبية في الميادين، وعلى النواصي، والمفارق، يحملون ما يدافعون به عن الناس في غيبة الشرطة: العصي، الهراوات، البلط، المطارق، أسياخ الحديد.

ربما مثلت ظاهرة اللجان الشعبية إغراءً للفارين من السجون حتى ينشروا الفوضى، صادفت كمينًا لها على مفترق صفر باشا والمسافرخانة، مجموعة من الشبان يرتدون ثيابهم العادية، ويحملون العصي. لو أن الفارين من السجون اندسوا فيهم، كيف تتطور الأمور؟! يحدثنا المثل عن القط الذي يغيب فيلعب الفأر، ماذا يحدث إن اختفي رجال الشرطة؟ رُويتْ بالفعل حكايات كثيرة عن السلب والنهب والسطو المسلح.

داخلني اطمئنان حين عاد حفيدي إيهاب إلى عمله داخل الميناء. كنت قلقًا لتوقف حركة الميناء، منذ أحداث جمعة الغضب. تنبهت إلى أن مَرَضي بالسكر، لم يدفعني — طيلة النهار — إلى دخول دورة المياه.

إذا كنت قد تخوفت من غياب القائد الذي يخطط ويوجه، فإني أحسست بالطمأنينة لتوزع المتظاهرين، لا ينتمون إلى تنظيم محدد، ولا إلى حزب سياسي بذاته، إنهم ينتمون إلى الشعب المصري.

قال لي حفيدي هاني بلهجة مبطنة بالفرحة: انسحبت الشرطة من شارع الإقبال.

– ما يعني هذا؟

– نجاح الثورة.

ووسط الفراغ بجانب يده: لا احتمالات أخرى ... النجاح هو الاحتمال الوحيد.

تصورت من سطوة الشيخ شلبي أبو علي على طلبة المعهد الديني، أن الظاهرة تسللت إلى الشباب في المجالات الأخرى، مفاجأة الأحداث ألغت اتهامات اللامبالاة والسطحية وعدم الاكتراث، أيقنت من نجاح الثورة، دعوت — في خطبة الجمعة — أن ينقذ الله مصر. ملأتني المرارة لما علمت أن خطباء المساجد تحدثوا عن ولي الأمر، واحترام الكبير، وعدم الخروج عن الشرعية.

ما حدث في يناير تحرك أملته الإرادة الشعبية. خرج الشباب، ثم بقية المواطنين، لم تتدخل الأحزاب والتنظيمات السياسية، ولم تتدخل القوات المسلحة إلا بعد أن اكتسبت الثورة ملامحها. تختلف عن حركة عرابي التي تحولت — بتأييد المصريين — إلى ثورة، وعن حركة يوليو التي عرَف بها الناس من بيان الراديو. هي أشبه بثورة ١٩١٩م التي سبق فيها الشعب قادته. تزعم سعد زغلول ثورة ١٩، لكن هذه الثورة — كما أرى — بلا زعيم، بلا قائد. عندما تبدأ الثورة بتحرك شعبي، فهي ثورة، لأن صانعها هو الشعب، إذا بدأت بتحرك نخبة تطلب تأييد الشعب، فهي حركة تصادف القبول أو الرفض.

يعيش المصريون كابوسًا، لكنه يختلف عما عاشوه في فترات سابقة. أخشى — بعد أن أسقطنا مبارك — أننا نسقط أنفسنا، أنا عالم دين، لكنني لا أميل إلى الدولة الدينية. ضايقني حمل عصام شرف على الأعناق، لمجرد أنه تردد على ميدان التحرير، كيف نختار زعماءنا؟

من قام بالثورة هو الأجدر بقيادتها، في كل الدنيا، من يقومون بالثورة هم الذين يتولون قيادتها.

لماذا لا يحدث ذلك هنا؟

أرفض من يختطف الثمرة بعد إتمام نضجها، لا دور الإنبات والري والتسميد والرعاية والحصاد. أرفض الوضع الذي نعيشه، أرفض المقارنة بين ما كان وما صرنا إليه، ما كان انتهى، وبوسعنا أن نضيف إلى الحاضر ليصبح مستقبلًا جيدًا.

لم يكن زحام ميدان التحرير — طيلة ثمانية عشر يومًا — هو المحرك للثورة، محركات الثورة كثيرة، مساحتها الزمنية تبدأ بما يسبق السنوات العشرين من حكم مبارك، ذروتها في تنحي الرجل عن الحكم.

وهو يجذب شحمة أذنه متأملًا: نظلم الأجيال السابقة لو قلنا إنها حصلت على الثمار دون عناء.

وشرد فيما لم أتبينه: كنا في سباق للتتابع. تسلم الشباب الشعلة في مرحلة ما قبل النهاية. على الشباب أن يُتموا ما بدءوه، وعلى الآخرين أن يتبعوهم.

السؤال الذي يحيرني: لماذا اختفى الثوار بعد أن ظهرت ملامح النجاح، ولم يحاولوا استكمالها؟

ربما الشباب اطمأنوا لاستعادة النظام، غادروا الميدان، فاحتله ساسة كل العهود، أخشى على الثورة من السرقة والتزييف وركوب الموجة وتبديل الطريق. تُغيظني المناداة بالعادل المستبد، كيف يكون المستبد عادلًا؟

ترامى هواء الليل مفعمًا بامتزاج رائحة الياسمين والرياح المحملة بروائح الرطوبة والطحالب والأعشاب القادمة من ناحية البحر.

تنبهنا إلى صوت نافذة أُغلقت بعنف.

قال الشيخ: الريح.

# انقطع الخيط فسقطت حبات المسبحة

حين تقاطر الورثة — بإلحاح المحامي مصطفى مروان المطعني — على زاوية خطاب، فقد كان ذلك ما طلبه الشيخ حسن وردي، اعتذر بأن سنه ترفض الأخذ والرد، والاعتراضات، والمناقشات التي لا تنتهي، أنتم تطلبون رأيي، خذوا به أو ارفضوه.

لم تزايله الشخصية القوية، والهيبة، والجلال، وإن أثقلت الشيخوخة حركته.

وضع في يده ورقة مطوية، بها كل ما ينبغي أن يقوله، أو يفعله، في وراثة الوقف، لا ينسى، أو يغفل، شيئًا.

تلفُّت الشيخ مكايد حتحوت يشي بالتوجس من الجميع. عرَفته من كلمات حسن وردي: الحرص على الجبة والقفطان، العينين الجاحظتين، اللغد الممتلئ، آثار الجدري القديم، الصوت ذي الخنف الواضح.

تحدث الشيخ مكايد عن وقف المطعني قبل أن يتولى الشيخ الكبير نظارته. كان بلا لوائح محددة، وبلا موظفين يساعدون الناظر في عمله. اتسع بما لم يكن في بال الورثة، وإن تمنوا امتداد آفاقه، كثرة المهام التي عهد بها الناظر إلى نفسه، أو عهدت بها الظروف إليه، تطلب العون من الورثة حتى ينتظم الأداء. خشي ألا يجد وقتًا ولا جهدًا للمتابعة المنفردة، اختار يسري مدكور لمراجعة حسابات الأوقاف، الدخول والمصروفات، يضبط أصول الوقف، وعمارته، ومصارفه، يحصل على عائداته.

طال النقاش، تباينت الآراء حول من يقود السفينة في غياب الشيخ حتحوت الكبير، هل هو الشيخ مكايد، أو يزكي الورثة من يتحقق في خلافته الإجماع؟

التمعت عينا أنيس رشوان المطعني بتشكك إن كان الشيخ مكايد كاذبًا فيما قال، فطنت — حين وضع راحته على شفتيه — إلى أنه يريد أن يخفي سنة مكسورة في مقدمة

فمه: إذا كان الناظر مسئولًا عن إدارة الوقف فإن من حق الورثة أن يراجعوا العائد الذي يحصل عليه الناظر من إدارته للوقف.

عرفت أن عمل زين العابدين حسن وردي له صلة بالأرقام لَمَّا أظهر استغرابه من المغالاة في الإنفاق، ذكر أرقامًا يعجز الوقف ووارثوه عن تحمُّلها.

في مثل عمري، وإن كشَف قميصَه ذا الكمين القصيرين عن ذراعين ممتلئتين، وظهر — بفك أزرار قميصه العلوية — دَغَلٌ من الشعر الكث.

نبه الشيخ مكايد إلى ضرورة الالتفات لفوارق المصروفات في أزمة الوقف، ما كان، وتوالت الزيادة حتى صارت إلى ما هي عليه.

تلفت حوله ربما ليتأكد أن الورثة يتابعونه: الفوضى التي تعيشها البلاد في العقود الأخيرة، أضرت بالوقف، حتى المستأجرون توقفوا عن السداد.

وهو يلتقط أنفاسه من فمه المفتوح: سِرتُ في الطريق نفسها التي سبقني إليها أبي، لا أحصل من مال الوقف لنفسي ولا لعيالي والقريبين مني، هذا مال ورثه المطاعنة، وهم الأحق به.

أضاف في لهجة متحدية، وذراعاه متقاطعتان فوق صدره: دوري يقتصر على التوزيع بالعدل.

الوقف صدقة جارية، أصله لا يباع، ويجوز التصدق برَيْع العين الموقوفة، بيتًا، أو دكانًا، أو بستانًا، أو أطيانًا زراعية، أو وكالات، كل ما يصح وقفه. لتعاظم الوقف، حرص الشيخ حتحوت الكبير على إنشاء جهاز إداري من موظفين ذوي كفاءة للإشراف على حسابات الوقف، مصروفاته وإيراداته. قوانين الأوقاف تنص على إخضاع الحجج للمراجعة والفحص، إن ثبت صحتها ظلت على وقفيتها، وإن حدث تلاعب، من حق الدولة أن تضمها إلى الوقف الخيري. جعل موظفين للنظر في عقود الإيجار أو الشراء أو النزاعات أو الاستبدال، وغيرها من المعاملات المتصلة بالوقف، حذر — في نبرة متواطئة — من أنه ربما يصعب الوصول إلى موضع الحجة.

من يرتدي صديرية زرقاء، حواشيها مطرزة بنقوش ذهبية، قدم نفسه بأنه أحمد جعفر المطعني، عمل في خدمة الشيخ حتحوت الكبير ما جعل الشيخ يخصه بسر الحجة الحقيقية للوقف، وضع حتحوت الكبير الوثيقة في خزانة حديدية، دفنها في سرداب عميق، لم يبح بسرها حتى لزوجه وأبنائه. لما رحل أخفق الجميع في الوصول إلى موضعها، أتى حتحوت الكبير أكبر أبنائه في منامه، وأخبره بما استعصى من سره.

هل ضاعت الحجة بتأثير الزمن، أو أن الفاعل تعمد إضاعتها، سرقها، نسبها إلى نفسه، وادعى ملكيتها؟

تعددت الاجتهادات حول إمكانية الوصول إلى موضع الحجة.

نفى المحامي مصطفى مروان المطعني أن يكون تصرف الشيخ حتحوت الكبير، ولا الشيخ مكايد من بعده، بلغ تهريب أموال الوقف إلى بنوك في الخارج: لن يقتصر تصرف الأجهزة الرقابية على ما أفلح في تهريبه، لكنه سيفضح أفاعيله في الوقف منذ البدايات.

علا صوت المحامي — في نبرة خطابية — بالحالات التي ضاعت فيها الحجج بالسرقة، أو الإخفاء، أو التشويه، أو إزالة ما يثبت وقفيتها، يدَّعون ملكية ما ليس لهم، يغتصبونه.

وعلا صوته في تأكيد: حتى لو فُقدت حجة الوقف الأصلية، فإن الحسابات تغني عن وجودها.

استطرد أنيس رشوان، وهو يكثر من توسيع فتحتي أنفه، ويستنشق الهواء بعصبية: أبطل الناظر الكثير من الحجج، ومحا حججًا أخرى من سجلات الأوقاف، ساعده موظفون مرتشون، تركوا له تبديل الصحيح بالمكذوب.

طلب الشيخ حسن وردي إيقاف العمل بالدفاتر القديمة، الدفاتر التي يطمئن إليها الورثة، هي التي يرضون بها، يثقون بصحة ما فيها من بيانات وأرقام، أبدى تخوفه من ادعاء الشيخ مكايد ملكية عقارات وأراضٍ أخذها من أصحابها الحقيقيين.

لم يعد ذلك الرجل الهادئ الساكن الملامح، الخفيض الصوت، بدا أنه يبذل جهدًا قاسيًا ليعبر عما في نفسه، غلبه الانفعال، فاختلج شريان في رقبته، علا صوته، وحرك يديه بإشارات كثيرة.

ذكر ما يشترطه قانون الوقف من ضرورة المواءمة بين القواعد الثابتة في حجة الوقف، وبين التغيرات التي تتطلب المواءمة، ما كان في الماضي، وما يحدث الآن، ورؤى المستقبل.

علا صوت زين العابدين حسن وردي يدعو إلى ضرورة العثور على الحجة الأصلية، يثق أن الأيدي العابثة، أو المتفحصة، لم تصل إلى موضع الأوراق، هي مخفية في مكانها، تحمل الأسماء الحقيقية لورثة وقف المطعني، الحجة الأصلية بلا إضافات مقحمة أو تزوير.

أومأ الشيخ مكايد برأسه إلى مِلفات، قال إنها تحوي وثيقة، وضعها الجد المطعني في مكان أمين، لا يعرفه أنس ولا جانٌّ، ولا قراءة النجوم والتعازيم السحرية. وثيقة الوقف ظلت مدفونة تحت عمود في الناحية القبلية من جامع أبي العباس، ثم أخذها الشيخ

حتحوت الكبير من موضعها، منذ إعادة تجديد الجامع في نهاية الحرب العالمية الثانية. الأرضية الحجرية في ساحة قلعة قايتباي أنسب مكان لإخفاء الوثيقة، وضعها بين طبقتين من الخرسانة المسلحة، لا تصل إليها الأيدي، ولا مياه البحر. تحدث عن علامات أشارت إلى موضع الوثيقة، أهمل شائعة أن مخبأ الوثيقة فارغ، وأن قطع الخرسانة المسلحة على الفراغ، لا شيء بينهما، واصل البحث بمعاونة خواص حتى وجد الوثيقة.

هل الوثيقة حقيقية؟ وهل يقتصر الوقف على ما تحمله من أسماء وبيانات؟

دفاتر القيد توارثتها الأجيال، أنساب الأسر والعائلات والقبائل، الزواج والطلاق والنفقة والنسب والميراث. حاول حسن وردي تبين التزوير من التحديق في الخطوط، إن كان الخط مستقيما أم مائلًا، خطوط واضحة، وشاحبة، ومتكسرة، ومطموسة، وصاعدة، وهابطة، ومتشابكة، رسم الحروف والأسماء والأختام والتوقيعات، اقتراب المسافات وابتعادها، الفرق بين الفاء والقاف والعين والغين، تشابك المفردات وابتعادها.

نظام الوقف يقضي بوجود الناظر، واجبه مراقبة الأحوال والإنفاق على ما تقتضيه أعمال الصيانة الفنية للوقف، استخلاص الرَّيْع، صرف حقوق المستحقين.

قال الشيخ مكايد: حجة الوقف تُلزم الناظر بالإنفاق على عمارة الأعيان الموقوفة، وترميمها، حتى لو خصم التكاليف من رَيْع الوقف، أو قطع رواتب المستحقين.

الناظر هو متولي الوقف، هو الواقف، أو من ذريته أو أقاربه أو عتقائه، لا مجال للعتقاء لأن السنين ابتعدت منذ قانون إلغاء الرقيق. الذرية أو الأقارب تعني من هم كذلك، ترفض الطارئين على العائلة، من تمتد جذورهم إلى مسمًّى غير مسمى عائلة الوقف، مكايد حتحوت ورقة من فرع في بدن عائلة حتحوت، بدن مغاير لعائلة المطعني.

بسط الشيخ مكايد حتحوت خريطة، أدركنا أنها الوثيقة التي ربما تلغي كل ما توارثناه من دفاتر القيد، سَرَت همهمات ممزوجة بالغضب. قاطع الشيخ — قبل أن يبدأ كلماته — لغط أصوات الورثة، لا يعترضون على بيع الوقف، يطالبون بأنصبتهم فيه.

قال شفيق مصيلحي المطعني، إنه يقيم في الأطلال المتبقية من بيت متهدم. أن يجد مكانًا يضع فيه جنبه، أفضل من أن يمتلك أرضًا يضع قطبُ الطريقة — التي لا نعرفها — يده عليها. يرتدي جلبابًا أبيض من البوبلين، تُطل من منخاريه حُزمتا شعر، يختلط فيهما السواد والبياض.

لم يتح له جهاز التقويم في أسنانه أن يتكلم بطريقة واضحة، فاكتفى بالقول: إخوتي يعملون للحصول على الوقف.

وبدا كأنه يغالب البكاء: أنا لا تشغلني هذه المسألة.

أردف: أريد أن أصفي حسابي في الوقت.

أردف: من واجب الناظر أن يساعدني في الدعوى أمام القضاء للانسحاب من الوقف.

مسد جابر غيث المطعني براحتيه على سرواله الفضفاض، فوقه صديري على اللحم، تمزق في جوانب منه، وتساقط الكثير من أزراره: أحوالي تغيرت، فلم تعد الزكاة عليَّ، إنما صارت حقًّا لي.

لم أعرفه، وإن بدت سحنته مألوفة، كأننا التقينا من قبل.

فاجأ سند رفاعي المطعني الجميع بأنه لا يريد بيع ما ورثه، ولا التخلي عنه لأي سبب. ما يملكه ورثه عن أبيه، عليه أن يكتب وصيته لأبنائه وأحفاده، لم يرث الكثير عن أبيه، وإن واجه الحسد على الدكان ذي الأبواب الثلاثة في شارع الميدان.

في حوالي الخمسين، البياض يغلب السواد في حاجبيه الكثيفين، اندفس عنقه بين وجهه وجسده، بدا كأنه بلا عنق. لمَّا تكلم لوَّن صوته، وبدَّل قسمات وجهه.

تناهى من الصفوف الخلفية صوت تنبه له الحضور.

مال سند رفاعي على الشيخ مكايد: رزيقة، بنت بلال همام المطعني الموظف بالميناء.

نقل نظرته — بعفوية — إلى رزيقة. في حوالي الثانية والعشرين، لها نظرة واثقة، وإن بدا صوتها أميل للاسترخاء، ذات جسد — رغم ضآلته — متناسق التكوين، لها عينان واسعتان كعيني بقرة، عَقَصت شعرها في هيئة كعكة، يتدلى من أذنيها قُرط فضي طويل، أسفل ذقنها شامة صغيرة، أضافت إلى حسنها، إن ابتسمت، ظهرت غمازتان في وجنتيها، ترتدي بلوزة صوفية خضراء، ذات عنق طويل، وبنطلون جينز، وحذاء كوتشي. زينت معصمها بأسورة من الخرز الملون، ولفت حول رقبتها وشاحًا من الحرير الأحمر.

رُوي عن اشتراكها في المظاهرات الداعية لإسقاط النظام. أثر الجرح العميق في جبهتها وشى بملامستها هراوات الشرطة. ترددت الفتاة على مجلس الشيخ حسن وردي في زاوية خطاب، لاحظ اقتصار أسئلتها في قضايا الوقف.

– الوقف شأن جميع الورثة، لماذا تقتصر الآراء على الرجال؟

عرضت رزيقة أمثلة عن أوقاف جعلها أصحابها لانتفاع نسلهم، دون تفرقة بين ذكر وأنثى، استعادت رواية التاريخ عن الخليفة عمر بن عبد العزيز حين أزمع إلغاء الأوقاف التي أُخرجت منها النساء، لكن المنية عاجلته.

هتف مكايد حتحوت: ذات الهمة جديدة؟

مالت برأسها إلى جانب، لفَّت شعرها حول راحتها، واعتصرته، ثم أهملته فوق كتفيها: ماتت جدتنا ذات الهمة، لكن الميراث لم يضع.

قال الشيخ مكايد: شروط الواقف مثل شروط الشارع في وجوب العمل بها، رفع الجد المطعني أسماء النساء من قوائم الوقف، من الأغصان والأوراق، فلا موضع لهم في شجرة الورثة.

قالت رزيقة: لا أحد يستطيع إنكار حق المرأة في الميراث، الحجة بأن المال ينتقل من الأب إلى الزوج الغريب ينفيها أن الزوج لم يعد غريبًا، بالإضافة إلى أن المرأة ليست في حاجة إلى وصاية.

استطرد حسن وردي: منع الحقوق جريمة، وتجاوز لشرع الله!

وشت لهجة مكايد بضيق: النساء لم يُكتبن في شجرة العائلة، لائحة الوقف تنص على أن يكون للذكور وحدهم، دون الإناث.

قال حسن وردي في نبرة متحدية: شرط المطعني أن يقتصر الورثة على نسله، أن يظلم وريث واحد، فهو ظلم لكل الورثة.

وكسا وجهه استياء: إذا أراد ناظر الوقف أن يحرم وريثًا من حقه فهو يرتكب جريمة تغضب الله.

أظهر طارق نسيم المطعني تأثره لقول الفتاة: قرأت أن بلدانًا أوروبية كانت — إلى القريب — تورث الأنثى ولا تورث الذكر، تجد أن الرجل أقدر على التكسب من المرأة.

استطرد بنبرة ضخمة، ربما استعارها ليداري ما يعانيه صوته من أنوثة: إذا ثبت تقصير الناظر، أو إساءة استخدام نِظارته، فمن حق الورثة أن يعملوا على عزله.

وقطع الفراغ براحة يده: نِظارة الوقف ليست أبدية.

ثم في نبرة تسليم: إن ثبتت صحة هذه الوثيقة فلا بأس.

قال زين العابدين: المهم أن تخلو من التزوير.

كان زين العابدين على دراية جيدة بالأنساب، وتسلسل الأجيال، ومواطن النشأة والهجرة. يصوب الأخطاء في الروايات المتعددة. ربما استعاد اسمًا نسيَتْه روايةٌ ما.

بدت الخطوط مهتزة، ترسم أوراقًا تشابه أوراق الشجر، أعلاها تسمية شجرة النسب. أدرك أن الكريكتور محا أسماء كثيرة، وضع في أماكنها أسماء أخرى. تبدلت القوائم إلى حدٍّ كبير. يصلون إلى حجج الأوقاف، يمسحون الأسماء الموجودة، يضعون — بدلًا منها — أسماء أخرى، تنتسب لغير أصحابها.

قال أنيس رشوان: فلنبحث عن أقاربنا الذين حُذفت أسماؤهم.

بدا في هيئة استعراضية وهو يروي ما يعرفه من معلومات. أعاد التحذير من محاولات دس أسماء غريبة في أوراق لا صلة لها بشجرة العائلة، أُعيد تشكيل النسب، حُذفت أغصان وأوراق وحل غيرها، دُسَّت أسماء في القوائم، حلَّت بدلًا من الأسماء الحقيقية.

قال مكايد حتحوت: تجد الخطأ لأنك تبحث عنه.

واصطنع بسمة سخرية، ربما ليخفي ضيقه: أنت تبحث عن الاختلاف ... عن التزوير.

هز علاء حكيم المطعني رأسه موافقًا، وإن عكست عيناه ريبة: من الصعب إثبات التزوير.

ملامحه أنثوية، تتباين مع صوته الأجش.

وضع مكايد حتحوت راحته على كومة الملفات: البيانات تقول إن الوقف أرض إسلامية ... ليست للبيع أو المبادلة.

ودون أن يدير رأسه: لم أعد مسئولًا عن نظارة الوقف، ليس أهليًّا، لا للمطاعنة ولا سواهم، إنه مسئولية وزير الأوقاف.

بسط إلى جوار الوثيقة الخريطة قوانين ورسائل وأوامر وقرارات، تعين على تأكيد المعنى.

– الأوقاف الأهلية مسئولية وزارة الأوقاف حتى يتسلمها أصحابها.

وهز رأسه دلالة على النفي: لا أحد يملك التصرف في الوقف الخيري، إنه مسئولية هيئة الأوقاف، إذا ظل الوقف قائمًا فإن رَيْعه يُصرف على جهات البر ... المستشفيات والملاجئ والمساجد والكتاتيب.

نطق التوتر في الوجوه. حل صمت، خدشته نظرات التساؤل والغضب. علت الأصوات متداخلة، تُدافع الشيخ، تُغلظ له القول، تعيب عليه تصرفاته، تتهمه باستباحة الوقف وأمواله، حرمان النساء من رَيْع الوقف حتى لا تذهب ثروة العائلة إلى من لا يستحقونها. وجد في فوضى ما بعد ٢٥ يناير ما حفزه للاستيلاء على رَيْع الأوقاف، أو نسبة الوقف إلى نفسه، أو مصادرته لصالح الدولة.

علا صوت مكايد بلهجة حاسمة: لا حق لأي شخص أن يتنازل عن حق وهمي في الأرض، أو ينازع في هذا الحق.

أدرك الشيخ حسن وردي أن مكايد حتحوت يريد اقتلاع الشجرة بأكملها، اجتثاث جذورها، كأنها لم تكن، لا يقتصر الفعل على الأغصان والأوراق، لا أحد يعرف الجهة التي أملت تصرفاته.

شهد بيت شهاب جلال المطعني، المطل على الأنفوشي، اجتماعات لرجال العائلة، يبسطون فيها قوائم الورثة، آلاف الأوراق المكتوبة بخطوط متداخلة ومتكسرة، يصعب قراءتها، يضاهون الخطوط، الحروف الكبيرة والصغيرة، الوضوح والشحوب، التشابه والاختلاف، الاستقامة والميل والانحناء، ما يبدو واضحًا، والأقرب إلى الركاكة.

شجرة النسب لها أغصان، لكل غصن أوراقه، على كل ورقة اسم صاحبها، آلاف الأسماء التي يصعب حصرها.

بذل مصطفى مروان المطعني المحامي جهدًا، حتى يقتنع الشيخ مكايد بالتخلي عن ذرائعه ومماطلاته، لا يحق للشيخ أن يأخذ مال الوقف إلا بوجه شرعي. أومأ إلى أن الورثة ربما يلجئون إلى القضاء.

من حق الورثة أن يحاسبوا الناظر على التجاوزات، وعلى تبدل هيئة الوقف، تحوُّله إلى غير معناه، أو خرابه، أو محوه. إذا ضاع الوقف، استولى عليه من لا يستحقونه، الشيخ مكايد هو من يجب أن يوجَّه إليه الاتهام، شغَله صالحه الشخصي، فأساء إلى صالح الجماعة، لا محل للاجتهاد في موضع النص، ثمة إطار لا يأذن للناظر أن يخرج عنه. إذا ثبت تقصير من الناظر، فإن شرط المطعني يبيح للورثة أن يستغنوا عن خدماته، يعزلوه، ويأتوا بغيره. هدد المحامي باللجوء لديوان محاسبة الأوقاف.

ترك الورثة للشيخ حسن وردي أمر عرض الأوراق الصحيحة، الأسماء الحقيقية للورثة، قلَّب رئيس الحي في الأوراق، ثم اتجه ناحية الشيخ وردي بنظرة رافضة، وقال: إن الوقف أرضٌ حِكر، لا يملكها السكان، من حق إدارة الحي أن تستولي عليها دون تعويض. إن تَهدَّم البيت انتُزعت الأرض، صارت ملكًا للدولة. فطن الشيخ إلى أن يد مكايد حتحوت أجادت التدبيرات ونسج المؤامرة.

عاد الشيخ حسن وردي إلى حيث نجلس في صحن زاوية خطاب، ذكَّرنا بما جاء في وصية جدنا، أنهم يكونون — في حال الخطر — يدًا واحدة، لا يأذنون للخلافات أن تنشأ، إذا حدث لأحدهم ما يؤذي، بادر الجميع إلى إغاثته.

تخلل صوته نبرة تحذير: حصول كل الورثة على ما يستحقون سيفتت الوقف ... تزول عائلة المطعني.

عائلة المطعني شجرة هائلة، جذورها في باطن الأرض، تفرع من جسمها أغصان وأوراق، ما نسميه شجرة العائلة. تغيب دعوى الخوف من التفتت بعدم المساس بالميراث، زيادته وتوسيعه، قصر حصول الورثة على جزء مما يطلبون من الأنصبة، دون خدش لبنية الوقف.

هز رأسه في استياء: صار للشيخ حتحوت — لا ندري كيف — شجرة نسب تنتمي إلى عائلة المطعني.

تداخلت — بالانفعال — حشرجة في صوته: لم أعد أريد من الوقف إلا إثبات الحق، تأكيده. أعرف أن العصفور في اليد أهم عند الورثة من العصافير العشرة التي ربما لا تكون فوق الشجرة.

أدرك أنه أخطأ التعبير، فاستدرك قائلًا: خطر إنكار الوقف يتهدد الجميع.

علت شفتيه ابتسامة مشوبة بالحذر: إن لم نلحق شجرة المطعني فسيلتهم ثمارها الغرباء.

واصلنا الكلام في سيرنا المتباطئ على الأرض الترابية.

رفع ناحيتي نظرة متأثرة: لن أتحدث عن شبابي الذي أجده فيك. أنت لم تعد شابًّا.

واغتصب ابتسامة: متزوج؟

– لأحفادي أبناء.

– أملي أن تفلح فيما لم أستطع إدراكه.

وأنا أخلي له ساعدي في الطريق إلى البيت، فاجأني بالسؤال: أين تقيم في الإسكندرية؟

– فندق سميراميس.

– أين؟

– يطل على ميدان الرمل.

– تركتم بيت إسماعيل صبري؟

– من زمن.

– لك بيت في الإسكندرية؟

– أفضل الإقامة في الفندق.

– والعائلة؟

– طال غيابي عن الجميع.

شابت صوته رنة تحذير: ما حدث يستفزني للعودة.

شرد في هيئة من يتأمل التعبير، لاحت على وجهه ابتسامة شاحبة: خذ مفتاح الكابين ... أعاده لي من احتفظوا به فترة غيابي عن مصر، أصلحوا الدعامات والعوارض الخشبية وبدَّلوا كالون الباب.

ودفع نظَّارته الطبية على أرنبة أنفه: ربما تظل في بحري حتى تجد قضية الوقف حلًّا.

ورفع كتفيه، ومط شفته السفلى: نحن نواجه ما أتصور أننا تغلبنا عليه في ميدان التحرير.

وهز إصبعه في الفراغ: سنواجه الكثير، فلا تيأس!

قلت وأنا أتهيأ للانصراف: ما أسوأ الأيام التي تتذكرها في السنين الماضية؟

– محاولة اغتيال نجيب محفوظ.

أخليت مشاعري للدهشة: ماذا؟

قال لنظرتي المتسائلة: أرفض مواجهة الرأي المخالف بالعنف، علا صوت فرج فودة بما قد يزعج الكثيرين، لكن الحوار بالقتل أبطل كل الحجج.

وخرجت الكلمات من شفتيه متثاقلة: قاومتُ السلطة بالكلام وليس بالسلاح. الدماء تجلب الدماء.

ثم وهو يركز نظراته على نقطة غير مرئية: افعل ما تراه صوابًا، لا تنشغل بردود الأفعال.

ترامى صياح نَورس، التفتُّ — بعفوية — إلى مصدر الصوت: تعلمت أن أحب الناس، أساعدهم بما وسعني، وإن ظللت حريصًا على عدم الحاجة إليهم، والعيش في حالي.

ولاحت على شفتيه ابتسامة وليدة: عندما يتقدم بنا العمر فإن معاملة الناس تتغير إلى الأفضل.

زايلت الابتسامة وجهه: يشفقون على الشيوخ لأنهم في موقف الضعف.

قلت لأداري تأثري: أتمنى لقاءك في القاهرة.

قال: لم يعد في العمر زيادة أتوقع إنفاقها خارج الإسكندرية.

– أطال الله عمركم!

– إذا طال عمر الإنسان فلا بد أن يصبح عجوزًا.

وغلبت الحشرجة صوته: أنا الآن أعاني عجز الشيخوخة، ما أحياه مجرد محطة انتظار، حتى يأتي ما أريده، ما أتوقعه.

أدنى الفنجان من أنفه، يستنشق رائحة القهوة قبل أن يبدأ في احتسائها.

– لم يبق لي من العمر إلا القليل، أملي أن يحصل فيه آل المطعني على حقهم في الوقف.

صمت لثوانٍ، تلفت حوله بنظرات شاردة، تنهد، وقال: إذا كان قد حان وقت جلوسي في الظل، فمن المهم أن أجد من يمتلك العافية والوقت ليدافع عن حق الورثة، يحفزهم للدفاع عن حقهم الضائع، يعوض إخفاقهم باسترداد ما فقدوه.

حدجني بنظرة وامضة: أعرف أني أعيش لحظات عمري الأخيرة، قد يوافيني الأجل قبل أن يذهب الوقف إلى مستحقيه.

ضرب بعصاه الأرض: إذا سكت المطاعنة عن الحفاظ على ما ورثوه، إذا تركوه لمن جعلوا أنفسهم أوصياء، ثم نسبوا إلى أنفسهم حتى اسم المطعني، فإن الوقف سيصبح ملكًا للغرباء.

خيب توقعي أن يصارحني بأنه فعل كل ما يجب فعله، وأنه لم يعد لديه ما يستطيع أن يقدمه لانتزاع الوقف من أيدي سارقيه.

عاود ضرب الأرض: إذا أوقعتك ضربة، فاعتبر ذلك فرصة لاسترداد أنفاسك.

وفي صوت كأنه الحشرجة: أرفض التصور بأن ضياع الوقف حقيقة يجب التسليم بها، لا تسليم في الهزيمة الظالمة.

أدركت — في تلك اللحظة — أن كلًّا منا يعرف ما يفكر فيه الآخر.

قبل أن أميل إلى شارع الحجاري، التفتُّ ناحية المسافرخانة، إلى موضع في جانب الطريق.

كان الشيخ يلوِّح، مودعًا، بيد أثقلها الوهن.

استدار — ببطء — في اتجاه البيت.

# وقائع لا يمكن التنبؤ بها

شاطئ البحر فرصتي في الوحدة والتأمل.

بدا لي سهلًا قضاء أيام في الإسكندرية، بعيدًا — ولو إلى عودة — عن جلسات الوقف، ومطالب الورثة، وملاحظات الشيخ حسن وردي، ورفض الشيخ حتحوت، والصخب، وعما يضايقني.

أمام البحر، تأتي النسمات المنعشة، مفتوح الذراعين أستنشقها ما وسعني، كأنها تصب في أوردتي، الأمواج المتتالية تتكسر على رمال الشاطئ، في شريط متعرج من الزبَد الأبيض، تختلط بالأصداف والأعشاب والحصى وقطع الحجارة، تتقافز الأسماك، تحدث دوائر في المياه، تضيق، تتلاشى.

الأمواج لم تتغير منذ بداية الحياة، تهدأ وتثور، تولد الكائنات وتموت: البشر والحيوان والطير والزواحف والنبات، لكن الأمواج لا تموت، هي في حالة مد وجزر مستمرة، تجاوز ما تصادفه من عوائق، ولا تعرف الانتهاء.

أسير على الشاطئ، يداي معقودتان وراء ظهري، صدري إلى الأمام، أستمع إلى صخب الأمواج، وتكسرها على الرمال. الرمال مغطاة بالقواقع، والعلب الفارغة، والزجاجات، والأسماك الميتة. بجانب عيني أتأمل الأمواج والصخور وتحليق النوارس وتناثر البلنصات والفلايك وأفق البحر.

تظل طيور النورس في تحليقها، حتى تلمح فوق المياه شيئًا يتحرك، تهبط كالومضة، تلتقطه بمنقارها، أو تُنشِب فيه مخالبها.

كل نوع في طير السماء يحلق في سرب منفرد.

لماذا؟

لماذا تُحجم النوارس عن الدخول إلى مدى الآفاق؟ لماذا تقصر طيرانها على الساحل؟

ربما أفتح النافذة الصغيرة، أتنفس هواء الليل المحمل برائحة البحر، أضواء الكلوبات تهتز باهتزاز القوارب فوق الأمواج. أتمدد على الرمال، يحيط بي هدير الأمواج، والنسائم القادمة من البحر، واختلاط روائح الملح واليود والطحالب والأعشاب.

في داخلي تصرفات الشيخ مكايد حتحوت، لا مبالاة الورثة، سيرة الشيخة ذات الهمة، وأمور كثيرة، لم يأذن لي الشيخ حسن وردي بإفشائها.

تمنيت أن أفرغ مما شغلني، أكتفي بالتردد على شاطئ البحر، أدلي السنارة في الموج، أترقب جذبة السمكة الطُّعم.

نزلت بحري، لا أُعنَى بأسماء الشوارع، ولا إلى أين تمضي، الميل في اختراقي لها يفضي إلى طريق الكورنيش، اخترقت الشوارع المرصوفة بأحجار البازلت المستديرة، الصغيرة، الأزقة المتربة، الضيقة، الأبواب الواطئة، مفتوحة، يجلس على عتباتها نسوة ينقين الأرز، أو يقشرن الخضار. فُتحتْ نافذة في مواربة، أَطلَّ منها وجه لم أتبين ملامحه، لحظة واختفى.

على الجانبين صفوف من البيوت القصيرة، القديمة، والعمائر الحديثة. لشوارع السيالة وحاراتها وأزقتها رائحتها التي تذكرني بالحلقة، مختلطة بروائح الطعام وزفارة السمك وبقايا الخضر والطبيخ ومياه الغسيل والعرق والنوم والنُّفايات والبراز والبول والعطن ورائحة المجاري، وما يتسلل إلى الجسد بالخدر. لم يكن شارع الميدان بزحامه الصاخب الحالي، لا تعتذر عن اصطدام كتفك بكتف مارٍّ آخر، المارَّة محدودون، والباعة يُعنَون بالبضاعة وفصال الزبائن، علت الأصوات متداخلة، النداءات والصياح والصراخ والزعيق والشتائم، تداخلت في رأسي هتافات المتظاهرين، عظات الشيخ حسن وردي، نصائح الشيخ أبي البركات، غناء ياسين الحاموني، رفع الأذان من أبي العباس، إنشاد حلقة الذكر، صرير الترام في انحناءة ميدان إبراهيم باشا، أصوات الملاعق والسكاكين المترامية من مطبخ بيت المسافرخانة. لم يثبت صوت ما، نفضتُ رأسي، وواصلت السير.

رأيت — من قبل — كل شيء، هي الدنيا التي اعتدت السير فيها، لكن معظم الأشياء — لطول غيابي — كأني أراها للمرة الأولى. شعرت — في أثناء سيري — أني أنتمي إلى الناس والبنايات والشوارع الضيقة الكثيرة الانعطافات والانحناءات والحواري والأزقة أعرف الملامح والقسمات جيدًا، دون أن أحدق فيها، أو أعيد النظر إليها، مشاهد أخذت مواضعها في ذاكرتي، أعرف حتى الصور التي عبرتها دون أن أنظر ناحيتها، وخلفتها ورائي.

ندَّت عني صيحة دهشة لرؤية ضريح سيدي محمد شرف الدين، بالقرب من جامع علي تمراز: كيف لم أره؟!

مساحة صغيرة تحيط بالمقام ذي الكسوة الخضراء، تطل عليه الأعلام من وراء الباب الحديدي. لصغر حجمه، ولموضعه في زاوية الميدان، ظل غائبًا عن تلفُّت نظراتي.

هذا العدد الكبير من الجوامع والمساجد والمآذن والقباب والزوايا والمقامات والأضرحة، استعدت قول الشيخ حسن وردي: لأن الدنيا ضاقت بأهل بحري، حاولوا أن يتغلبوا على ضوائقهم بالاتجاه إلى السماء.

تمشيت على أرصفة الميناء، بين اللوادر والخطاطيف الحديدية المدلَّاة من الأوناش والشاحنات وقاطرات المازوت وعمليات الشحن والتفريغ وحبال السفن وشباك الصيد والفلايك الصغيرة وبلوطات البضائع ورصات الأجولة والصناديق ورائحة العطن والزيت المتسرب، أرقب البواخر الضخمة واللنشات والفلايك الصغيرة، أقرأ الأسماء على جنباتها. من حولي مشهد غبت عنه أعوامًا طويلة، جنود البحرية وخفر السواحل وعمال الميناء، هياكل البلنصات في القزق تغطت بالشباك، وضعها الصيادون لتجفيفها، وطيور البحر تشكل سُحبًا متقاربة من الصخب، تختلط صفارات السفن ونداءات سائقي سيارات النقل وعربات الكارو وأصحاب القوارب والعاملين في الميناء وصراخ النوارس في امتداد الساحل.

سرت وحيدًا على شاطئ الأنفوشي.

اللسان الحجري، الممتد في داخل البحر، صنعته كُومات الحجارة، يؤنسني وقع خطواتي، وتكسر الأصداف والقواقع تحت الحذاء. تنبهت إلى طائر نورس وحيد، يتجه — بسرعة — نحو الأمواج الساكنة، يصعد بسمكة تنتفض بين منقاره.

عربات النقل تصعد الدحديرة المفضية إلى حافة الشاطئ الجيري، تقذف بحمولتها من ردم البنايات المنهارة، تزيد مساحة اليابسة الداخلة في البحر.

حين تناهى وقع الخطوات إلى الفئران المتقافزة فوق قطع الحجارة البيضاء الضخمة، اختبأت في الشقوق.

لمحت الكابين.

رفع العجوز رأسه من رَفْو الغزْل في أصابعه، حدجني بنظرة متسائلة وهو يهز رأسه تجاه الكابين: هل تقيم هنا؟

– هي للشيخ حسن وردي. استضافني فيها.

لم يكن المكان بعيدًا عن الناس، خطوات قليلة تفصل بين موضعه والشاطئ، خطوات أخرى تمضي بي إلى قلعة قايتباي، أو تميل إلى اليسار في اتجاه حلقة السمك، وما تلاها إلى شاطئ الأنفوشي، حتى قصر رأس التين، ربما ملت إلى اليسار في امتداد طريق الكورنيش،

حتى السلسلة وما بعدها. يجتذبني الشارع الجانبي إلى ميدان أبي العباس، أعبره إلى ميدان الأئمة. ربما اخترقت الزحام — من اليمين — إلى السيالة، أو — من اليسار — إلى الموازيني والحجاري والشوارع المتصلة بهما.

الكابين معزول عن الشاطئ، هياكل القوارب تفصل بينه وبين الكبائن الأخرى في اتجاه نقطة الأنفوشي.

تحسست المفتاح — براحة يدي — داخل جيب البنطلون. الباب الضيق يفضي إلى أرضية من الأسمنت.

واربت ضلفة الباب، الكابين ينضح برائحة الرطوبة، وإن تسللت نسائم هادئة، مشبعة برائحة الأعشاب والطحالب والملح، لا يبدو — من النافذة الصغيرة — إلا السماء وأفق البحر، أرقب الظلال وهي تزحف على ضوء النهار، تقضِم أطرافه، حتى تحل الظلمة تمامًا.

صحوت على الظلمة، الستارة المسدلة على النافذة صعَّبت تعرفي إلى الوقت، إن كان ليلًا أو نهارًا، تسللت نظراتي من وراء الخَصاص الموارَب، جعلت الظلمة من البحر والسماء شيئًا واحدًا.

اختلط — عبر النافذة — هدير أمواج الأنفوشي، بترامي أصوات أنفاس عالية، منتظمة، وترددات أنفاس، وحفيف أثواب، ووقع أقدام تغوص في الرمال، في أذني قول حسن وردي: مكايد حتحوت يريد ضم الكابين إلى أملاكه، فعل كل ما يستطيع لإبعادي عنها.

وقفت وسط الكابين، أعاني الوحدة والخوف، أرهف السمع للأصوات في الخارج، هبات الريح، صخب الموج، صياح الطير فوق الساحل، أستبين توقعات الخطر، الأشياء الصغيرة، المتناثرة، ارتدَّت من السقف والجدران، قذف بها ضغط الهواء.

هل ما رأيته حقيقة أو حلم أو هذيان المعاناة التي قيدت أفكاري وتصرفاتي؟

أخلو إلى نفسي — أوقات السحر — في الكابين، تتكاثف الظلمة إلى حد انعدام الرؤية. أتوقع، وأنتظر لحظات انبثاق الفجر، أعرف معنى تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. اللحظات تسبق البزوغ التدريجي للفجر، لا أشعر بكيفية اقترابها، ألحظ تأثيراتها على المرئيات من حولي، كأنها غِلالات بلا حصر، كلما نقصت غِلالة رقَّت الظلمة حتى أتنبه — لا أعرف متى، ولا كيف — إلى قدوم النهار.

الموج الساكن يُضوِّي بأَلَق بقايا زيوت البواخر العالقة فوق المياه.

لا صوت، عدا ملامسة الموج للشاطئ، وأصوات متباعدة لموتور لنش، أو صفارة باخرة في الميناء الغربي.

بدا لي أن الكابين تتخلله ثقوب، وأن الثقوب تنظر منها أعين لا أعرف أصحابها، عشرات الأعين تحدق في داخل الكابين من كل الجوانب، مجرد النظرات التي لا أعرف إن كان الفضول هو الذي يدفعها، أو أنها تُعِد لأمر يصعب فهمه.

نهضت مفزوعًا، أضأت نور الكابين، انسحبت الأعين الملتمعة، عادت الجدران إلى استوائها.

مددت إصبعي، وضغطت على الزر، ظل النور مطفأً. أدركت أن التيار الكهربي مقطوع. دفعت قبضتي في موضع النافذة، لكن الظلام بقي سادرًا.

عانيت حيرة لإضاءة الكابين، كنت أطفأته حين غادرته، أو للظلمة التي تلفُّه، وكنت أضأته، فتظل تلك حاله عند عودتي.

الكابين كلها من الخشب، السقف من عروق الخشب، قائم على أعمدة خشبية، حتى الأرضية تغطت بقطع خشبية متلاصقة.

تنبهت على جلَبة، كأن خطرًا يرج الباب، ترامت أصوات غريبة، ليست من البحر، ولا من الأرض، يختلط فيها النعيق والزئير والهديل وصفارات البواخر، وأصوات أخرى موحشة، كئيبة. تضوَّع أريج بخور لم أدر مصدره، أعقبه اختلاط روائح الملح واليود والطحالب والأعشاب والأسماك الميتة.

لم ألحظ متى أطلَّت العينان الواسعتان من النافذة المفتوحة. هل قدم الكائن الغريب من البحر، أو أنه كان ينتظر على الشاطئ؟

الجسد العملاق، الشعر المهوش المحيط بالوجه، العينان اللتان تصدران شررًا.

انتصب الكائن كمارد. تقلصت يداه المِخلبيتان على حافة النافذة.

انتفضت مفزوعًا، صارخًا، على ما رأيت، لا أعرف إن كان الجسم الغريب قد فتح النافذة، أم أني نسيت إغلاقها؟ وهل حدث — أمام النافذة — ما أيقظني، أو أني صحوت من تلقاء نفسي؟

سد الكابين الخشبي بجسده العملاق، لا أعرف طوله ولا عرضه تمامًا، عمقت الظلمة بسد النافذة، فلم أر شيئًا، لم أر حتى نفسي.

لم يلبث الجسم الغريب إلا بمقدار ما رأيته، ظهر، ومضى، فيما يشبه الومضة الخاطفة، ابتلعته ظلمة الليل، لا أعرف إن كان قد اتجه ناحية السماء من نفسه، أم من صرختي العالية، الخائفة. اخترق الظلمة دون أن يخلِّف أثرًا — عدا الخوف في داخلي — أشبه بما يفعله إلقاء الحجر في البحر، يصنع دائرة، تتسع في البداية، ثم تضيق، وتتلاشى.

ظننت الأمر حلمًا، أو كابوسًا، لكنه لم يتبدل وأنا واقف داخل الكابين. تملكني الإحساس بالخطر، وأني غير قادر على معرفته، أو مواجهته.

هل يسكن البحر، أو أنه اختفى في الأفق؟ أو لعله من سكان تحت الأرض، يظهرون في الأوقات التي يختارونها؟

تألمت لوخز الأعشاب، أدركت — لتألم قدمي — أني تركت الكشك حافيًا.

كتمت أنفاسي حين سمعت وقع ابتعاد أقدام على الحصى والأصداف.

حدقت في مقبض الباب، أتوقع تحركه، لكن الصمت ظل سادرًا.

عرَفت من النقرات فوق السطح أن المطر بدأ في الانهمار، قلَّت النقرات، تساقطت متباعدة، توقعت سكوتها، تلاشيها، لكن وقعها تزايد، وتقارب سقوطها، وعلا صوتها، تحولت إلى مطر حقيقي، هطلت كسيل، تسربت إلى الداخل من الثقوب والشقوق، صنعت بِركًا في الأرضية الحجرية، شعرت أني في حصار اختلاط هدير الأمواج وصيحات الطيور وصفير البواخر، اهتز السقف والجدران، كأن الكابين يتهيأ للسقوط، أحسست بالاهتزازات تخترق جسدي، نسيت — في احتمائي بالكابين — خوفي من الظلمة.

توقعت أن تطيح الرياح العنيفة بسقف الكابين، ينهار قبل أن أستطيع الهرب.

تلفتُّ إلى الجدران في حيرة، أتبين ما إذا كان تحركها ناحيتي، ضاقت المسافة بين الجدران، وبينها وبيني، كأنها تهم بالإطباق، والسقف ينخفض في اتجاه الأرض.

أخذت الجدران تضيق، وتضيق، حاولت التراجع، لم أعرف كيف، ولا إلى أين. تلاشت الظلال، حدست أن الجدران ستواصل التضييق حتى تهصِرني، تقتلني.

رمقني الجسد الذي بلغ السقف، بعينين هائلتي الاتساع، كأنهما لحيوان لا أعرفه، لم أره من قبل، ثم اندفع نحو النافذة المفتوحة، واختفى في الظلمة. امتصه الصمت السادر، كأنه لم يكن.

قتلني الخوف.

أدركت أني لن أستعيد بصراخي — إن حاولت الصراخ — حتى الصدى، الصمت يشمل كل شيء، يمتد إلى نهاية الآفاق، البرد الشديد أخلى المكان: الساحل والشاطئ وطريق الكورنيش.

تقارب السقف والجدران، ضاقت المساحة من حولي، وفوقه، تقلصت، كأني في داخل زنزانة، داخل تابوت، قبر، يضغط بقسوة، يتداخل ما يحيط بي في جسدي، يطحن عظامي، يكتم أنفاسي، لا أقوى على الحركة، ولا الرؤية، ولا الصراخ، كمن انفصلت عن الدنيا.

شعرت أن الكابين يهتز في العاصفة، كأنه سيتقوض، أو يطير من مكانه.

تملكتني رغبة في الفرار.

لو أني فررت من الكابين قبل أن ينطبق، فسأجد حياتي.

تمنيت أن يلهمني الله، فأجد خلاصًا مما أنا فيه، منفذًا أغادر منه الكابين، أجاوز الحصار والتوقعات القاسية. أستعيد كلمات رزيقة القلقة، كلمات حسن وردي، أسئلة سكينة عن جدوي الميراث، صمت مرتضى وياقوت عن التعليق، هتافات الطلبة في خروجهم من بيت المسافرخانة.

بدا الشَّقُّ الطولي الضيق منفذًا محتملًا، أنفذ منه خارج الحجرة المصمتة، الشَّقُّ يأذن بما لا يزيد عن السنتيمترين، ما أستطيع أن أفعله هو أن أنفذ بأصابعي منه، وأحاول توسيعه، أضيف إلى مساحة الشق بما يساعدني على الخروج، أحاول، هذا هو ما أملكه. ربما لاحظ الناس في الشاطئ تحرك أصابعي، يحاولون إنقاذي.

هنـــداوي